أصول
الفكر التربوي في الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

اعتنى بتصحيحه

سمير أحمد العطّار



عجمان - الإمارات العربيّة المتحدة - ص.ب ١٢٤٣ - تليفون ٤٢١٥٤٣



دمشق - شارع مسلّم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٣١١ - هاتف ٢٢٥٨٧٧

بيروت - ص.ب ٦٣١٨ / ١١٣

أصول الفكر التربوي في الإسلام

الدكتور عبّاس محجوب

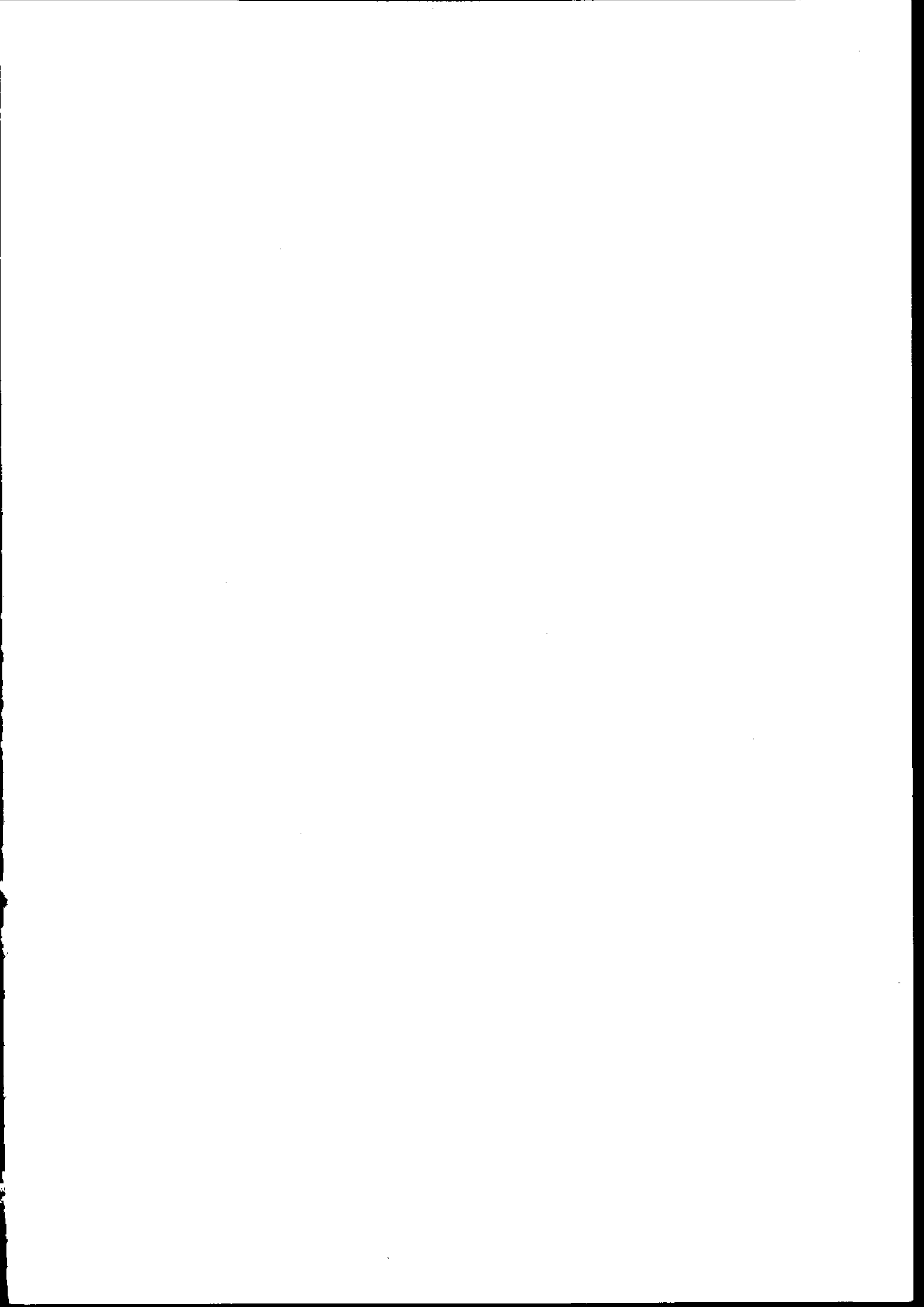
مؤسسة علوم القرآن
عجمان

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلىٰ وَالدَيَّ وَقَدْ أَحْسَنَا بِي مَا وَسعَهمَا الإِحْسَان. وَبَذلا مَا قُدِّرَ لهمَا مِنَ البَذْلِ. أَجْزَلَ اللَّهُ ثوابَهُمَا وَأَحْسَنَ جَزَاءَهُمَا.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضوع هذا الكتاب مرتبط بثماني سنوات قضيتها في طيبة الطيِّبة ـ على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ مدرِّساً في الجامعة الإسلامية بها.

ويرجع ارتباطي بالتربية إلى سنوات قضيتها في السودان مدرِّساً في المدارس العامة، مما جعلني شديد الرغبة في الالتحاق بالدراسات العليا في جامعة عين شمس كلية التربية، أثناء تحضيري لدرجتي الماجستير والدكتوراه في جامعة القاهرة.

وقد لاحظت في دراستي تلك، أن كثيراً من المفهومات والنظريات التي تدرس في التربية وعلم النفس، وتنسب إلى مفكرين وعلماء في الغرب، لها جذور وأصول ومواقع في القرآن الكريم والسنة المطهرة سبقا بها قبل قرون. ومع ذلك قلّ أن يشير إليها أحد أو يقوم بدراسة مقارنة. ثم أراد الله أن يكلفني قسم الدعوة في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة بوضع تصور كامل لمنهج في التربية الإسلامية، وطرق تدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية، حيث كانت الجامعة قبل سنوات بصدد إدخال هاتين المادتين في مناهجها.

قمت بوضع المنهجين المطلوبين مستعيناً بعد الله بآراء أساتذة الجامعة المهتمين بالأمر، وبتصور سابق كان المجلس الأعلى قد كلف به

الأستاذين الدكتور كامل الباقر مدير جامعة أم درمان الإسلامية الأسبق والأستاذ محمد قطب أستاذ الدراسات العليا بجامعة أم القرى، حيث استفدت كثيراً من تصورهما في ذلك المنهج.

وعلى ضوء ذلك المنهج الذي أقره قسم الدعوة ثم مجلس الكلية ومجلس الجامعة طلب مني وضع مذكرة للطلاب عاجلة تكون تحت أيديهم في دراسة ذلك المنهج، فكتبت تلك المذكرة التي بدأت بنشرها في شكل بحوث منفصلة في مجلة الجامعة الإسلامية والتي كنت أشرف على الناحية التنفيذية في تحريرها لأعوام ثلاثة.

وفي العام الدراسي ٨١ ـ ١٩٨٢ م أعطتني الجامعة تفرغاً لمدة عام لكتابة بحث عن «الجوانب النظرية والتطبيقية في التربية الإسلامية» فحاولت أن أعمِّق ذلك البحث القديم، غير أني بدأت أكتب شيئاً مختلفاً وبرؤيا مختلفة.

لم يدر بخلدي أن أظهر تلك البحوث في كتاب لإحساسي بأنها ينقصها الكثير وتحتاج إلى مزيد من الإضافة والتحقيق، غير أن كثيراً من الناس والزملاء كانوا يثنون عليها ويحسبون أن في نشرها ستكون فائدة، وأن أي كتاب يحتاج إلى تنقيح وإضافات وحذف خلال طبعاته، لأنه كالمولود يبدأ معتمداً على غيره حتى يقوى عوده ويقف على رجليه. فكان هذا كله دافعاً لإصدار تلك البحوث في هذا الكتاب الذي بين يديك، والذي لا يعدو أن يكون جهداً متواضعاً بل محاولة في إضافة شيء أو توضيحه مع المحاولات الجادة الكريمة التي تبذل هنا وهناك في سبيل تأصيل تربية إسلامية وعلم نفس إسلامي معتمدين على الكتاب والسنة.

إن التطور الذي حدث في المجتمعات الإسلامية، والاتجاه الجاد منها في الأخذ بالإسلام شريعة ومنهجاً ونظاماً للحياة بعد المعاناة من الأنظمة البشرية؛ يقتضي ذلك إعادة النظر في مناهج التعليم والتربية وفي محتوى التعليم وأهدافه بحيث تبنى الحياة كلها في أنشطتها المختلفة وفق

تربية الإسلام وفلسفته ونظرته للحياة والكون والناس، باعتبار التربية وسيلة المجتمع في إحداث التغيير المطلوب، ومواكبة التطور ونقل المقومات الأساسية للأمة المسلمة إلى الأجيال المتعاقبة.

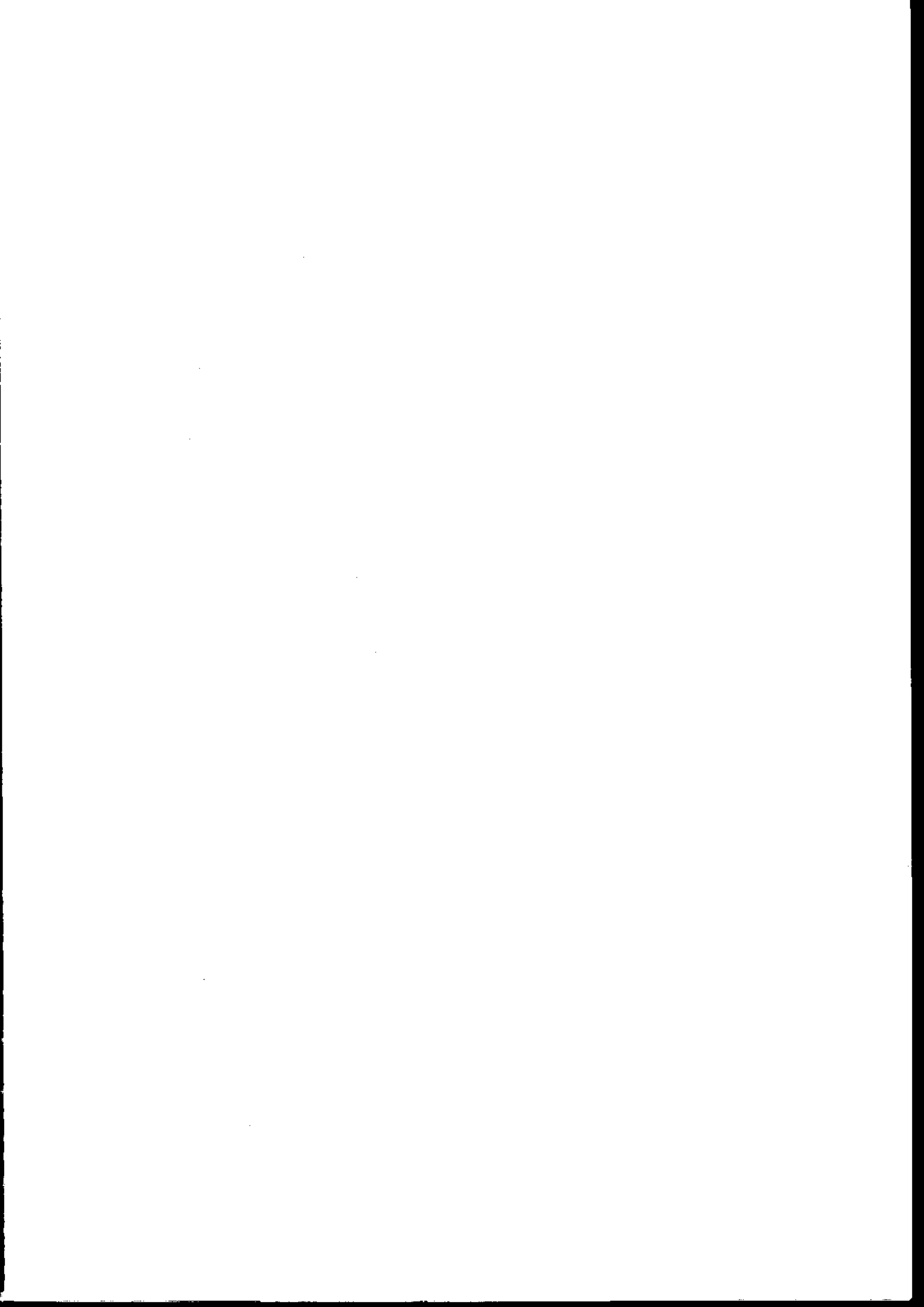
وقد جاء الإسلام ـ كما نعلم ـ بعد عهود من الظلام عاشتها البشرية، جاء انقلاباً في الحياة البشرية ـ مقوماتها ومعتقداتها وقيمها وأنماط حياتها ـ جاء لتحرير الإنسان ليرتفع من عبادة مستعبدة إلى عبادة مانحة للحرية رابطة للإنسان بمانح الحياة والوجود، جاء لصياغة الإنسان في الأرض صياغة جديدة ولتشكيل سلوكه بسلوك جديد يتناسب مع فطرته، ويتفق مع إنسانيته وينسجم مع وظيفته في خلافة الأرض.

كانت التربية الوسيلة التي تبلور فيها هدف الإسلام ومشروعه المقدم لصياغة الجنس البشري وفق منهج الله وتربيته، ونظامه، وقيمه، ومعاييره وأساليبه.

ولم يكن ذلك بمعجزة من السماء بل بجهد يبذله البشر في سبيل تغيير واقعهم، وتحسين دنياهم، وعلى قدر الجهد والبذل والعطاء تكون النتيجة والوصول إلى الهدف ﴿ إِنَّ الله لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما بِأنفُسِهِم ﴾ [الرعد: ١١].

استطاعت الإنسانية في عصرنا أن تحقق تقدماً مادياً ملموساً، وطفرة في استخدام العلم للحياة، ولكنها مع ذلك لم تحقق للإنسان ما يسمو به للمثالية، وما يحقق له الأمن والسعادة لأن البشرية قد خدعت في قدرات العلم وعطاء الحضارة، وظن الناس أن التطور المادي الحضاري سيعوض الإنسان عن حاجاته النفسية ومطالبه الفطرية في التدين والاعتقاد والسلامة والأمن والسعادة والرفاهية، غير أن الظن قد خاب نتيجة فقدان الحضارة بدرجة كافية للمقومات الروحية، والأسس الأخلاقية الحاكمة للحياة.

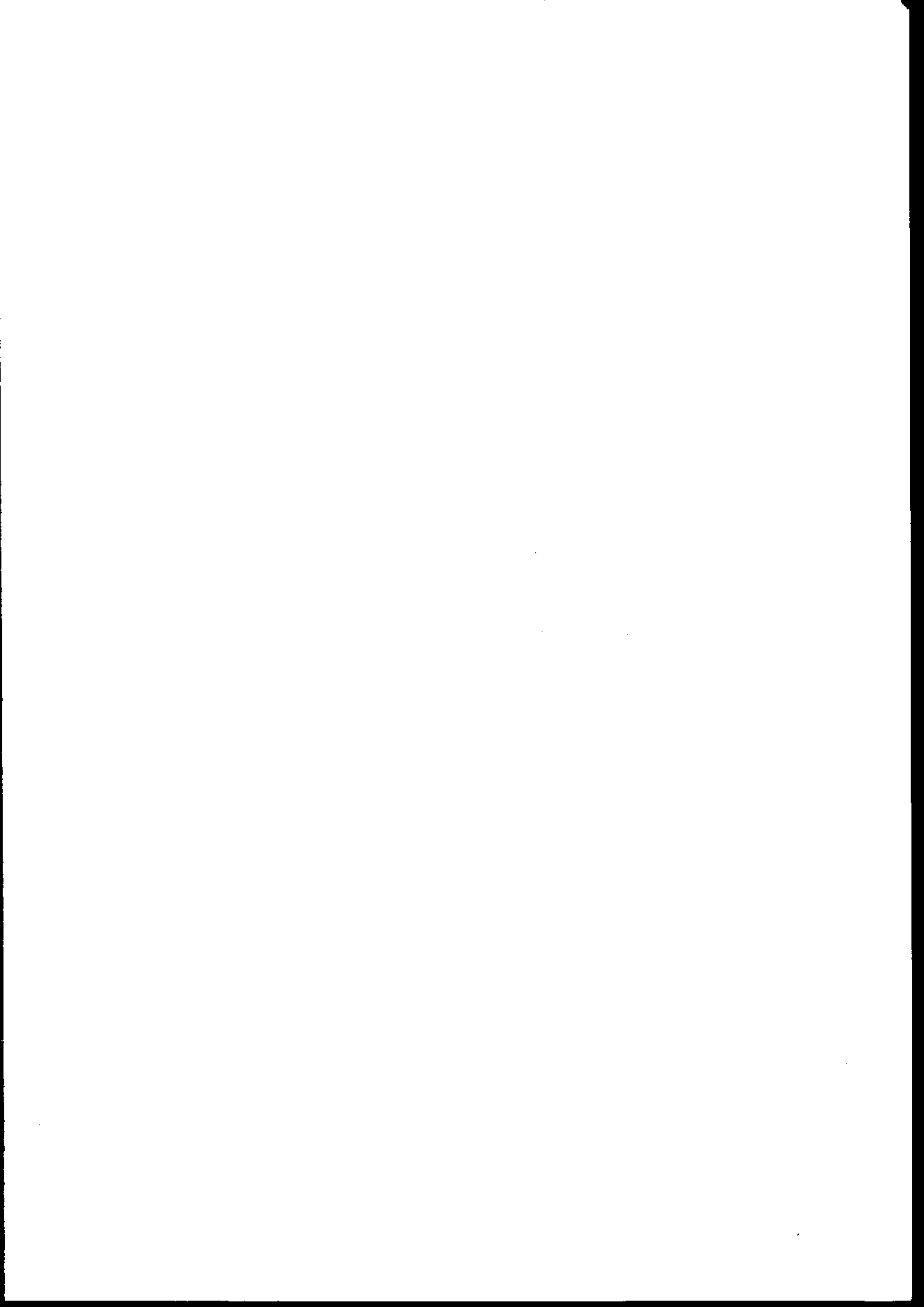
إن التقدم العلمي قد طوَّر كما ذكرنا قدرات الإنسان المادية في



مــدخــــل

أولاً: معنى التربية.

ثانياً: فلسفة التربية الإسلامية ومميزاتها.



أولاً: معنى التربية

تدور كلمة التربية في اللغة حول تنشئة الطفل مادياً بتغذيته ورعايته جسمياً، وعقلياً بتزويده بما يناسبه من ضروب المعرفة الإنسانية والثقافة البشرية، وتغذيته روحياً بتزويده بما يهذب نفسه ويزكّيها ويسمو بها، وقد وردت الكلمة في معانيها اللغوية بمعنى الرعاية والزيادة والإصلاح والنشأة والنماء والكمال، فقد ورد في القاموس المحيط «فرَبَّها نمّاها وأصلحها، وربربَ الرجلُ إذا رَبَّى يتيماً، وربربتُ الأمرَ أصلحتُه وجعلتُه متيناً قوياً، والرَّبيبة الحاضنة لأنها تصلح الشيء وتقوم به وتجمعه»[1] فالكلمة تدل على معنى الإصلاح والجمع، وقد تستعمل مجازاً بمعنى التهذيب وعلوّ المنزلة، فيقال فلان في رباوة قومه أي أشرافهم وساداتهم.

وتعني التربية في اللغة أيضاً التغذية أي تغذية الجسم وتربيته بما يحتاج إليه من مأكل ومشرب ليشبّ قوياً معافىً قادراً على مواجهة تكاليف الحياة ومشقاتها، فتغذية الإنسان والوصول به إلى حد الكمال هو معنى التربية ويشمل بهذا المفهوم كل ما يغذّى في الإنسان جسماً وعقلاً وروحاً وإحساساً ووجداناً وعاطفةً.

ولأن العلماء يثرون العلم ـ وإثراؤه تربية للنفوس وتهذيب لها ـ سُمّوا

(١) القاموس المحيط، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

بالربّانيين، لأنهم يربّون الناس على ما أراده الله لهم. يقول ابن حجر: «وقد فسّر ابن عباس الربّاني بأنه الحكيم الفقيه، ووافقه ابن مسعود فيما رواه إبراهيم الحربي في غربيه عنه بإسناد صحيح. وقال الأصمعي والإسماعيلي: الرّبّاني نسبة إلى الرب أي الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل. وقال ثعلب: قيل للعماء ربّانيون لأنهم يربّون العلم أي يقومون به، وزيدت الألف والنون للمبالغة، والحاصل أنه اختلف في هذه النسبة هل هي نسبة إلى الرب أو إلى التربية، والتربية على هذا للعلم وعلى ما حكاه البخاري لتعلمه[1]. وقال ابن الأعرابي: لا يقال للعالم ربّاني حتى يكون عالماً معلِّماً عاملاً»[2] وقد أورد في المتن تعريف بعضهم الربّاني: «الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره» «والمراد بصغار العلم ما وضح من مسائله وبكباره ما دقّ منها. وقيل يعلمهم جزئياته قبل كلِّياته، أو فروعه قبل أصوله أو مقدماته قبل مقاصده»[3] وكل هذه التعريفات تدل على مدى ارتباط التربية بتعليم الإنسان وتوجيهه وتنمية مواهبه وقدراته للوصول به إلى الكمال الإنساني الموصل للإنسان إلى غاياته المتصلة بسر وجوده في الأرض.

ويختلف تعريف التربية اصطلاحاً باختلاف المنطلقات الفلسفية التي تخضع لها النظرية التربوية، وباختلاف الطرق والوسائل التي تسلكها الجماعات الإنسانية في تدريب أجيالها وإرساء قِيَمِها ومعتقداتها، وباختلاف الآراء حول مفهوم العملية التربوية وطرقها ووسائلها.

فأفلاطون الذي كان يتفق مع أستاذه سقراط في أهمية وضع نظرية تربوية جديدة، كان يرى في التربية عملية توجيه وجذب الأطفال إلى الطريق الذي رسمته القوانين وأكدت عدالته خبرات ذوي العقول المفكرة، كما رأى أن التربية والسياسة تهدفان لتحقيق النظام الأسمى في الحياة، ويجب أن تكون التربية في مراحلها الأولى أدنى إلى التسلية منها إلى

(١، ٢، ٣) راجع فتح الباري ج أول ص ١٦١ ـ ١٦٢.

الجد، لأنها وسيلة الكبار لمعرفة ميول الأطفال الطبيعية، والتربية عند أفلاطون مرتبطة بالأخلاق التي يقصد بها العلاقات الإنسانية وطرائق العمل، وأهمية ربط التربية بالأخلاق أنها تؤدي إلى كبح جماح الشهوات عند الإنسان وتدفعها إلى طريق الحق والخير فتنعدم المنازعات بين الناس، وركيزة الأخلاق عنده أن يؤمن الناس بإله وبِدِين يهديهم سواء السبيل، فيه من الثواب الحسن ما يشجع على فعل الخير ومن العقاب ما يزجر الضالّ عن شروره، ويعضد الثواب والعقاب بحتمية الخلود النفسي حتى يكون الخيّر مطمئناً إلى حسن الثواب عن أعماله، ويخاف المذنب شر أفعاله.

ولاتفاق أرسطو مع أستاذه أفلاطون في كثير من آرائه فقد اتفقا على أن التربية من وظائف الدولة وأنها تعتمد في تربية الرجل على عاملَين هامَّين: الجسم الصحيح السليم، ثم تكوين عادات جسمية مناسبة، ويرى أرسطو أن التربية عن طريق تكوين العادات الصالحة يجب أن تكون سابقة لتربية العقل، فكلاهما يهتم بتنمية العقل إلى جانب الجسم باعتبارهما انعكاساً للقوة الإلّهية، لأن سعادة الإنسان في إيمانه ووحدته مع القوة العليا، والإيمان البشري بقوة الإلّه كفيل بتمكين الإنسان من اتخاذ القرارات الحكيمة في سبل الحياة المختلفة، فالتربية عند أرسطو تعني النمو النفسي الجسمي السليم للفرد.

وأهمية آراء أرسطو التربوية أنها كانت المعين الذي استقى منه الفكر التربوي الحديث وكانت أساساً لكثير من مناهج التعليم، بل إن تقسيم أرسطو للمعرفة كان الأساس الذي أُخذ به في المعاهد القديمة حتى القرن الثالث عشر، وليس معنى هذا أن آراءه كلها قد أُخذ بها، لأن كثيراً من آرائه قد اهتزت في عصر النهضة وبعد ظهور التجريب والبحث العلمي في الغرب، كما واجهت آراؤه في الطبيعة خاصة نقداً كثيراً وإن ظلت آراؤه في المنطق محوراً للمناقشات.

المفهوم الإسلامي للتربية:

جاء الإسلام ليجد ثلاث نظريات تربوية تسود العالم ممثلة في التربية الفارسية والإغريقية والمسيحية، وقد ركزت التربية الإسلامية على الجانب العملي في التربية فدعت من أول أمرها إلى تعليم الناس وتثقيف عقولهم وتصفية أرواحهم وتقوية أجسادهم ليكونوا أهلاً لمسؤوليات الدعوة الجديدة التي كلفوا بحملها إلى البشر، واعتمدت التربية على التلقين والمحاكاة في مجتمع أنشىء على منهج التربية الإسلامية التي تعتمد على أصلين هما القرآن والسنة، وتمثلت أصول التربية الإسلامية في مفاهيم عامة تمكن المسلمين من مسايرة التطور الإنساني مع اختلاف الأزمنة والعصور، وتتكيف مع المطالب البشرية المستحدثة التي لا تمنع من الاجتهاد كما ركزت هذه التربية على توجيه المسلمين أن يحوِّلوا ما تعلموه ووُجهوا إليه إلى ممارسات في الواقع وتطبيقات في الحياة، وأصبحت التربية تعني العمل على أن ينسجم المسلم مع قوانين الفطرة، وأن تتناسق حياته مع نواميس العالم الذي يعيش فيه والكون الذي يحيط به وأن تهيِّىء له الأسباب وتوفر له المعطيات التي تساعده على أداء وظيفته في خلافة الأرض واستحقاق الجزاء الحسن عند الله. وأن تعمل التربية على تحقيق التوازن بين حاجات الإنسان الروحية والمادية والاجتماعية.

فالتربية الإسلامية اهتمت بالجانب الروحي لما في الإنسان من نفخة روح الله سبحانه وتعالى ولأنها هي التي تقوي الصلة بين الله وعبده، كما اهتمت بالجانب المادي في الإنسان حيث هو مخلوق من الطين وللطين حاجاته ورغباته، وحيث حاجة هذا الجانب إلى التنظيم والضوابط والمهارات التي تمكنه من القيام بواجب الخلافة.

مفهوم التربية لدى المحدَثين:

كان لمفهوم الإسلام عن التربية وقيامها على أسس دينية تأثير كبير في النظريات التربوية التي ظهرت بعد الإسلام، وقد اتفقت جميعها في

وظيفة التربية ودورها في تدعيم عقيدة الأمة وتراثها الروحي بصرف النظر عن صحة العقيدة وصلاحها لبناء الحياة والحضارة. وقد عرّف (جون ديوي) ـ من كبار علماء التربية في أمريكا ـ التربية بأنها «وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد وتغذيتها بالاقتناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز وتسليمها بالدلائل العلمية إذا احتيج لها، ووسيلة كريمة لتخليد هذه العقيدة ونقلها سليمة إلى الأجيال القادمة وإن أفضل تفسير لنظام التربية هي أنها السعي الحثيث المتواصل يقوم به الآباء والمربون لإنشاء أبنائهم على الإيمان بالعقيدة التي يؤمنون بها والنظرة التي ينظرون بها إلى الحياة والكون، وتربيتهم تربية تمكنهم من أن يكونوا ورثة صالحين للتراث الذي ورثه هؤلاء الآباء عن أجدادهم، مع الصلاحية الكافية للتقدم والتوسع في هذه الثروة»[1] والتربية الإسلامية مبنية على العقيدة الإسلامية لأن الفارق كبير بين من يتربى على العقيدة الصحيحة ومن يتربى على عقيدة لا تخلص التوحيد لله.

وتعني التربية أيضاً «كل المؤثرات الموجهة التي يراد منها أن تصوغ كيان الإنسان وتهدي سلوكه في كل نواحي الحياة جسدية كانت أم عاطفية أم اجتماعية أم فكرية أم فنية أم أخلاقية أم روحية. فالتربية تشمل كل المنظمات والعوامل والأساليب والطرق التي تدخل في نطاق الفعاليات التهذيبية»[2].

ويرى «مارتن لوثر» أن معنى التربية وهدفها «هو مساعدة الفرد على فهم التزاماته الاجتماعية التي تجعل في الإمكان تحقيق مجتمع مسيحي سليم، ويتحقق مثل هذا المجتمع إذا عرف المواطنون الله وأطاعوه وإذا قدّروا واحترموا الكرامة البشرية سواء بالنسبة لأنفسهم ولغيرهم» كما يرى أن وظيفة التربية أكبر من مجرد الاهتمام بالناحيتين الدينية والعقلية، فعليها

(١) جون ديوي ـ نقلاً عن أبي الحسن الندوي ـ أهمية نظام التربية والتعليم ص ١٢ ـ ١٣.
(٢) محمد فاضل الجمالي ـ آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية ص ١٢٧.

أن تهتم بالفرد في نموه الجسمي والانفعالي، ولو كان الدين الذي يتحدث عنه مارتن لوثر هو الإسلام لَعُلم أن الدين هو الذي يدعو إلى الاهتمام بالجسم لتقويته على طاعة الله والجهاد في سبيل إعلاء كلمته، وأنه وسيلة تهذيب النواحي الانفعالية في الإنسـان وتوجيهها للخير.

ومع ارتباط مفهوم التربية بالدين وقيامهـا على أسس دينية فـإن اضطهاد الكنيسة للعلماء وتسلطها قد أدى إلى ثورة عامة عليها وعلى معتقداتها وازدهار العقلية العلمية بعيداً عن سلطان الدين، مما أدى إلى تجريد المفهوم التربوي من عنصر الدين وتوجيهه ولذلك تهكم (فرنسيس بيكون ١٥٠١ ـ ١٥٥٦) على الآراء القديمة وبناء المعرفة على الغيبيات ومطالبته بتربية الإنسان بطريقة علمية، لأن العلم فـي نظـره جدير بإسعاد البشر وتحسين ظروفهم المادية ورفاهيتهم، ومع أنه لا يرفض الإلهام الإلٓهي إلا أنه يرفض أن يلعب ذلك أيّ دور في التربية التي تقوم على الأسس العلمية فقط، وقد تأثر بهذه الآراء عدد من المربين في الغرب والبلاد الإسلامية.

أما (ج. هـ. بستالوتزي ١٧٤٠ ـ ١٨٢٧) فيعرِّف التربية بأنها «نمو جميع قوى الإنسان وملكاته نمواً طبيعياً في اتساق وانسجام، كما يؤكد أن القدرات العلمية تعتمد على العادات التي تكونت من تكرار قوى المتعلم وتدريبه أكثر من الاعتماد على المعرفة البحتة» ويرى الفيلسوف الإنجليزي (هربرت اسبنسر ١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) أن التربية إعداد للحياة الكاملة، ويجب أن تكون المواد الدراسية والطرق التي تدرس بها مما يوصل إلى الحياة الكاملة، ونراه يهتم أيضاً كغيره من المربين بالجانب الأخلاقي[1].

والحياة الكاملة في الإسلام هي التي ترتبط فيها الحياة الدنيا بالآخرة وتكتمل فيها جوانب الحياة بمناشطها المختلفة.

(١) راجع د. سعد مرسي ـ تطور الفكر التربوي ص ٤٢٥ وما بعده الفصل الثالث العصور الحديثة.

ويقول (سيربرستن) عن التربية: «لقد سلك الناس مسالك مختلفة في التعريف بالتربية، ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً؛ أن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربّوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها. إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة، وتربي التلميذ تربية تمكنه من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمد يدها إلى الأمام»[1].

وقلّ أن نجد في المفاهيم التربوية من يغفلون وظيفة التربية ودورها في تدعيم عقيدة الأمة وتراثها الروحي والحضاري، بصرف النظر عن صحة العقيدة وصلاحها لبناء الحياة والإنسان والحضارة كما سبق أن ذكرنا، فالأمم تستهدي في تربيتها بدينها وعقيدتها، وتبذل جهدها في سبيل المحافظة على موروثها، ونقل ثقافاتها إلى الأجيال اللاحقة، وبالتالي فإن التربية لم تعد محصورة فقط في إعداد الأفراد للتكيف مع بيئاتهم، وإن كانت هذه من وظائفها، إنما تعمل التربية لما سبق ذكره من تدعيم الإنسان لعقيدته وفكرته عن الحياة والكون وكلها مستمدة لدى المسلمين من دينهم.

إن التربية هي وسيلة المجتمع لأداء وظيفة نقل الثقافة ودعم العقيدة وإرساء المثل والقيم التي يراد غرسها في النشء والمبادىء التي يراد توجيههم لها، وعن طريق التربية تصوغ الجماعة أفرادها والدولُ شعوبها وتوجه سلوكهم وأخلاقهم وفق الأهداف التي يسعى إليها المجتمع، ولأن الطفل هو محور العملية التربوية فإن ذهنه وحياته لا بد أن تتشكل بالقالب الذي وضع له، وبالعلوم والمعارف التي يزوَّد بها فتهيمن على أفكاره، حتى لا يجد في الحياة منظاراً غير المنظار الذي أريد له استخدامه في ملاحظاته وتجاربه، كما تفعل كل الأمم التي لها «أيديولوجيات» تدين بها.

---

(١) أبو الحسن الندوي ـ التربية الإسلامية الحرة ص ٧٥ ط ٢.

والتربية لذلك تعني أيضاً «كل عملية أو مجهود أو نشاط يؤثر في قوى الطفل وتكوينه بالزيادة أو النقص أو الترقية أو الانحطاط، سواء أكان مصدر هذه العملية الطفل نفسه أم البيئة الطبيعية أم الاجتماعية بمعناها العام أو بمعناها الضيق المحدود، فالطفل خاضع باستمرار لعمليات تغيير في تكوينه الجسمي والعقلي والخلقي وهذه العمليات هي التربية»[١].

فالطرق التربوية والأساليب والحقائق العلمية التي تساعد على تربية الطفل وتحقيق نموه العقلي والنفسي والأخلاقي والجسمي، تستخدم كلها للوصول إلى النمو الذي يؤدي إلى وجود الإنسان الكامل الذي يحقق أهداف الفلسفة التربوية التي تعمل التربية لها وتسلك طريقها. فالتربية إذن تعمل لبناء الفرد من ساعة وجوده على الأرض ليؤدي دوره المرسوم له في الحياة ليكون قادراً على التغلب على العقبات التي تعترض سبيله والأحداث التي تواجهه، ولأن التربية تهتم بالناحية الخاصة بالنمو، ولأنها تعمل لتحقيق النمو الكامل للإنسان عقلياً وروحياً وجسمياً ونفسياً وخلقياً واجتماعياً؛ كان من تعريفات التربية أنها عملية التكيف بين المتعلم وبيئته، فالإنسان في سبيل وظيفته في الحياة يعمل للمحافظة على بقائه أولاً، ولا يكون ذلك إلا بتوجيه السلوك وتعديله وتكوين العادات الطيبة والاستفادة منها وتنمية القدرات وصقلها، والتربية تعمل على تشغيل أو تحديد هذه الملاءمة بين الكائن الحي برغباته وأهدافه، والعالم الخارجي بعقباته ومشاكله، وبعبارة أخرى تهدف التربية كعملية ملاءمة إلى تكيف الكائن الحي مع مشاكل بيئته.

---

(١) التربية وطرق التدريس ص ١١.

ثانياً: فلسفة التربية الإسلامية ومميزاتها

توجد علاقة وثيقة بين التربية والفلسفة باعتبار التربية عملية اجتماعية تعبر عن فلسفة الأمة ومعتقدها، فالتربية هي وجه الفلسفة ووسيلة إبرازها للوجود وتطبيقها في الواقع، وهي روح الأمة المعبرة عنها وعن أهدافها وتطلعاتها في الحياة.

وقد نشأت العلاقة بين التربية والفلسفة من أن التربية وليدة الفلسفة وخلاصة التجارب والآراء التي توصلت الفلسفة إليها، فالتربية هي الترجمة العملية الواقعية للفلسفة، وهي التي تنقل الفلسفة من مجال النظرية والفكرة إلى مجال الواقع الإنساني والممارسة الحياتية.

والتربية تستمد رحابتها وسعتها من اعتمادها على علوم كثيرة تأخذ منها وترتبط بها وتعتمد عليها، مثل علم الأحياء والاجتماع وعلم النفس والأخلاق وغيرها من العلوم. وما من عالم اشتغل بعلم الفلسفة أو الاجتماع أو علوم الدين إلا كان صاحب رأي في التربية، فسقراط وأفلاطون وأرسطو من القدماء، وابن سينا والغزالي وابن خلدون والقابسي وابن سحنون وغيرهم من المسلمين، وبستالوتزي وجون ديوي وجان جاك روسو وغيرهم من المحدثين اشتغلوا بالفلسفة وأصّلوا كثيراً من النظريات التربوية.

ولما كان للإسلام فلسفته المميزة وآراؤه الواضحة عن الله والكون

والإنسان والوجود، ومفاهيمه الواضحة عن الحياة؛ فإن التربية الإسلامية تعتمد على نظرة الإسلام للوجود والكون، وعلى أساس نظرته للحقائق المادية والروحية في الكون والإنسان والمهمة التي استحق بها الإنسان الخلافة في الأرض، وعلى أساس تحقيق التوازن بين الجانب الروحي في الإنسان والجانب المادي فيه.

ولاعتماد التربية على فلسفة واضحة فإن المقصود بفلسفة التربية الإطار الذي يحرك العمل التربوي بوسائل مختلفة ولأهداف معينة، والتربية الإسلامية تعمل لتحقيق الهدف من وجود الإنسان على الأرض، وهو عبادة الله سبحانه وتعالى، وتزكية النفوس وجعل مستوى العبادة في مستوى الاستحقاق، بالإضافة إلى تحقيق معاني الأخوة والمودة والمحبة بين الناس، والعمل على تكوين أجيال مؤمنة بالله متمسكة بقيم الدين، عاملة بتعاليم الإسلام، مسايرة لروح العصر، صامدة أمام التحديات التي تواجه المجتمع المسلم.

ولأن التربية الإسلامية تربية مستمرة في حياة الإنسان فإنها تعتبر التعليم حقاً وواجباً في حياة الإنسان، يأخذ منه ما يستطيع دون حد ولا قيد إلا قيد القدرات والإمكانات، ولذلك كان توجيه الله سبحانه لعباده في بدء الرسالة إلى التعليم والقراءة، وتوجيه الرسول ﷺ لأصحابه إلى أهمية التعليم، فلم يمر قرن على الهجرة حتى وجد نظام تربوي دقيق شمل المجتمع المسلم كله على امتداد أقطاره، ووجدت مؤسسات تعليمية مختلفة تضم طلاباً من مختلف الأعمار والمستويات. وتعتبر التربية الإسلامية التعليم استثماراً اقتصادياً واجتماعياً وإنسانياً في المقام الأول، يرتبط بحركة المجتمع، ويرشِّد موارده البشرية عن طريق تكوين القيادات والكفايات الفنية والفكرية في مختلف ميادين النشاط البشري وتدريبها، بالإضافة إلى أنها تعمل على إيجاد المسلم المتكامل الذي يجمع بجانب قدراته الفنية التزامه الإسلامي داخل مجتمعه الذي يقوم على أخوة الإسلام

وإنسانيته، ويرفض النزعات القومية والعنصرية والقبلية واللغوية والإقليمية، والذي يعزز ويربط الأمة بتراثها الثقافي الإسلامي أولاً والعالمي ثانياً حتى تنشأ أجيال المسلمين متفاعلة مع الثقافات العالمية متمكنة من القيام بواجب تبليغ الدعوة وحمل الرسالة، والتربية الإسلامية تعمل على جعل التربية أداة للتغيير والتطور ومواجهة تحديات الواقع المتخلف لأن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم، ولئلا تَستعبد التقاليد الموروثة الناس فيقولون: ﴿ إنّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنّا على آثارِهِم مُقتدونَ، قال أوَلَوْ جِئْتُكم بِأَهْدَى مِمّا وَجَدْتُم عليهِ آباءَكم؟ ﴾ [الزخرف: ٢٣ - ٢٤].

فالتربية الإسلامية تعمل لبناء الإنسان الذي يرفض الجمود والتخلف في أي شكل من أشكاله، ويرفض التبعية والذيلية والعبودية لغير الله سبحانه وتعالى، ولذلك أيضاً جعل الإسلام التربي والتعليم حقاً للإنسان وواجباً عليه، فإذا كان التعلم هو أثر التعليم أو عملية توصيل العلم إلى عقل المتعلم، فإن التربي أرحب معنىً وأشمل مدلولاً لأن التعلم نتيجة التربية وأثرها.

والتربية الإسلامية تشمل الإنسان كلَّه عقلَه ونفسَه ونفسيتَه وروحَه وجسدَه وأفكارَه وسلوكَه وتفكيرَه ومفاهيمَه، وهي لذلك لا تكون في المدرسة فحسب، بل في المسجد والشارع والنادي، وعن طريق وسائل التوجيه المختلفة من إعلام مقروء ومسموع ومشاهد. إنها تشمل الإنسان كله والحياة كلها.

أما التعليم فجزء من التربية ونوع من أنواعها، وليس التعليم في الإسلام وسيلة تلقين للمعلومات والأفكار وحفظها وترديدها، بل التعليم وسيلة التربية في تكيف الإنسان مع الواقع الذي يراد له أن يعيش فيه والمجتمع الذي يتعامل معه.

إن الأمم ترقى بالعلم وتسمو بالمعرفة وتتهذب بالتربية لأنها وسيلة

الأخلاق القويمة، وبالتديُّن الصحيح وبالتربية تدبِّر الأمة أمور معاشها وتنظم حياتها، ويشعر أفرادها بأنفسهم ويدركون واجباتهم ويحسنون عبادة ربهم، ولذا كان واجب الدولة المسلمة في تربية رعاياها وتأهيل أفرادها وإعداد الوسائل الميسرة للتربي، حتى تنشأ أجيال صالحة مؤهلة لمهمات الخلافة وتبعات الأمانة ومشاق الدعوة ومسؤوليات الجهاد.

ويتساءل البعض ولماذا لم نجد في العلوم الإسلامية القديمة علماً يسمى علم التربية؟.

إن استقلال هذا العلم حديث وتأصيله قريب، وهذا لا ينفي وجوده في الحياة الإسلامية، فقد جاء الإسلام والعالم يعرف التربية الفارسية والإغريقية والمسيحية، وكلها تقوم على أسس مختلفة وبخصائص متباينة من غير أن تستقل عن العلوم المعروفة إلا في العصر الحديث، والمسلمون لم يكونوا بحاجة إلى وجود هذا العلم لأنهم تمثلوا التربية عملياً في حياتهم وسلوكهم، ومارسوها واقعاً يعيشونه في بيوتهم ومجتمعاتهم، ولم يعيشوا التناقض الذي نحس به ونعيشه في العلاقة بين أهداف التعليم ومقاصده وحركة المجتمع وممارساته والدولة وسياساتها، فقد كان منطلق النظام الإسلامي في التعليم والسياسة والاقتصاد والحرب والإعلام هو جوهر الإسلام ونظامه وتعاليمه، ولم تكن حاجة المسلمين لعلم مستقل في التربية كحاجتهم لعلوم اقتضت الحاجات العاجلة ظهورها لحفظ كتاب الله ومعرفته، وتدوين حديث الرسول ﷺ ووضع الضوابط له، وإرساء قواعد المجتمع الجديد ثم حفظ لغة القرآن. فالنحو العربي ظهر لاتساع رقعة الدولة الإسلامية خارج جزيرة العرب ودخول أجناس مع لغات مختلفة مما أدى إلى شيوع اللحن، كما أن تعليم العربية لغير العرب يقتضي وضع قواعد وأسس تتعلم اللغة على أساسها.

أما الفقه فقد نشأ لتلبية حاجة المجتمع إلى رأي الدين في المشكلات الناجمة عن حركة المجتمع واضطرابه وتطوره وتعقّد المعاملات

وتشعّب الصلات فيه، وهكذا كان ظهور علم التفسير والأصول والعروض وغيرها من العلوم التي جاءت نتيجة دوافع مُلِحّة ومكمِّلة لحاجة من حاجات المجتمع الإسلامي، ولم تتوفر للتربية هذه الدوافع أو التناقضات التي تيسر لها الظروف كما اقتضت التناقضات بين المجتمعات الإسلامية ونظم التعليم أهمية تأصيل هذا العلم وتأسيسه.

ومعنى هذا أن المسلمين عرفوا مبادىء التربية وأصولها وممارساتها من القرآن والسنة العملية والقولية والتقريرية، وقد كان الرسول ﷺ وصحابته يتمثلون تربية القرآن في السلوك اليومي والمعاملات المختلفة بكل أهدافه وأساليبه وخصائصه، وكانوا قدوة حسنة لأجيال عاشت بعدهم وتمسكت بتربيتهم، وتتميز فلسفة التربية الإسلامية بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خطط إطارها وحدد أهدافها وبين وسائلها وطرقها وأصولها، فأول آية في القرآن تطلب من المسلم أن يقرأ باسم الله المكرم المنعم الذي خلق الإنسان وأودع فيه من القدرات والإمكانات المادية والروحية ما يمكنه من حمل أمانة الخلافة والتلقي عن الله فكراً وممارسةً ما تلقى في واقع الحياة سلوكاً ومنهجاً.

ولضمان استمرار هذه التربية فيما أراد الله سبحانه وتعالى أرسل رسله مبشِّرين ومنذرين، فقد كان من فضل الله على الناس أن بعث فيهم محمداً ﷺ مربياً ومزكياً وموجهاً فـ ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنهم يَتْلُو عَلَيْهم آياتِهِ، وَيُزَكِّيهم وَيُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكمةَ، وإنْ كانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبين ﴾ [الجمعة: ٢]، ويقول: ﴿ لَقَدْ مَنَّ الله على المؤمنين إذْ بَعَثَ فيهم رَسُولاً مِن أنْفُسِهم، يَتْلُو عَلَيْهم آياتِه وَيُزَكِّيهم وَيُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ، وإنْ كانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبين ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. ولأهمية التربية الإلّهية والتعليم كان ذلك من دعاء سيدنا إبراهيم ﴿ رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهم رَسُولاً مِنهم يَتْلُو عَلَيْهم آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وَيُزَكِّيهِمْ إنّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ولأهمية الحرية في التربية الإسلامية كان المسلم مطالباً بأن يربي نفسه ويحررها ويتجه بها إلى مرضاة الله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاها فَأَلْهَمَهَا فُجُورَها وَتَقْوَاها ﴾ [الشمس: ٧ - ٨].

وتقوم فلسفة التربية الإسلامية على ما قرر القرآن ووضحت السنة من وجود حقائق مادية وروحية في الوجود وفي طبيعة التكوين الإنساني، فهي مبنية على أساس أن الإنسان الذي يخضع لعملية التربية يتكون من مادة وروح، فهو ليس ملكاً يعيش في السماء بروحه وليس كياناً مادياً ينغمس في الحياة الأرضية ﴿ إذ قالَ رَبُّكَ للمَلائِكةِ إنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١ - ٧٢] فالالتزام بالحكمة والتعقل، والتمسك بشرع الله وتعاليمه وتزكية النفس وتطهيرها أثر من آثار التوازن الروحي في الإنسان، أما مخالفة ما تقدم وإتباع النفس هواها فرُكون إلى جانب المادة وخلود إلى الأرض.

ولذلك ركزت التربية الإسلامية على تحقيق التوازن بين الجانبين المادي والروحي في الإنسان، وتوازن العقل والجسد، وضبطت ذلك كله بسياج من الأساليب التي توضح وسائل التعامل مع الله والناس والكائنات. ولتحقيق هذا التوازن كان موقف الرسول ﷺ من الشباب الذين جاؤوا لأزواج الرسول عليه الصلاة والسلام يسألون عن عبادته وكيفيتها، ثم يتباهى كل منهم بما ألزم نفسَه ضدّ طبيعتها من صلاة دائمة بالليل أو صوم متصل في الحياة أو ترك للزواج ومحاربة للشهوة، فيخبرهم الرسول ﷺ بأنه يوازن بين كل ذلك في نفسه فيصلي وينام، ويصوم ويفطر، ويتزوج النساء ويلبي شهوته مع أنه أكثرهم صلة بالله وأتقاهم وأخشاهم، وتلك سنته التي على المسلم أن يربي نفسه عليها، ومن تركها فقد حاد عن تربيته، وكلّف نفسه ما يخالف طبيعة خلقها.

وهنا نجد التربية الإسلامية تختلف عن غيرها من النظم التربوية في إعدادها الإنسان لا للحياة الدنيا فحسب بل للحياة الأخرى بجعل التوازن

السلوكي في الدنيا سبباً للفوز في الحياة الأخرى ﴿ وَابْتَغ فِيما آتاكَ الله الدّارَ الآخِرةَ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أحسنَ الله إليكَ وَلا تَبْغِ الفَسَادَ في الأرضِ إنّ الله لا يُحِبّ المفسدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

فالتربية تعمل على تكوين أجيال مهذبة راقية قوية صادقة تقوم بواجبها في الحياة وتتحمل مسؤولياتها الإنسانية، وتعمل على تسخير علمها وحياتها في الفضيلة والخير وتجنب الرذيلة والشر، ومراقبة الله في السر والعلانية حتى تظفر بالأمن والسعادة والاستقرار والنقاء والصفاء في الحياة الدنيا وبالثواب والجنة في الحياة الأخرى، تصديقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إنّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإنّ لَهُ جَهنَّم لا يَموتُ فِيها ولا يَحْيَى، وَمَنْ يَأْتِهِ مؤمناً قَدْ عَمِلَ الصّالحاتِ فأولئكَ لهمُ الدّرَجاتُ العُلَى، جَنّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تحتِها الأنهارُ خَالدِين فِيها وذلكَ جزاءُ مَنْ تَزَكّى ﴾ [طه: ٧٤ ـ ٧٦] وهكذا نجد أن فلسفة التربية الإسلامية تشكلت بفعل عوامل أربعة:

الأول: تحديد الصلة القائمة بين الخالق المربي وبين الإنسان المخلوق.

والثاني: بلورة العلاقات وأنماط السلوك في الدائرة البشرية التي ينتمي إليها المتعلم. وهي دائرة شملت جميع أفراد النوع الإنساني.

والثالث: أسلوب العيش على الرقعة المكانية التي استخلف الله المتعلم فيها وهي رقعة شملت الكرة الأرضية كلّها.

والرابع: مراعاة البعد الزماني لعمر المتعلم وهو بعد يبدأ في الدنيا ويمتد إلى الآخرة عبر مستقبل لا يتناهى[1].

إن التربية الإسلامية تطابق فلسفة الإسلام في شمولها للحياة وهدايتها لحياة جديدة لم يألفها البشر ولأسلوب مبتكر في التعامل والسلوك

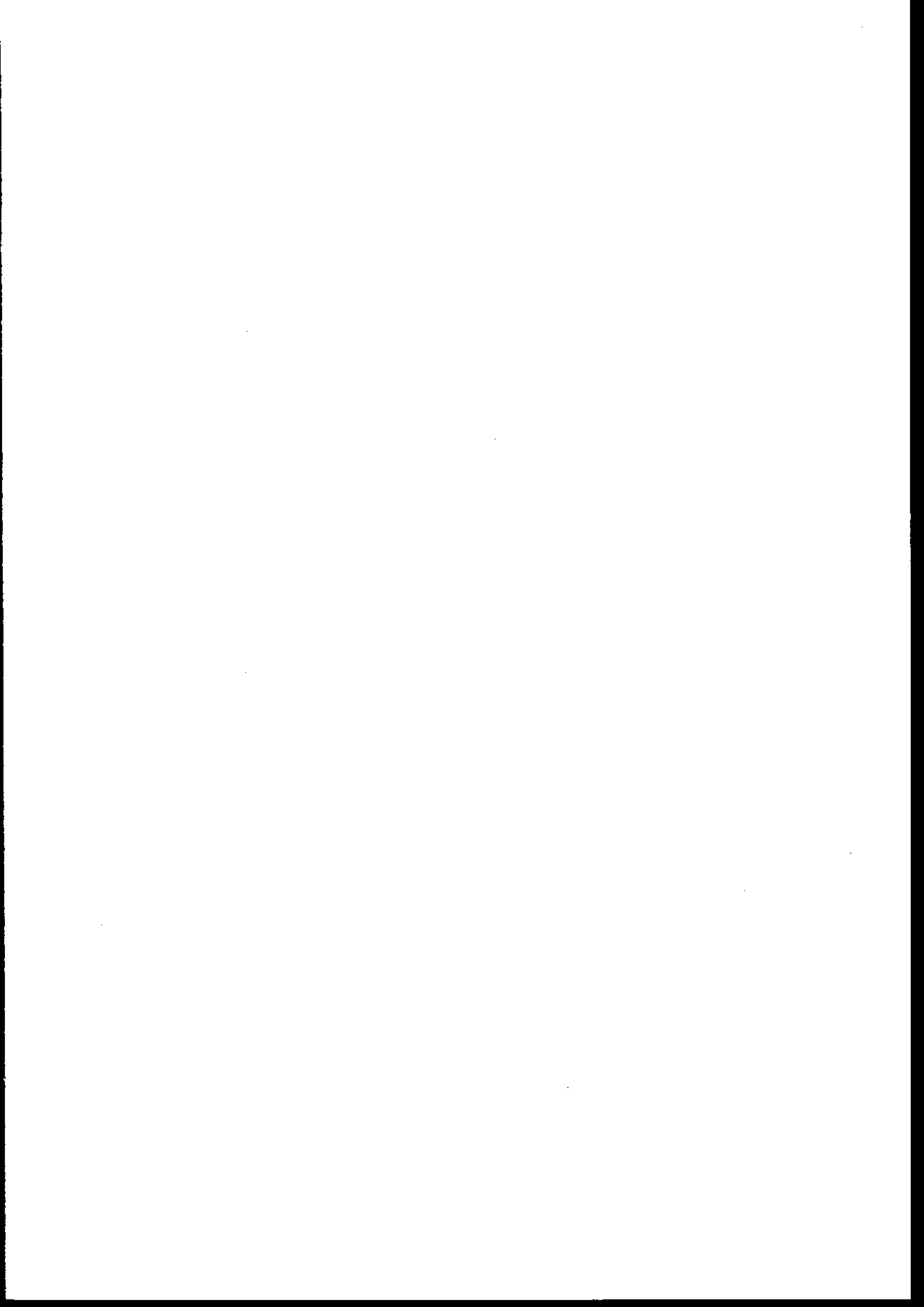
(١) ماجد الكيلاني ـ تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ص ٣٣.

والغايات والأهداف، وإذا كانت التربية الإسلامية قد جاءت في ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية قائمة على أسس غير أخلاقية أو ليس للأخلاق حظ في توجيهها، فقد جاءت هذه التربية لتغير تلك الظروف وتوجه السياسات وترشد الاقتصاد بما يتفق مع منهج الله الذي رسمه، وشرعه الذي أنزله، ونظامه الذي حدده، وقد غيرت تلك التربية الربانية في خلال سنوات من المجتمع العربي، فخرج أولئك النفر الذين تربَّوا بهدي القرآن الكريم وتوجيهات السنة المطهرة، يحملون إلى البشرية في أصقاع الأرض مشاعل النور والهداية، عن طريق نظام تربوي كامل قائم على الكتاب والسنة، معتمد على فلسفة واضحة للحياة والكون والإنسان، داع إلى إعمال العقل، وتشغيل الفكر وتسخير العلم المنسوب إلى الله رب العالمين، للتعرف على أسرار الحياة والكون، وتوجهات الإنسان وسلوكه، وهذا النظام التربوي أساسه العلم والمعرفة والحكمة، فالعلم هو الذي غيّر الحياة على وجه الأرض، وحيث كانت الآيات الأولى في الرسالة الخالدة داعية إلى التمسك بمفتاح التغيير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للبشر: ﴿اقْرَأْ باسْمِ ربك الذي خَلَقَ، خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكرمُ، الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ، عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

الفصل الأوّل

١ ـ مَكانة العِلْم وَالتَّعليم في الإسلام

٢ ـ الالتزام الديني والأخلاقي نحو العلم.



- ١ -
مكانة العلم والتعليم

يكفي المسلمين فخراً أن دينهم دعا البشرية كلها ـ وقد عمّها ظلام من الجهل ـ إلى أن تكون صلتهم بالله هي العلم، وأن تكون أول آيات الوحي في الرسالة الخاتمة دعوة إلى العلم والتعلّم باعتبار العلم وسيلتهم إلى السعادة في الدارين، والخروج من ظلمة الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام.

والعلم وسيلة البشرية إلى التأمل في ملكوت الله، ونواميس الحياة، وأحوال الأمم والحضارات، والسيطرة على موارد الحياة ومقدراتها، والسمو إلى درجة الاستحقاق للخلافة في الأرض. والعلم هو وسيلة البشرية إلى تكوين تصور صحيح للقيم والحياة والوجود، يتلاءم مع الحياة، ويتسم بالواقعية، ويصل بالإنسان إلى إدراك سر وجوده في الحياة.

﴿اقْرَأْ باسمِ رَبِّكَ الذي خلقَ، خلقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكرمُ، الذي عَلَّمَ بالقلمِ. عَلَّمَ الإنسانَ مَا لم يَعلمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

والآيات في دعوتها للبشر في أول لحظات الرسالة للاتجاه إلى العلم والتعلّم والقراءة وهي جماع المعارف والعلوم، إنما تبدأ كما يقول سيد قطب رحمه الله «من صفات الرب بالصفة التي بها الخلق والبدء ﴿الذي خلق﴾ ثم تخصص خلق الإنسان ومبدأه ﴿خلق الإنسان من علق﴾.. من تلك النطفة الدموية الجامدة العالقة بالرحم من ذلك المنشأ

الصغير الساذج التكوين، فتدل على كرم الخالق فوق ما تدل على قدرته. فمِن كرمه رفع هذا العلق إلى درجة الإنسان الذي يُعلِّم فيتعلَّم ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾. وإنها لنقلة بعيدة جداً بين المنشأ والمصير. ولكن الله قادر. ولكن الله كريم ومن ثم كانت هذه النقلة التي تدير الرؤوس! وإلى جانب هذه الحقيقة تبرز حقيقة التعليم.. تعليم الرب للإنسان ﴿بالقلم﴾ لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثراً في حياة الإنسان.. ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن ونعرفه في حياة البشرية. ولكن الله ـ سبحانه ـ كان يعلم قيمة القلم فيشير إليه هذه الإشارة في أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية»[1] ثم يبرز مصدر التعليم أن مصدره هو الله، منه يستمد الإنسان كل ما علم وكل ما لم يعلم، وكل ما يفتح له من أسرار هذا الوجود ومن أسرار هذه الحياة ومن أسرار نفسه، فهو من هناك من ذلك المصدر الواحد الذي ليس هناك سواه[2]. وذكر الله سبحانه خلق الإنسان مع آية التعليم قصد منه تنبيه الإنسان إلى بدء تكوينه من نقطة دم عالقة بجدار الرحم، هذا الإنسان يمكن أن يرقى ويسمو إلى أعلى الدرجات بالعلم والمعرفة اللذين مصدرهما هو خالق الإنسان من علق، ولأهمية القلم أقسم الله تعالى به ﴿نٓ والقلمِ وما يَسْطُرونَ ما أنتَ بنعمةِ رَبِّكَ بِمَجنونٍ وإنّ لَكَ لأجْراً غيرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٣]. فهنا إجلال وتعظيم للقلم الذي هو أداة العلم والمعرفة والكتابة، وقد جاء الرسول الكريم لتوجيه البشرية إلى العلم والتعليم حتى تكون قادرة على أداء رسالتها في الأرض ولذلك يقول الرسول ﷺ مبيناً فضل العلم في حديث معاوية رضي الله عنه «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[3] ويقول عليه السلام في حديث ابن مسعود

(١) في ظلال القرآن ص ٢٠٢ المجلد الثامن.
(٢) المصدر السابق.
(٣) متفق عليه.

رضي الله عنه: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها»[1] ويحدثنا الرسول ﷺ أن ابن آدم ينقطع عمله من الدنيا إذا مات إلا من ثلاث، منها الآثار العلمية التي يتركها والعلم الذي انتفع به الناس. ويقول عليه السلام فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[2] وقال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»[3].

وقد حثّ القرآن على التعلّم وأعلى من شأن طالب العلم الذي عليه أن يسعى ويتغرب في سبيله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرقةٍ منهم طائفةٌ لِيَتفقَّهُوا في الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إليهم لَعَلّهم يَحْذَرونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. ويقول: ﴿وإذْ أخَذَ الله مِيثاقَ الذينَ أوتوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. فممارسة عملية التعليم هنا واجبة لأن الرسول ﷺ قد حذّر من كتمان العلم الذي حرّم الله كتمانه. فتقدم العلم لا يكون إلا بتشجيع طلابه ليسعدوا في الدنيا والآخرة. وفي حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن الرسول ﷺ «ومن سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[4].

فهذا الحديث يبين ما لطالب العلم من جزاء في الآخرة ورعاية

(١) فتح الباري ص ١٦٥ ج ١.
(٢) صحيح مسلم.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه أبو داود والترمذي.

وحفظ في الدنيا واستغفار دائم من مخلوقات الله، وإن العالم أرفع درجة وأعلى مكانة من العابد الصائم القائم المجاهد في سبيل الله لما للعالم من أثر في التوجيه والتهذيب وإثراء للحياة بعلمه وعمله ودفع لحركة الحضارة والتقدم وتقريب للبشر من خالقهم. ولذلك رأى أبو الدرداء رضي الله عنه أن تعلم مسألة أحب إليه من قيام ليلة. كما رأى عمر رضي الله عنه بأن في موت العالِم خسارة للأمة لا تعوّض، وموت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه. ولذلك فضّل الإمام الشافعي طلب العلم على النافلة.

ويقول سيدنا معاذ بن جبل: (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمصبِّر على السراء والضرّاء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة، يقتدى بهم، أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع الطير وأنعامه والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى)[1].

ولم يحدد الإسلام علماً معيناً وإنما هو العلم النافع للبشرية المفيد للإنسانية في دينها ودنياها، وقصد المسلم بتعلمه وجه الله سبحانه وتعالى وخدمة عباده وتعمير أرضه، وليس تعلمه رياءً أو تكبراً وتظاهراً أو تحقيقاً لمآرب في الدنيا. وفي مثل هذا يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه سعيد

(١) إحياء علوم الدين الغزالي ص١٢. راجع رياض الصالحين ٥٢٧.

ابن يسار عن أبي هريرة «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة» يعني ريحها[1]. وهذا الاهتمام بالعلم والتعليم والعلماء راجع كما قلنا إلى أن العلم هو طريق السعادة في الدنيا والحضارة والازدهار والتقدم والسمو كما أنه طريق السعادة في الآخرة، وإذا ساد الجهل أمة ما لحق بها الدمار وشملها التخلف، وسادها الجهال والسفلة من البشر وقادوا أممهم إلى الهاوية والهلاك، وإذا لم تقم الأمة بتهيئة العلماء الذين يحملون واجب التربية ووظيفتها ونقل الثقافة من جيل إلى جيل ضاع العلم منهم وضاعت أمتهم. والرسول ﷺ يقول في حديث لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتّخذ الناس رؤوساً جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[2].

ولمكانة العلم والتعلم جعل الرسول عليه الصلاة والسلام فداء الأسرى من المشركين لأنفسهم يوم بدر أن يعلّموا المسلمين القراءة والكتابة، وهذه المعاملة للأسرى بهذه الصورة الفريدة كانت حدثاً جديداً في تاريخ البشرية لم يأت به إلا الرسول الأمين ﷺ. وقد جعل الإسلام التعليم حقاً مشاعاً للمسلمين رجالاً ونساءً، فطلب العلم فريضة على كل مسلم رجلاً كان أو امرأةً، وعلى المسلم أن يسعى لتعليم أبنائه وزوجته إن لم تكن متعلمة، فقد طلب الرسول ﷺ من الشفاء العدوية أن تعلِّم أم المؤمنين حفصة القراءة والكتابة. وبالعلم يصل الإنسان إلى الدنيا والآخرة فمن أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم. والعلم هو الذي يجلب المال والمكانة الاجتماعية لمن أراد

(١) مسند الإمام أحمد ـ مسند أبي داود ص ٧١ ج ٤.

(٢) متفق عليه.

ذلك، وفي ذلك يقول سيدنا علي رضي الله عنه: العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تُنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق)[1].

أما عن المكانة الاجتماعية التي يكتسبها العالم بعلمه فالأمثلة في واقعنا وفي غيرنا كثيرة وفي ذلك يقول سالم بن أبي الجعد: (اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني فقلت: بأي شيء أحترف؟ فاحترفت بالعلم فما تمّت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائراً فلم آذن له)[2].

والعالم مسؤول عن علمه في الدنيا والآخرة مسؤول أمام الله عما تعلم وعن كيفية التعليم ومدى التزام المتعلم أخلاقياً بما يعلمه الناس فلا بد من العمل بالعلم ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفعلونَ كَبُرَ مَقْتاً عندَ اللهِ أنْ تَقولوا ما لا تَفعلونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]. وعما يلاقيه هؤلاء يوم القيامة يقول رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بالرجل يوم القيامة فيُلقَى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟!.. فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه»[3].

وكان سفيان الثوري وغيره يقسمون العلماء إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ عالم بالله عالم بأمر الله، وهو من جمع بين علم الظاهر والباطن، وهؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إنّما يَخْشَى اللهَ مِن عبادِهِ العلماءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. كما قال فيهم ﴿إنّ الذينَ أُوتوا العلمَ مِن قبلِهِ إذا يُتلى عليهم يَخِرُّون لِلأذقانِ﴾ إلى قوله ﴿وَيَزيدُهم خُشوعاً﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

(١) إحياء علوم الدين ص ٩. ج ١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) متفق عليه.

٢ ـ عالم بالله ليس عالماً بأمر الله، وهؤلاء هم أصحاب العلم الباطن، الذين يخشون الله وليس لهم اتساع في العلم الظاهر.

٣ ـ عالم بأمر الله ليس بعالم بالله، وهؤلاء أصحاب العلم الظاهر لا نفاذ لهم في العالم الباطني، وليس لهم خشية ولا خشوع، وهؤلاء مذمومون عند السلف، وبعضهم يقول: هذا العالم الفاجر، هؤلاء وقفوا مع ظاهر العلم ولم يصل العلم النافع إلى قلوبهم ولا شمّوا له رائحة، غلبت عليهم الغفلة والقسوة والإعراض عن الآخرة، والتنافس في الدنيا، ومحبة العلو فيها، والتقدم بين أهلها، وقد منعوا إحسان الظن بأصحاب العلم النافع، فلا يحبونهم ولا يجالسونهم وربما ذموهم وقالوا ليسوا بعلماء. قال بعض الوزراء للحجاج بن أرطأة: إن لك فقهاً، وإن لك ديناً، فقال الحجاج: إن لك شرفاً وإن لك قدراً، فقال الوزير: والله إنك لتصغّر ما عظّم الله وتعظّم ما صغّر الله.

إن التقدم العلمي للأمم لا يتم إلا بأن يكون التطبيق مطابقاً للنظرية والعلم معمولاً به، والتحقيق العلمي السليم هو منطلق كل سلوك أو فعل، فالمسلم لا يخطو خطوة أو ينطق كلمة أو يفتي برأي إلا إذا تأكد منه علمياً، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بهِ عِلْمٌ إن السَّمْعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مَسؤولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]. وهذا هو أساس البحث العلمي الذي تبنى عليه الحقائق والنظريات العلمية، فلا بد من دراسة كل ظاهرة والتأكد من كل خبر. ويطلب القرآن في هذه الآية، إلى جانب الأمانة العلمية في العالم، استقامة القلب ومراقبة الله سبحانه وتعالى، لأنه سيكون مسؤولاً عن ذلك أمام ربِّه، وفي الآية السابقة يقول سيد قطب رحمه الله: (والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى.. ويجعل الإنسان مسؤولاً عن سمعه وبصره وفؤاده أمام واهب السمع والبصر والفؤاد. وإنها أمانة الجوارح والحواس والعقل

والقلب، أمانة يسأل عنها صاحبها، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً، أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة، وكلما روى الإنسان رواية وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة).

﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بِهِ علمٌ﴾ ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين.. وما لم تتثبت من صحته من قول يقال ورواية تروى ومن ظاهرة تفسّر أو واقعة تعلّل ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية)[1].

وفي معنى الآية السابقة قول عثمان الطنبذي سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من أُفتي بغير علم كان إثمه على من أفتاه» زاد سليمان المهري في حديثه: «ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه»[2]. وهذا لفظ سليمان.

ومسؤولية المتعلم عن علمه أن يقوم بأدائه كما أدِّي إليه، لأن حضارة البشرية ومعارف الإنسانية وعلومها لم تنقل إلا بواسطة الأجيال التي أخذت ممن سبقتها، لذا قال عليه الصلاة والسلام: «تعلّموا العلم وعلّموه الناس»[3] وقال «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلّمه أخاه المسلم»[4] كما ندد القرآن بمواقف أهل الكتاب ومخالفتهم لعهد الله وأمانته وعدم تحملهم لمسؤولية العلم والتزاماته وخاصة اليهود فقال: ﴿وإذْ أخذَ اللهُ ميثاقَ الذينَ أُوتوا الكتابَ: لَتُبَيِّنُنَّهُ للناسِ ولا تكتمونَه فَنَبَذُوهُ وراءَ ظُهورِهِم وَاشْتَرَوْا بِهِ ثمناً قليلاً فَبِئْسَ ما يَشترونَ﴾ [آل عمران:١٨٧]. ويقول: ﴿إنّ الذينَ يكتمونَ ما أنزلَ اللهُ مِنَ الكتابِ ويَشترونَ بهِ ثمناً قليلاً أولئكَ ما يَأكلونَ في بطونِهم إلا النارَ ولا يكلِّمهم اللهُ يومَ القيامةِ ولا يُزَكِّيهم وَلَهم عذابٌ أليمٌ﴾ [البقرة:١٧٤].

(١) في ظلال القرآن ص ٣٤ ـ المجلد الخامس ج ٥.
(٢) رواه أبو داود في باب العلم ص ٦٦ ج ٤.
(٣) رواه الدارمي.
(٤) رواه ابن ماجه.

ومسؤولية العلم تقتضي تلازم أمرين بالنسبة للمتعلم وهما: أن يعمل بعلمه حتى يطابق ظاهره باطنه ومخبره مظهره، وأن يعلِّم الناس ما تعلَّم وأن ينشر علمه لأن في ذلك صدقة له وأجراً، وله أجر كل من عمل بعلمه. لذا اعتبر الرسول ﷺ ذلك من الصدقة الجارية التي يستفيد الإنسان منها بعد موته وانقطاع عمله في الدنيا، وكما طبقت قاعدة الثواب على العالم العابد فكذلك تطبق عليه قاعدة العقاب نتيجة مسؤولية أمانة العلم. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»[1] فمسؤولية العلم مقدمة على مسؤولية المال والجسم.

والتعليم كما يحدثنا القرآن مرتبط بالهدف الذي يسعى إليه التعليم وهو تقوى الله سبحانه وتعالى والإيمان بأنه المصدر للتعليم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والمرء لا يتعلم إلا بقدر ما أعطاه الله له ﴿ولا يُحِيطون بشيءٍ مِن عِلمِه إلا بما شاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أما إذا تخلى الإنسان عن خاصة التقوى وهي أساس التعليم الصالح أي (إذا ما تعارضت ممارسات الإنسان أفراداً وجماعات مع ما يقرره الله سبحانه فإن التعليم يسير في اتجاه مخالف للصواب ويأتي بآثار سلبية)[2].

﴿وَجَعَلْنا على قلوبِهم أكِنَّةً أن يَفقهوُهُ وفي آذانِهم وَقْراً وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لا يُؤْمِنوا بها﴾ [الأنعام: ٢٥]. وكذلك قوله ﴿سَأَصْرِفُ عَن آياتي الذينَ يَتَكَبَّرونَ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لا يُؤْمِنوا بها وإنْ يَرَوْا سَبيلَ الرُّشدِ لا يَتَّخِذوهُ سبيلاً وإن يَرَوْا سبيلَ الغَيِّ يَتَّخِذوهُ سبيلاً. ذلكَ بأنّهم كَذَّبوا بآياتِنا وكانوا عنها غافِلينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فالعلم هو الطريق الحق لمعرفة الله من خلال دراسة هذا الكون الدال على بدائع صنع الله تعالى، وهو الوسيلة التي يتحرر بها عقل

(١) رواه الترمذي.
(٢) ماجد عرسان الكيلاني تطور مفهوم النظرية ص ٥٤.

الإنسان من ربقة الجهل والخرافة والجمود. والقرآن يطالبنا في كثير من الآيات أن نتفكر في ملكوت الله ونظامه ودقة خلقه والتناسق البديع بين نواميس الكون وفطرة الإنسان، لأن التفكير هو سر المعرفة وطريق التنبيه للحواس والروح والنفس ﴿إنّ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفلكِ التي تَجري في البحرِ بما ينفعُ الناسَ وما أنزلَ اللهُ مِن السماءِ مِن ماءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرضَ بعدَ مَوْتِها وَبَثَّ فيها مِن كلِّ دابّةٍ وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المُسَخَّرِ بينَ السماءِ والأرضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعقلونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. بل إن تفكير الإنسان في نفسه وسيلة من وسائل العلم المؤدية إلى معرفة الخالق ﴿وفي الأرضِ آياتٌ للمُوقِنينَ وفي أنْفُسِكم أفلا تُبْصِرون﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١].

أما عن فضيلة العلم ونفاسته فإن العلماء يرون في الأشياء النفيسة ثلاثة وجوه:

أشياء تُطلب لغيرها كالأموال التي تطلب لأنها تيسر قضاء أمور الدنيا.

وأشياء تُطلب لذاتها كسعادة الآخرة ولذّة النظر لوجه الله سبحانه.
وأشياء تُطلب لِذاتها ولغيرها كسلامة البدن.

وبهذه الاعتبارات إذا نظرنا إلى العلم وجدناه (لذيذاً في نفسه فيكون مطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل.

فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته، وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة

ومقارنة الملأ الأعلى هذا في الآخرة، وأما في الدنيا فالعز والوقار ونفوذ الحكم في الملوك، ولزوم الاحترام في الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة، بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان لشعورها بتميز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها)[1].

وما دام العلم هو وسيلة التقرب إلى الله تعالى فليس هو العلم الشرعي فحسب، إنما هو العلم المتصل بظواهر الوجود والكون والجماد والحيوان والنبات والإنسان، والذي وجّه القرآنُ الناسَ إليه باعتبار العلم وسيلة التأمل وإدراك المعجزات الإلهية ﴿هوَ الذي جعلَ الشمسَ ضياءً والقمرَ نُوراً وقَدَّرَهُ منازلَ لِتعلَموا عددَ السنينَ والحسابَ ما خلقَ اللهُ ذلكَ إلا بالحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يَعلمونَ إن في اختلافِ الليلِ والنهارِ وما خلقَ اللهُ في السمواتِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَتَّقون﴾ [يونس: ٥ - ٦].

والعلم نعمة من نعم الله يستحق الشكر عليه، لأنه وسيلة القرب منه والتقرب إليه، وإلا ما كان حمد (داود وسليمان) للّه على ما امتنَّ عليهما من نعمة العلم ووراثته إذ أن الأنبياء لا يورِّثون إلا العلم ﴿ولقد آتَيْنا داودَ وسليمانَ عِلماً وقالا الحمدُ للّهِ الذي فَضَّلَنَا على كثيرٍ مِن عبادِه المؤمنينَ وورِثَ سليمانُ داودَ وقالَ يا أيُّها الناسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وأُوتِينا مِن كلِّ شيءٍ إنّ هذا لهوَ الفضلُ المبينُ﴾ [النمل: ١٥ - ١٦].

---

(١) إحياء علوم الدين ص ١٣ ج أول.

- ٢ -
الالتزام الديني والأخلاقي نحو العلم

العلم وسيلة القرب إلى الله ومعرفته عن طريق آثاره في الكون وآياته وهو نتيجة الإيمان بالله لأنه الدافع إلى الاستزادة من علوم الشرع وعلوم الحياة والكون، وقد أكرم الله الإنسان بالعلم وبالقدرات التي أودعها فيه وخلقها له لتيسر له أمر العلم كله وتساعده على تحمل مسؤولياته في الحياة ورسالته في الكون ﴿ واللهُ أخرجَكم مِن بُطونِ أمَّهاتِكم لا تَعلمونَ شيئاً وجعلَ لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تَشكرونَ﴾ [النحل: ٧٨].

والقرآن يعبِّر بالقلب ويعبِّر بالفؤاد عن مجموع مدارك الإنسان الواعية، وهي تشمل ما اصطلح على أنه العقل، وتشمل كذلك قوى الإلهام الكامنة المجهولة الكنه والعمل، جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون حين تدركون قيمة النعمة في هذه وفي سواها من آلاء الله عليكم وأول الشكر الإيمان بالله الواحد المعبود[1] وهبة العلم للعلماء من الله ابتلاء يستوجب الشكر ويثري الإيمان ونعمة من نعم الله التي تترتب عليها مسؤوليات والتزامات يمكن أن نذكر منها:

أولاً: العمل بالعلم:

العلم طريق المؤمن إلى معرفة الله وما يترتب على معرفته من إيمان

---

(١) سيد قطب في ظلال القرآن ١٨٦ المجلد الأول.

يعززه العمل وسلوك قائم على مبادىء الشرع وقيمه ومثله، حتى يعيش حياته ليحقق معاني وجوده ويتفاعل مع بيئته. ولا قيمة لعلم لا يثمر العمل به، والله سبحانه يحذر من ذلك ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفعلونَ كَبُرَ مَقْتاً عندَ اللهِ أن تَقولوا ما لا تَفعلون﴾ [الصف: ٢ - ٣].

صدقة العلم العمل به سواء أكان علماً شرعياً أم طبيعياً، لأن قيمة العلم مهما كان أن يبصِّر صاحبه ليبصر به الآخرين وأن يكون في مصلحة الناس في حياتهم الدنيا وأن يكون دافعاً إلى إخلاص التوجه لله وإحسان عبادته والإكثار من ذكره.

فالعلم هو الذي يدفع إلى حسن التوجه والعبادة ولذلك فضل الله الذين يعبدون بعلم على سواهم ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يَحْذَرُ الآخرةَ وَيَرجو رحمةَ رَبِّه قُلْ هلْ يستوي الذينَ يَعلمونَ والذينَ لا يَعلمونَ إنما يَتَذَكَّرُ أولـو الألباب﴾ [الزمر: ٩]. ولذلك يقول الرسول ﷺ عن العالم الفقيه العامل بعلمه: «فقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد»[١] لأنه لا قيمة للعبادة التي لم تؤسس على العلم، ولا العلم الذي لم يعمل به، وقد توعد الله سبحانه من يكتمون العلم ويوجهونه إلى غير ما أمرهم الله أن يوجَّه له من إثراء الحياة وإخلاص العبادة وإحسان النية ﴿إنّ الذينَ يَكتمُونَ ما أنزلَ اللهُ مِنَ الكتابِ وَيَشترونَ بهِ ثمناً قليلاً أولئكَ ما يَأكلونَ في بُطونِهم إلا النارَ ولا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ ولا يُزَكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ أولئكَ الذينَ اشْتَرَوُا الضلالَةَ بالهُدى والعذابَ بالمغفرةِ فما أصبَرَهُم على النارِ﴾ [البقرة: ١٧٤ - ١٧٥]. والعلم هو الذي يؤدي إلى ذكر الله والتعرف على آلائه، وهو الذي يبعث في الأرواح عادة التأمل وشفافية الحس، وخشية الله، والخوف منه عمل ينتجه التأمل في العلوم الكونية وقوانين الله في الحياة والموت. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أنزلَ مِنَ السماءِ ماءً

(١) رواه الترمذي وقال حديث غريب.

فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مختلفاً ألوانُها وَمِنَ الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وَحُمْرٌ مختلفٌ ألوانُها وَغَرَابِيبُ سُودٌ. ومنَ الناسِ والدَّوابِّ والأنعامِ مختلفٌ ألوانُه كذلكَ إنما يَخشى اللهَ مِن عبادِه العلماءُ إنّ اللهَ عزيزٌ غفورٌ﴾ [فاطر: ٢٧ - ٢٨].

والذي يطلب العلم خشية للّه وتعبّداً ووسيلةَ قربى وجلبَ رضا منه؛ ييسر الله له أمر العلم ويبارك له فيه ويفتح آفاق بصيرته إلى مجالات رحبة لا تدركها العقول التي طلبت العلم بعيداً عن الله، لأن استكشاف سنة الله في الكون تكون لمن اتقوا الله فعلَّمهم الله. إن أكثر مشكلة تواجه المجتمع المسلم أن لا يعمل علماؤه بعلمهم، أو أن يسخروا العلم إلى عمل يضر بالأمة ويحيد بها عن منهج الله وطريقه، أو أن يكون العمل قائماً على جهالة، فتبدد طاقات الأمة فيما يعيق تقدمها ويبعدها عن دينها الذي هو عصمة أمرها.

وحديث أبي الدرداء «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله له به طريقاً إلى الجنة» وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة» ذكر العلماء في تفسير الطريق إلى الجنة تفاسير كثيرة منها أن ييسير الله لطالب العلم الذي يطلبه للعمل به علوماً أخر ينتفع بها فيكون طريقاً موصلاً إلى الجنة وهذا كما قيل «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»[١].

إن العمل بالعلم يقتضي توجيهه إلى الخير وتعليمه للناس قصدَ الله وشكراً له، لأن الرسول ﷺ يعيب على المرء أن يتعلم ليباهيَ العلماء أو يباريَ السفهاء أو ليتحدث به في المجالس، والله سبحانه يوجه المتعلم إلى ذلك فيقول: ﴿ولكنْ كُونوا رَبّانِيِّينَ بما كنتم تُعَلِّمونَ الكتابَ وبما كنتم تَدْرُسونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. يقول الإمام الشوكاني: (كونوا معلمين بسبب

(١) شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم ص ١٥ تأليف أبي الفرج زين الدين عن الرحمن في رجب الحنبلي ٧٩٥/٧٣٦ هـ.

كونكم علماء وبسبب كونكم تدرسون العلم. وفي هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل وإن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص للّه سبحانه)[1].

والإسلام يركز على تربية الناس على تطبيق ما تعلموه في حياتهم حتى لا يستخدم العلم في غير موضعه، وحتى لا يكون العلم مسخراً في سبيل الجرائم من تدمير حربي وتجسس واعتداء على حرية الآخرين باستخدامه استخداماً غير أخلاقي. ولأهمية الضوابط في هذه الناحية جعل الإسلام الإنسان مسؤولاً عن علمه ما عمل به وحذر من علم بلا عمل، لأن المفاسد والمشكلات تأتي من عدم الالتزام بالعلم بنفس الدرجة التي تكون من الجهل، ولذلك كان شرار الناس علماء السوء والأئمة المضللين.

ثانياً: نشر العلم:

يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه بقوله: ﴿يا أيُّها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِن رَبِّكَ وإنْ لَمْ تَفعلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسالتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]. ولا تبلّغ رسالة الله للبشر إلا عن طريق العلماء العاملين بعلمهم، المخلصين في اتجاههم للّه، باعتبار نشره واجباً ومسؤولية، وباعتبار كتمان العلم وحجبه عن إيصاله للناس داعية إلى سخط الله ومخرجاً لهم عن وسيع رحمته التي شملت كل شيء ﴿إنَّ الذينَ يَكتمونَ ما أنزلْنا مِنَ البَيِّناتِ والهُدَى، مِن بعدِ ما بَيَّنّاهُ للناسِ في الكتابِ أولئكَ يَلعنُهم اللهُ ويلعنُهم اللاعنونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]. وما كانت لعنة مخلوقات الله لكاتم العلم لولا عظم الأمر وفداحة التقصير. وقد ذكرنا أن معلم الناس الخير تستغفر له المخلوقات وتصلي عليه حتى الحيتان في البحر، وما ذاك إلا لأن فائدة العلم لاحقة بها

(١) فتح القدير ص ٣٥٥ مجلد أول.

بصِلات لا ندري عنها، وتكبر مسؤولية العلماء في نشر العلم لما ميّزهم الله دون عباده بقدرات ذهنية واستعدادات عقلية وتيسيرات إلّهية تلقي على عاتقه ردّ هذه النعم إلى المؤمنين خيراً وبركة في الدنيا وزاداً ورصيداً في الآخرة. وتنديد الله بكتم العلم راجع إلى ما يعتوِر نفوس البشر في تخصصاتهم العلمية ـ حين يركنون إلى الدنيا ويبعدون عن الله ـ ما يعتورِها من أمراض التنافس على المقاصد القريبة والغايات العاجلة، وما يصيبها من حسد وغيره يدفعان إلى الكتمان بل التدليس في العلم والبخل به، فلذلك ألجم الله من كتم علماً بلجام من نار.

والعلم لا ينتشر دون معاناة من الباطل ومحاربة من الجهلاء لأن العلم لا يقف في طريقه إلا جاهل لقدره وأثره في الحياة، ولذلك كانت معاناة الأنبياء مع أممهم، ومجاهدات المصلحين مع أقوامهم الذين ألفوا الحياة بأنماط لا يغيِّرها إلا العلم الصحيح والمعرفة المستنيرة حيث أن العلم هو وسيلة التغيير والتطور، والرسول ﷺ يعطي صورة الحياة حين ينتفع الناس بالعلم الذي نشر فيهم وتثري حياتهم وتفتح أمامهم أبواب الخير الوافرة، وصورة الحياة حين تجدب وتقحط بلا علم أو علماء لا يبلِّغون العلم فيقول: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[1].

فهنا ثلاثة نماذج: العالم الذي يعمل بعلمه ويعلمه غيره فهو كالأرض الطيبة التي شربت الماء لنفسها وأنبتت لغيرها، ثم العالم الذي لا يعمل بعلمه ولكن يعلِّمه غيره فهو كالأرض التي أمسكت الماء فانتفع بها

(١) فتح الباري ج أول ص ١٧٥ باب العلم.

الناس، وأخيراً العالم الذي لا يعمل بعلمه ولا ينقله إلى غيره وهو كالأرض التي لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ. وعن قول الرسول ﷺ «رُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع» يقول ابن حجر في فتح الباري: (وفي هذا الحديث من الفوائد ـ غير ما تقدم ـ الحث على تبليغ العلم وجواز التحمل قبل كمال الأهلية، وأن الفهم ليس شرطاً في الأداء، وأنه قد يأتي في الآخر من يكون أفهم ممن تقدمه لكن بقلة)[1].

والعلم لن ينتشر إلا بحركة الناس حوله واستقبالهم له وجهادهم في طلبه. وقد كان أصحاب الرسول ﷺ يسافرون ويبذلون المال في التحقق من حديث سمعوه من رجل يرويه عن رسول الله ﷺ تدقيقاً للعلم وطلباً لعلوِّ الإسناد، وقد أورد ابن حجر أمثلة لرحيل الصحابة في طلب العلم وحرصهم على تحصيل سنة النبي ﷺ وكذلك جهود التابعين من أمثال سعيد بن المسيب الذي كان يرحل الأيام والليالي في طلب حديث واحد، وقول الإمام أحمد حين سئل: رجل يطلب العلم، يلزم رجلاً عنده علم كثير، أو يرحل؟ قال: يرحل، يكتب عن علماء الأمصار فيشافه الناس ويتعلم منهم[2]. وفي هذا وغيره حث على الاستزادة من العلم لنشره وإن كلّف ذلك مشقة وجهداً واغتراباً في سبيل العلم، وقد كان سلف الأمة على علم بهذه المسؤوليات التي تجعل صاحب القدرات والمواهب في العلم مسؤولاً إذا لم يتعلم ويعلم وينشر العلم بين الناس. ومصداق ذلك ما رواه البخاري في باب رفع العلم وظهور الجهل عن ربيعة الرأي قوله: «لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه» وقد علّق ابن حجر على ذلك بأن مراد ربيعة «أن من كان فيه فهم وقابلية للعلم لا ينبغي له أن يهمل نفسه فيترك الاشتغال لئلا يؤدي ذلك إلى رفع العلم. أو مراده الحث على نشر العلم في أهله لئلا يموت العالم قبل ذلك فيؤدي إلى رفع

(١) المصدر السابق ص ١٥٩.
(٢) المصدر السابق ١٧٥.

العلم. أو مراده أن يشهر العالم نفسه ويتصدى للأخذ عنه لئلا يضيع علمه»[1] وقد جاء ذلك كله في التعليق على حديث الرسول ﷺ «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر، ويظهرالزنا»[1].

والعمل الذي يكتب للمسلم بعد وفاته هو العلم الذي ينشره لأن له أجر من تعلّم منه ثم عمل بما علم. وقد اعتبر الرسول ﷺ نشر العلم من أفضل الصدقات كما توعّد كاتم العلم، لأن نشر العلم وسيلة إلى التقدم الحضاري والعلمي.

ثالثاً: تعليم العلم:

من نعم الله على البشر أنه أودع فيهم القدرات التي تجعلهم يتعلمون، وما إرسال الرسل للبشر إلا ليعلموهم الكتب التي أنزلها عليهم ﴿كما أرسَلْنا فيكم رسولاً منكم يَتلو عليكم آياتِنا وَيُزَكِّيكُم وَيُعَلِّمُكُمُ الكتابَ والحكمةَ وَيُعَلِّمُكُم ما لم تكونوا تَعلمونَ﴾ [البقرة: ١٥١]. وقد كان الرسول ﷺ يبذل جهده في تعليم الصحابة بالوسائل المختلفة والمواقف والطرق المتعددة، وكان أثر تعليمهم في سنوات قليلة أن نقل العرب من أمة جاهلة أميّة إلى أمة قائدة ومعلمة للبشرية، وكانت مادة التعليم لها: القرآن الذي أنزله الله على علم هدىً ورحمةً للمؤمنين، وسنة الرسول ﷺ من أقواله وأفعاله وموافقاته لأفعال أصحابه المتفقة مع الدين، كما طلب الرسول ﷺ من المشركين الأسرى في بدر أن يحرروا أنفسهم بتعليم المسلمين القراءة والكتابة، لذا كان لزاماً على المسلم أن يتعلم لنفسه ويهذبها ويثقفها ثم يقوم بواجبه في تعليم الآخرين وتثقيفهم ونقل المعرفة إليهم. ولتفاوت الناس في استعداداتهم في التعلم كان على المعلمين أن يعلموهم الحد الأدنى الذي يؤدون به تكاليفهم وييسرون به أمر معايشهم.

(١) المصدر السابق ص ١٧٨.

العلم هو وسيلة المؤمن إلى استقامة أمره مع الله وإحسان عبادته وتوجهه إليه وإدراكه أهمية أمانة التكليف، كما أنه وسيلة العقل إلى الاهتداء لأسرار الوجود وحقائق الكون عن طريق التأمل والتدبر والتفكير في آيات الله وآلائه، وهو وسيلة المؤمن إلى تحرير عقله في تمييز الحق من الباطل وإعمار الأرض وإثرائها، وكل ذلك لا يتم إلا عن طريق التعليم الذي هو نتاج عمليات التعلم، ولذلك كان تعلّم العلم فريضة يلزم المجتمع المسلم علماءه أن يقوموا بواجبهم في التعليم والتوجيه والنشر ولهم من الله حسن الجزاء، فقد قال رسول الله ﷺ فيما يرويه الترمذي «ما من رجل يسمع كلمة أو كلمتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً مما فرض الله فيتعلّمهن ويعلّمهن إلا دخل الجنة»[1].

ولذلك كان حرص المسلمين ولا زال على تعليم أبنائهم وحفظهم لكتاب الله في سن مبكرة، ولذلك أجمع علماء التربية والتعليم من المسلمين على وضع حفظ القرآن وتجويده في أول مناهج التعليم الإسلامية، وما من عالم في تاريخ المسلمين غير قلة إلا وفي ترجمة حياته أنه حفظ القرآن قبل أن يبلغ العاشرة، وقد كان المعلمون منذ عهد الأئمة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي يعلمون أطفال المسلمين وقد كان التعليم مسؤولية الآباء لوجوب تعليمهم لدينهم، حتى إن القابسي في رسالة المعلمين لا يجد للأب الذي لا يعلم ابنه عذراً إلا إذا كان فقيراً. وإذا كان للولد مال علّمه والده أو وصيّه منه وأدخله الكتاب ودفع أجراً لمن يعلمه، وذلك كله لأن المسلمين يؤمنون بأن كتاب الله تعليماً وحفظاً وفهماً هو أساس التربية ومفتاح التعليم للعلوم كلها ووسيلة الأخلاق والفضائل الرفيعة.

ولأن السنة هي الوسيلة لفهم كتاب الله ولأن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿وما آتاكم الرسولُ فَخُذُوهُ وما نَهاكُم عنهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. فإن تعلّم

(١) فتح الباري ص ٢١٥ الجزء الأول باب العلم.

السنة وتعليمها أمر لازم للمسلمين خاصة وأن السنة تتعرض لافتراءات المفترين وغمز المرضى والمتشككين الذين يقولون نأخذ بالقرآن فقط ليهدموا السنة ثم يتجهوا إلى القرآن ليطعنوا فيه، وقديماً دافع العلماء ولا زالوا يدافعون عن السنّة ويدحضون افتراءات المنافقين فقد سأل الصحابيَّ عمرانَ بنَ حصين أحدُ التابعين قائلاً: «يا أبا نجيد إنكم لتحدثوننا بأحاديث ما نجد لها أصلاً في القرآن، فغضب عمران وقال للرجل: أوجدتم في كل أربعين درهماً؛ درهماً، ومن كل كذا وكذا شاة؛ شاة.. أوجدتم هذا في القرآن؟ قال لا. قال: فعمن أخذتم هذا؟ أخذتموه عنا وأخذناه عن النبي ﷺ»[1] وقد كتب سيدنا عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم يأمره بنشر العلم وتعليمه «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبلْ إلا حديث النبي ﷺ، ولتُفْشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً»[2] وقد طلب الرسول ﷺ من وفد عبد القيس أن يتعلموا أصول الإيمان ثم يعلِّموه غيرهم أو من وراءهم كما قال مالك بن الحويرث: قال لنا النبي ﷺ «ارجعوا إلى أهليكم فعلِّموهم» فنقلُ العلم واجب يتفاوت الناس في حمله وتعليمه، فالعلم أمانة لا ينفك من المتعلم إلا بأن يعلِّم غيره مهما كان ذلك العلم.

وقد وضع المسلمون مناهج تعارفوا عليها في نقل العلم وتعليمه أصبحت تمثل أساليب المسلمين في مكانة العلم والعلماء والأصول الواجبة في طريقة التلقي، والصفات التي يتحلى بها طالب العلم، ونظرياتهم في التعليم الإلزامي والاختياري، والتعليم المستمر، وآداب العالم والمتعلم، ومدى الاستفادة من الخبرات الإنسانية وحدود الانفتاح عليها وكيفية التفاعل مع الثقافات الأخرى وما يقع في حدود العقل وما يتبع الوحي.

---

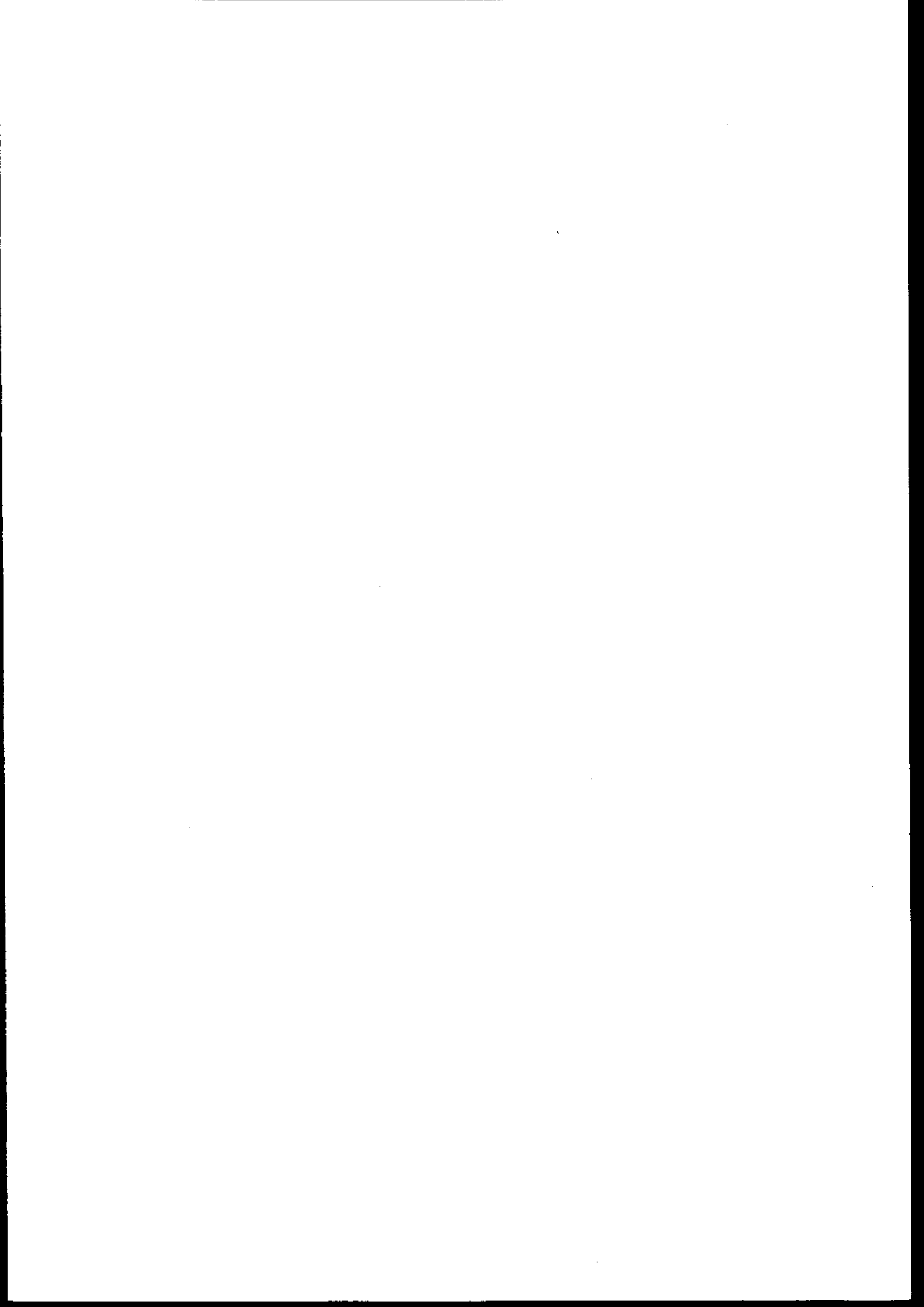
(١) ابن عبد البر - جامع بيان العلم وفضله ٢/٢٣٤.

(٢) فتح الباري ج أول ص ١٩٤.

ولم يترك علماء المسلمين البحث في أساليب التعليم المختلفة باعتبارها الوسائل الناجحة في تعليم العلم فتحدثوا عن الطرق المختلفة من السماع والمناظرة، والأسئلة والأجوبة، والانتقال في طلب العلم إلى ما بحث العلماء في نظريات التعليم والتربية وطرق التدريس.

ولأهمية التعليم وعظم أجره عند الله يقول الحسن: «لأن أتعلم باباً من العلم فأعلِّمه مسلماً أحب إليّ من أن تكون لي الدنيا كلها أجعلها في سبيل الله تعالى»[1].

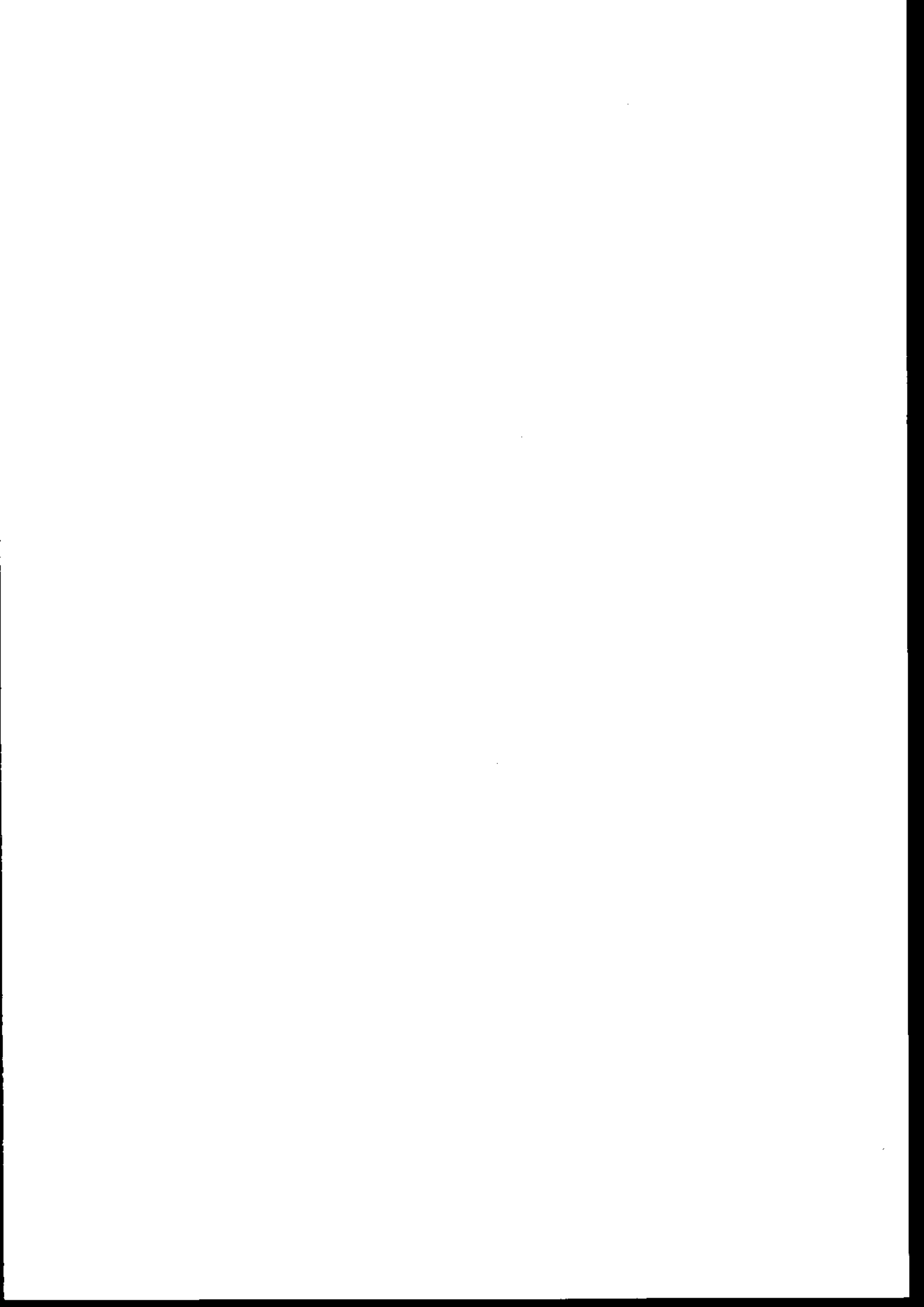
(١) شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم/ عبد الرحمٰن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي ص ٣٧.



الفصل الثاني

التربية في عصور ما قبل الإسلام وبعده

- بدايات التربية وتطورها.
- التربية في العصر الجاهلي.
- التطور المنهجي للتربية الإسلامية.



التربية في عصور ما قبل الإسلام وبعده

بدايات التربية وتطورها:

من البديهيات أن نقول: إن التربية قد ارتبطت بظهور الإنسان على الأرض وإحساسه بنفسه وتعامله في نطاق الأسرة ثم الجماعة، ويحدثنا مؤرخو التربية أن الصغار كانوا يتعلمون من الكبار في المجتمعات الأولى عن طريق التقليد والمحاكاة أو عن طريق المشاركة فيما يقوم به الكبار سعياً وراء ضروريات الحياة بطريقة عفوية يُهيَّأ الأطفال عن طريقها لاكتساب المهارات العملية في الحياة، والقرآن الكريم يحدثنا أن الله سبحانه وتعالى قد تعهد البشر تربوياً بتعليمهم منذ أن خلق سيدنا آدم، وأودع فيهم القوى والطاقات التي تمكنهم من استعمار الأرض وإظهار ما أودع الله فيها من كنوز وخيرات، فكان الإنسان هو الخليفة الذي سلّم أمر الأرض إليه، وأُعطي من العلم ما ييسر له استعمال خاصة اللغات برموزها وإشاراتها إلى الأشياء والأشخاص وإعطائها المسميات التي تميزها، وهذه القدرة التي أودعها الله في الإنسان هي سر من أسرار تكريمه للإنسان على كثير ممن خلق، وترفعه إلى المعرفة والعلم فوق درجات الملائكة هي درجة مسؤوليات الخلافة في الأرض يقول تعالىٰ:

﴿ وإذ قالَ رَبُّكَ للملائكةِ إني جاعلٌ في الأرضِ خليفةً. قالوا أتجعلُ فيها مَن يُفسدُ فيها ويسفِكُ الدماءَ ونحنُ نُسَبِّحُ بحمدِكَ وَنُقَدِّسُ لكَ قالَ: إني أعلمُ ما لا تَعلمونَ وعلَّمَ آدمَ الأَسماءَ كلَّها ثم عَرَضَهم على الملائكةِ فقالَ: أَنبِئوني بأسماءِ هؤلاءِ إن كنتم صادِقينَ قالوا: سُبحانَكَ لا

عِلمَ لنا إلا ما عَلّمْتَنا إنك أنتَ العليمُ الحكيمُ. قالَ يا آدمُ أنبئهم بأسمائِهم فلمّا أنبأَهُمْ بِأسمائِهم قالَ ألم أقُلْ لكم إني أعلمُ غيبَ السماواتِ والأرضِ وأعلمُ ما تُبدونَ وما كنتم تَكتمونَ. وإذ قلنا للملائكةِ اسجُدوا لآدمَ فسَجَدوا إلا إبليسَ أبَى واستكبرَ وكانَ مِن الكافرينَ.

وقلنا يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجَنّةَ وكُلا منها رَغداً حيثُ شِئتما ولا تَقْرَبا هذه الشجرةَ فتكونا مِن الظالمينَ. فَأَزَلّهُما الشيطانُ عنها فأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فيهِ وقلنا اهْبطوا بعضُكم لبعضٍ عَدُوٌ ولكم في الأرضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حِينٍ، فَتَلَقّى آدمُ مِن رَبِّه كلماتٍ فتابَ عليهِ إنه هوَ التوابُ الرَّحِيمُ، قُلْنا اهْبطوا مِنها جميعاً فإمّا يَأْتِيَنّكم مِنّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فلا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحزنونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٨].

ففي هذه الآيات نلمح بوادر التربية الإلّهية للإنسان ممثلاً في سيدنا آدم الذي كرّمه الله وعلّمه مسميات الأشياء، ووكّل إليه تحمل مسؤولية المواجهة للغواية ووسوسة الشيطان، والمحافظة على عهد الله، ثم ما أعقبت المعصية من تنبه ويقظة وندامة وحسرة، وما ترتب على هذه التجربة من طلب للمغفرة وتوبة إلى الله، كل ذلك ليستفيد الإنسان منها على الأرض مكان الخلافة التي خلق لها وأنزل إليها مزوّداً بتجارب متهيئاً لمواجهة أعدائه في الأرض: النفس والشيطان.

فالتجربة التربوية الأولى كانت من عند الله سبحانه وفي غير الأرض، ثم تتعدد التجارب التي تري الإنسان في الأرض في أحداث القرآن وبوسائل خارجة عن تجارب البشر ومعارفهم. فإذا كانت التجربة الأولى ممثلة في خليفة الله رمزاً في الأرض للخير وإبليس رمزاً للشر؛ فإن التجربة تتكرر في أول جريمة على هذه الأرض من ابني آدم قابيل وهابيل، وهذه التجربة توضح أن وسائل التربية للإنسان ليست هي التحذير والموعظة والتذكير دائماً إذ أن النفوس تتباين وتختلف، ولا بد تبعاً لذلك من اختلاف الوسائل والطرق التربوية يقول الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عليهم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بالحَقِّ

إذْ قَرَّبَا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِن أحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ: لأَقْتُلَنَّكَ. قالَ: إنّما يَتَقَبَّلُ الله مِن المتّقينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ما أنا بباسِطٍ يَدِيَ إليكَ لأَقْتُلَكَ إني أخافُ اللهَ رَبَّ العالمينَ. إني أريدُ أنْ تَبُوءَ بإثمِي وإثمِكَ فتكونَ مِن أصحاب النار وذلكَ جزاءُ الظالمينَ. فَطَوَّعَتْ لهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أخِيهِ فَقَتَلَهُ فأصبحَ مِنَ الخاسِرينَ. فبعثَ الله غراباً يَبحثُ في الأرضِ لِيُرِيَهُ كيفَ يُوارِي سَوْأَةَ أخِيهِ قالَ يا وَيْلَتى أعَجزْتُ أن أكونَ مِثلَ هذا الغرابِ فأواريَ سَوْأَةَ أخِي فأصبحَ مِن النادِمينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ - ٣١].

فالقصة تعلمنا أن النفس الشريرة إذا ما اندفعت في اتجاهها تُطَوِّع للإنسان كلَّ جريمة من إزهاق روح بريئة، كما أن حيرة القاتل تظهر حداثة التجربة وجِدّتها في الأرض، وتظهر عجز الإنسان أمام التجارب والأحداث الجديدة في حياته مهما كانت قوته وجبروته وبطشه ما لم تتعهده التربية بالتهذيب والتعليم والتوجيه لطاقاته وخبراته الوجهة الصحيحة. وكانت وسيلة التعليم والتربية في القصة أن بعث الله خلْقاً من مخلوقاته هو الغراب ليظهر للإنسان ضعفه ويعلمه كيف يدفن أمواته. وسواء أقتل الغراب غراباً آخر معه ثم حفر له أو جاء إلى غراب ميت فدفنه، فإن الله هو الذي أودع هذه الغريزة في هذا الحيوان ليعلم الإنسان، وليأخذ منه العظات والعبر، وليكون وسيلة أيضاً لبيان أحكام شرعية تتعلق بحماية الإنسان في الأرض. وقد أدرك سيد البشر ﷺ الناحية التربوية في هذه القصة فوجّه المسلمين إليها وقال: «إن ابني آدم عليه السلام ضربا لهذه الأمة مثلاً فخذوا بالخير منهما» كما قال: «إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلاً فخذوا من خيرهم ودعوا شرّهم».

والقرآن مليء بنماذج كثيرة تدل على المواقف التربوية في حياة الأنبياء والأمم التي تعاقبت على الأرض قبل الرسالة المحمدية التي جاءت خاتمة للرسالات كاملة الأسس والأهداف والنظريات التربوية.

ويذكر مؤرخو التربية الحديثة أن البشرية قد عاشت آلاف السنين

وهي لا تعرف التربية المنظمة التي نمارسها في مدارسنا أو معاهدنا التي تعتبر الأماكن المخصصة لممارسة عملية التربية، وإذا كـانت التربية الأولية أو البدائية لا تمارس في حجرات الدراسة فإنها كانت تمارس في واقع الحياة من خلال المهارات التي يتعلمها الفرد عن طريق المحاكاة والتقليد من خلال ممارسات الزراعة والصيد وغيرهما، أو من خلال المعلومات التي يتبادلها الناس في حياتهم، ولم تكن تلك المهارات والمعلومات من التعقيد بمكان نسبة لبساطة الحياة وقلة الحضارة وبدائية الثقافة وغير ذلك من المكونات التراثية في حياة الأمم.

وكانت التربية آنذاك من وظائف الآباء والمجتمع الصغير الذي يعيش فيه الفرد، وكان لا بد لهذه التربية البدائية من أن تتطور بتطور البشرية في سلوكها ومهاراتها ومعارفها وحضارتها، وكان لا بد أن يتبع التطورَ والتغيير في حياة الناس المادية تطورٌ في الأفكار والاتجاهات واختلاف وجهات النظر في أمور الحياة وطرقها ومعيشة الناس وقيمهم وأخلاقياتهم. وتبع هذا التطور الحاجة إلى جماعة من المجتمع يهتمون بالأبناء ويقومون بواجب التربية والتعليم نيابة عن الآباء والأسرة، فظهر المعلم الذي يعلم أبناء مجتمعه في مكان ما من البيئة، ثم تطور الأمر إلى وجود أماكن مخصصة يتعلم فيها الأبناء أصول القراءة والكتابة وما وصلت إليه الأمة من تراث يمثل تاريخها وشرائعها.

ولذلك كله نجد في بلاد الصين قبل خمسة آلاف سنة مدارس تنتشر في القرى في مبانٍ ضيقة لا تزيد عن حجرة أو في أركان المعابد، ويتعلم الأطفال فيها الكتابة وبعض الأشعار ومبادىء الحساب ولم تكن هناك صلة أول الأمر بين لغة التخاطب ولغة التعليم وينتقل الطلاب من مرحلة دنيا إلى مرحلة عليا يدرسون فيها التاريخ والفلسفة والدين والشؤون الزراعية والحربية، ولأن التربية كانت خاضعة للدولة فإنها كانت تهيىء لها الموظفين الذين يعينون حسب شهاداتهم والامتحانات الدورية التي تعقد لهم، ويجتاز الطالب عدة امتحانات ليمتحن أخيراً في كلية (هان

لين بوان) وهي أكاديمية امبراطورية في بكين، قاعة الامتحانات فيها تتكون من عشرة آلاف حجرة، ولكل طالب حجرة يختبر فيها ويأكل فيها ويعيش، حيث تستمر الامتحانات ثلاثة عشر يوماً في الأدب والأخلاق والفلسفة، ثم يعين الناجحون ـ بعد تلك الأيام القاسية التي عاشوها في حجرات غير صحية ـ في مناصب الدولة الكبرى[١]. وكان غرض التربية إلى جانب ذلك (إعداد القادة بتزويدهم بالمعارف القديمة التي تتصل بنظام المجتمع وصلات الأفراد بعضهم ببعض، وإعداد كل أفراد الشعب ليكون سلوكهم حسناً في جميع أعمالهم وفي جميع ما يزاولونه في حياتهم)[٢] أي أن التربية كانت تُعنى بالناحية الخلقية الاجتماعية.

أما في مصر الفرعونية فقد هدفت التربية إلى تهيئة الأفراد ليكونوا أعضاء عاملين في المجتمع، وذلك بِمَدِّهم بالخبرات اللازمة لذلك، كما عملت التربية على تنمية الناحيتين الثقافية والمهنية والدينية والدنيوية (فالدنيوي تخريج المتعلمين في الفنون المختلفة مما يضمن لهم المعيشة الراضية، والديني هو العمل على محبة الآلهة في الآخرة بالتعبد والتقرب إليهم)[٣].

أما في الهند فقد كان التعليم محتكراً لدى البراهمة الذين قصروا التعليم أول الأمر على عدد قليل من الطبقة العليا ثم سمحوا به للطبقات كلها، ويشمل التعليم الدين والأخلاق والحساب والكتابة، ثم ينتقل الجميع إلى الجامعات، وكانت التربية تعمل على اكتساب الطلاب لعادات التفكير والإحساس والتحكم في الجسم والسلوك. فكان الطالب يجلس جلسة واحدة مدة تستغرق ساعات طويلة يتعود بها على التحكم في نزعات نفسه ورغبات جسمه[٤].

(١) د. سعد موسى أحمد ـ تطور الفكر التربوي ط ١ ص ٧٤ ـ ٧٦.
(٢) منرو ـ تاريخ التربية نقلها عن التربية وطرق التدريس لصالح عبد العزيز وعبد العزيز عبد المجيد.
(٣) د. سعد موسى تطور الفكر التربوي ص ٨٤ ـ ٨٥.
(٤) التربية وطرق التدريس ص ٣٣.

(وقد اهتم قدماء المصريين بالعلم والمدارس باعتبار المعرفة وسيلة إلى المجد والثروة، ووصايا حكمائهم تحث على الثقافة والمعرفة اللتين لا يسمو شيء عليهما، وقد قسموا المجتمع إلى طبقات: أولى تتكون من الكهان والأطباء والمهندسين ورجال الفكر والعلم والكتّاب، وثانية هم المحاربون، وثالثة يمثلها الفلاحون والرعاة والتجار والعمال. كما أنهم قسموا التعليم إلى مراحل: أولية للأطفال، ومتقدمة تقتصر على أبناء الفراعنة ـ الطبقة الأولى ـ وكان لديهم جامعة مشهورة هي (جامعة أون) عين شمس، كما كان التعليم العسكري عندهم منفصلاً)[1].

أما في أوروبا فقد كان لمدينة أسبرطة نظامها التربوي العجيب، إذ أن الدولة كانت تتعهد الطفل منذ مولده، فإذا أحسوا بضعفه تركوه في العراء ثم عادوا إليه بعد فترة، فإذا تحمل الجوع والبرد أبقوا على حياته، وإلا تركوه حتى يموت بدلاً من أن يشبّ مواطناً ضعيفاً، والطفل يظل مع أمه سبع سنوات ثم يرسَل إلى إحدى مؤسسات الدولة ليعيش مع غيره من الأطفال تحت نظام قاس عنيف من التربية، ليأخذ على مظاهر التقشف والنظام، ومن يبدي منهم شجاعة وإقداماً أصبح رئيساً للجماعة وعلى الآخرين طاعته.

فالتربية في أسبرطة تهدف إلى إعداد الطفل إعداداً عسكرياً في المقام الأول ليقوم بوظائفه القتالية، ثم تأتي التربية الأدبية والخلقية كما تهدف التربية العسكرية إلى تقوية روح الطاعة المطلقة.

أما الفضائل الإنسانية مثل الصدق والأمانة فهي نسبية، إذ أن الكذب يجوز على غير الأسبارطيين، ولا يعاقَب السارقُ إلا أذا ضُبط متلبِّساً بجريمته لأنه فشل في إخفاء نفسه ولم يكن حريصاً، وكان أغلبهم لا يتعلم القراءة والكتابة مع أنهم كانوا أذكياء.

---

(١) د. إبراهيم ناصر مقدمة في التربية ص ٣٥.

وإذا انتقلنا إلى أثينا الدولة المنافسة لأسبرطة فإنها مع اهتمامها بالشجاعة والإقدام إلا أنها لم تكن تربية عسكرية إذ كانت تعمل على أن يتحلى الإنسان بالحكمة المغلّفة بالعقل والابتكار والتجديد في الحياة والعمل على سعادة الإنسان وكماله الجسماني والعقلي والخلقي، وتطلب الدولة من الأسرة الاهتمام بالطفل، ويعلّم الطفل السلوك الطيب والقراءة ويحفّظ مؤلفات أعظم الشعراء حيث يجد فيها النصائح والقصص ومفاخر مشاهير الرجال، والتعليم طبقي يكتفي فيه أبناء الفقراء بالمرحلة الابتدائية ويستمر أبناء الأغنياء في اكتساب الخبرات والمعلومات وتذوق الفن(١).

وفي مجال المقارنة بين التربية الصينية والأثينية يقول برتراند راسل فيه: (إن التربية الصينية التقليدية كانت كبيرة الشبه من بعض النواحي بنظيرتها في أثينا في أعز أيامها، كان الصبية الأثينيون يُحمَلون على حفظ هومر عن ظهر قلب من أوله إلى آخره، وكذلك كان الصبية الصينيون يُحمَلون على حفظ المأثورات الكنفوشية، وكان الأثينيون يعلّمون نوعاً من احترام الآلهة، يقوم على المحافظة على المظاهر، ولا يضع حاجزاً في طريق النظر الفكري الحر، وكذلك كان الصينيون يقيمون طقوساً خاصة تتصل بتقديس الأسلاف، من غير أن يجبَروا بحال على اعتقاد ما كان منطوياً في تلك الطقوس).

أما الرومان فمع عراقة دولتهم لم تكن لهم نظريتهم التربوية المميزة، ومرت التربية عندهم بمراحل وشملت الاهتمام بالدين والأخلاق والرياضة وفنون القتال، ثم ظهرت المدارس النظامية التي تعلم مهارات الحياة العملية، وإعداد المواطن البليغ خطابةً والفصيح بياناً ذي الثقافة العالمية الملمّ بصنوف المعرفة والمهارات الفلسفية والقانون والسياسة والحرب، والذي يتولى أرفع المناصب في الدولة(٢).

(١) مونرو ـ تاريخ التربية ترجمة صالح عبد العزيز ص ٨٦ ـ ٨٨.
(٢) د. سعد موسى ـ تطور الفكر التربوي ص ١٤٧ ـ ١٥٠.

وقد عاشت أمم الشمال والغرب من أوروبا في ظلام الجهل والأمية والحروب الدامية لم ينبثق منها فجر الحضارة والعلم بعد ولم تظهر على مسرحها الأندلس العربية الإسلامية لأداء رسالتها في العلم والمدنية وكانت بمعزل عن ركب الحضارة الإنسانية يقول عنها هـ.ج. ويلز: (لقد أطبق على أوروبا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً. قد كانت همجية ذلك العهد أشد هولاً وأفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضي عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة، التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي كإيطاليا وفرنسا فريسة الدمار والفوضى والخراب)[1].

أما عن أوروبا الغربية فيقول البروفيسور شيلي في كتابه تاريخ الفلسفة: (لعل القرنين السابع والثامن كانا أظلم عهد في تاريخ حضارة أوروبا الغربية، إنه كان عهد بربرية وجهالة لا نهاية لهما، غمرت فظائعهما أعمالاً تدمر جميع المنجزات الأدبية والجمالية للعهد الماضي الكلاسيكي) كما يقول (دربير): (يصعب القول عن سكان أوروبا القدماء بأنهم تجاوزوا مرحلة البربرية والوحشية فقد كانت أجسامهم قذرة وأخيلتهم مفعمة بالأوهام، يؤمنون إيماناً راسخاً بكل ما ينقل من الأساطير والحكايات التافهة التي لا أساس لها عن كرامات الضرائح ودعاوى القداسة المزعومة).

أما التربية المسيحية فلم تخرج عن رسالة المسيح عليه السلام في نشر روح التعاطف والتسامح والمحبة والتواضع، مع استخدام وسائل مختلفة مثل الأمثلة والحكايات الرمزية ذات المغزى الأخلاقي المستمد من الواقع والمألوف، إلى جانب الحكم والأمثال كوسائل سريعة إلى قلوب المستمعين، وقد أخذت التربية المسيحية عن سقراط طريقته في استخدام الحوار للكشف عن المغالطات والأخطاء وأُخِذ على هذه الطريقة أن النتائج

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٥ ـ ٤٦.

ونهاية الحوار معدّتان سلفاً ولا يمكن تغييرها، وكانت التربية المسيحية تعتمد على الأسرة ثم الكنيسة، ثم دخلتها الانحرافات التي دخلت على المسيحية فتغيرت عن صبغتها الدينية الخالصة. ثم بدأت المسيحية في إنشاء المدارس في اليونان، وجاءت فترة سيطرت فيها الكنيسة على التعليم إلى نهاية القرن الحادي عشر، وكان التعليم قاصراً على أبناء الأغنياء والطبقات العليا ورجال الكنيسة(١).

إن التربية المسيحية يمكن النظر إليها من خلال طبيعة الديانة المسيحية، فمع ما تقدم ذكره مما جاء في كتاب تاريخ التربية فإن الواقع التاريخي يدل على أن المسيحية لم تكن بطبيعتها ديانة تبنى عليها حضارة أو تقام على ضوء تعاليمها دولة، وقد جاء (بولس) فطمس نورها وأزال البقية من آثار تعاليمها وطعّمها بخرافات الجاهلية والوثنية التي نشأ عليها، ثم قضى (قسطنطين) على البقية الباقية فأصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية، فتلاشت تعاليم المسيح كتلاشي القطرة في اليمّ، فأصبحت معتقدات لا تغذي الروح ولا تمدّ القلب ولا تشعل العاطفة ولا تحلّ مشاكل الحياة، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية. يقول «سال» مترجم القرآن الكريم إلى الإنكليزية عن نصارى القرن السادس الميلادي (وأسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا في ذلك الكاثوليك في هذا العصر)(٢).

والمعروف أن العالم قد وصل إلى درجة كبيرة من الانحطاط في القرنين السادس والسابع نتيجة لانقطاع صلة العالم بالله سبحانه وتعالى وبعد الشقة بينهم وبين رسالات الأنبياء، وفقدان الأديان لروحها وتعاليمها لكثرة ما لحق بها من تحريفات وما لحق الأمم من فوضى وانحلال،

---

(١) راجع المرجع السابق ومقدمة في تاريخ التربية د. إبراهيم ناصر ص ٣٨.
(٢) راجع الشيخ أبو الحسن الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٣٧).

وطبيعي أن ديانة كهذه لا تستطيع بل ليست من طبيعتها أن تقدم نظرية متكاملة في التربية لأنها لم تأت بمنهج كامل للحياة كالإسلام.

أما اليهود فكانت التربية عندهم من واجبات الأسرة باعتبارها قوام حياة المجتمع اليهودي، وظلت على هذه الحالة في اعتمادها على الأسرة وعلى التعليم الخلقي والديني والقومي (كشعب الله المختار) وقد أنشؤوا المدارس بعد ظهور المسيحية ليتعلم أطفالهم القراءة والكتابة والتاريخ والهندسة والفلك (وكان الإسرائيليون الأوائل يجهلون معنى لأي نظام اجتماعي سوى الأسرة ولا يتخذون رئيساً سوى الإله، وكان على أطفالهم أن يتربَّوا على أن يكونوا مخلصين لـ (يهود).

وكان تعليمهم يتم عن طريق المثال الصالح القدوة، وكانوا يتعلمون القواعد الأخلاقية والمعتقدات الدينية الخاصة بهم، أما تعليم القراءة والكتابة فكانت مقصورة على الفتيان في حين تتعلم الفتيات الغزل والحياكة وتهيئة الطعام ورعاية شؤون المنزل والغناء والرقص)[١].

أما في القرنين السابقين للإسلام فقد كان اليهود أمة في أوروبا وآسيا وإفريقيا، وكانوا أغنى أمم الأرض مادة في الدين، إلا أنهم لم يكونوا من عوامل الحضارة والسياسة أو الدين المؤثرة في غيرهم، إذ قضي عليهم أن يتحكم غيرهم فيهم، وكانوا عرضة للاضطهاد والاستبداد والنفي، وأورثهم تاريخهم الخاص - تاريخ العبودية والاضطهاد والإذلال والجشع وشهوة المال والربا - أورثهم نفسية غريبة وخصائص لا توجد في أمة أخرى، منها الخنوع عند الضعف، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة، والختل والنفاق في عامة الأحوال، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل، والصدّ عن سبيل الله. وقد وصف القرآن حالهم في القرنين السادس والسابع وما وصلوا إليه من تدهور خلقي وانحطاط نفسي وفساد اجتماعي... عزلوا بذلك عن قيادة العالم.

(١) د. إبراهيم ناصر مقدمة في التربية ص ٣٤.

وقد تجددت حوادث في أوائل القرن السابع بينهم وبين المسيحيين بغّضتهم إليهم، وحدثت بينهما حروب طويلة وقتل وقسوة كما فصّل ذلك المقريزي في الجزء الرابع من كتابه، بما يدل على استهانة الفريقين بالدم الإنساني وتحيّن الفرص في النكاية بالعدو وعدم مراعاة الحدود في ذلك مما يبعدهم جميعاً بأخلاقهم هذه من قيادة البشرية وأداء رسالة الحق والعدل والسلام وإسعاد البشرية في ظلها[1].

أما عن إيران أو مملكة الفرس، فقد قاسمت مملكة فارس الروم حكم العالم ـ كانت الأخلاق فيها منحطة والمحرّمات موضع خلاف حتى إن يزدجر الثاني الذي حكم أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بنته وقتلها، كما أن «بهرام جويني» في القرن السادس كان متزوجاً بأخته، فالإيرانيون اعتادوا الزواج بالمحرمات وكانوا يعتبرون ذلك وسيلة تقرب إلى الله، وقد سبق ظهور دعوة (ماني) في القرن الثالث إلى تحريم النكاح استعجالاً للفناء، ثم دعوة (مزدك) المولود في القرن الخامس إلى المساواة في المال والنساء وجعل الناس شركاء فيهما حتى لم يعرف الرجلُ ولده ولا المولودُ أباه.

أما الأكاسرة ملوك فارس فكانوا يدّعون أنه يجري فيهم دم إلّهي فنظر الفرس إليهم كآلهة يقدسونهم ويؤلهونهم فوق البشر، لذا كان بعض ملوكهم أطفالاً لأن هذا الحق لا يخرج عنهم.

كما اعتقد الناس في البيوتات الروحية والأشراف الذين يرونهم فوق طينة العامة في نفوسهم وعقولهم ـ مما عمّق نظام الطبقات في المجتمع وجعل كل واحد لا يعمل إلا بالحرفة التي خلقه الله لها، ولا يشتري عقاراً إلا أمير أو كبير ولا يتولى الوضيع وظيفة، وقصة المغيرة بن شعبة مع الفرس توضح هذا[2].

---

(١) ماذا خسر العالم ص ٤٤.

(٢) راجع الطبري ج ٤ ص ١٠٨.

كما كان الفرس يمجدون قوميتهم الفارسية التي يرون لها فضلاً على سائر الأجناس والأمم التي يزورونها، وينظرون إليها باحتقار وسخرية، ويرون أن الله قد خصّهم دون الأمم بمواهب خاصة.

وكانوا في عبادتهم قديماً يعبدون الله ويسجدون له ثم عبدوا الشمس والقمر والنجوم، ثم جاء (زرادشت) الذي دعا إلى التوحيد وأبطل الأصنام وقال: إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في الكون، وأمر بالاتجاه إلى الشمس والنار ساعة الصلاة لأن النور رمز إلى الإآله ثم مجّدوا النار إلى أن عبدوها وبنوا لها المعابد والهياكل وانتهت كل عقيدة وديانة إلى عبادة النار[1].

ولا تذكر كتب تاريخ التربية نظرية تربوية مميزة للفرس ولكن تلك المعتقدات والعادات هي التي كانت تحدد فلسفتهم التربوية.

وهذا الاضطراب في حياة المجتمعات والديانات كلها أسرعت بحاجة البشرية إلى دين جديد وبعث جديد ورسول جديد وتربية جديدة.

التربية في العصر الجاهلي:

لم تكن للعرب قبل الإسلام ـ كما نعلم ـ دولة منظمة لها نظامها التربوي وحياتها المنسقة بل كانت الحياة قبلية النظام، والتربية فيها فطرية تكتسب فيها العادات والقيم والمهارات عن طرق التقليد والمحاكاة وقيم القبيلة وأخلاقها فالمثل العليا مأخوذة من مآثر القبيلة وأيامها ورجالها ومعتقداتها وقيمها المتوارثة وحروبها وبطولاتها. والمهارات لا تتعدى مهارات الحرب وطرق الدفاع والهجوم والصيد وصنع آلات الحرب وركوب الخيل وغير ذلك من المهارات المعروفة لديهم.

---

(١) الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٧.

ومن الأمم حولهم تعلموا بعض العلوم وبفطرتهم نبغوا في الشعر والخطابة ومن علومهم علم الفلك والطب والأنساب والعيافة والفراسة والزجر وغيرها.

أما وسائلهم فهي التقليد للآباء ورجال العشيرة ثم المواعظ والإرشادات والحكم من الآباء والأمهات كوصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس، وأسماء بنت خارجة لابنتها، والأوس بن حارثة لابنه، وغير ذلك مما تحفل به كتب الأدب القديمة كالعقد الفريد والأمالي ومجمع الأمثال وغيرها. وكان الاهتمام بالناحيتين الأدبية والخلقية أكثر عند العرب إلى جانب النواحي الأخرى المتعلقة بالقيم السامية في الحياة كالشجاعة والكرم والشهامة والمروءة إلخ.

ومن وسائلهم لنشر قيمهم وأفكارهم: المؤتمرات الموسمية في أسواقهم المعروفة كسوق عكاظ وذي المجاز ومجنة، حيث كانت تلك الأسواق الأدبية معاهد لتبادل الأفكار والأشعار وتبادل الخبرات في عالم التجارة والاقتصاد ونشر المثل والقيم..

التطور المنهجي للتربية الإسلامية:

جاء الإسلام وعدد من يقرؤون ويكتبون من قريش يعدّون بالأسماء، منهم: عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، من الراشدين، وقلة من النساء منهن حفصة وأم كلثوم وعائشة التي كانت تقرأ المصحف ولا تكتب، وكذلك أم سلمة، ومنهن الشفاء بنت عبدالله العدوية معلمة حفصة. أما في المدينة فلم يزد عددهم من الأوس والخزرج على أحد عشر رجلاً، وكان بعض اليهود يقومون بتعليم صبيان يثرب بعد أن تعلموا العربية، ولقلة الرجال الذين يكتبون آنذاك كان لقب (الكامل)

يطلق على من تعلم الكتابة والرماية والعوم، فلقب بذلك سعد بن عبادة سيد الخزرج وأسيد بن حضير وعبدالله بن أبيّ، وكان ممن كتبوا للرسول ﷺ في المدينة أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت وعبدالله بن سعد بن أبي سرح وعثمان بن عفان وشرحبيل بن حسنة وأبان بن سعيد والعلاء الحضرمي ومعاوية. ولم يكن تشجيع الرسول ﷺ قاصراً على تعليمهم القراءة والكتابة لصبيان المدينة كما حدث مع أسرى بدر، بل طلب من زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود لأنه لا يأمنهم على القرآن فعرف كتابتهم، كما طلب منه أن يتعلم السريانية قائلاً له: إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا عليّ أن أو ينقصوا فتعلمها في مدة وجيزة..

ولعلنا نستطيع أن نقول بنوع من التجاوز. إن أول مدرسة في تاريخ الإسلام هي تلك المدرسة التي كانت في دار الأرقم بن أبي الأرقم في مكة، حيث ربى فيها الرسول ﷺ أصحابه تربية لم تتوفر في تاريخ البشرية، بالرغم من أن الرسول ﷺ قد ترك بعده المصدرين الأساسيين للدعوة والتربية، وهما القرآن الكريم وسنته زيادة على سيرته العطرة. فالرسول ﷺ كان المعلم الأول الذي أرسله الله إلى البشرية ليعلمها الكتاب والحكمة ويزكيها. وكان عليه الصلاة والسلام المطبق الأول لتعاليم السماء والمنهج الإلٓهي سائراً على الأرض، فقد وصفته أم المؤمنين بأنه كان خلقه القرآن وكان القدوة الحسنة لأصحابه يعلمهم بالموعظة الحسنة والتجربة الفعلية والتوجيه النافع وقت الشدائد والمحن، ولمعرفته لأهمية المعلم والتعليم والتربية والدعوة إلى الله.

وهاجر الرسول ﷺ إلى يثرب فكان مسجده ﷺ جامعة المسلمين الكبرى ومركز الدعوة إلى الله، فيها يتعبد الناس وفيها يبلغ الرسول عن الله، وفيها ينزل التشريع منظماً للمجتمع الجديد، وفيها يقابل السفراء والوفود، ومنها تخرج الجيوش حاملة لواء الدعوة، وإليها تتجه أنظار القبائل

والدول والأمم. وكان القرآن والقـرآن وحده هو منهج تلك الدراسة وهدفها ووسيلتها وغايتها، وكان نتاج ذلك المنهج ذلك الجيل القرآني جيـل الصحابـة المميز في تاريخ الإسلام كله والبشرية جمعاء، ذلك الجيل الذي ربّاه الرسول ﷺ على كتاب الله لتخلص نفوسهم له وحده ويستقيم عودهم على منهجه وحده، جيل خالص القلب والعقل والتصور والشعور والتكوين، المجرد من كل المؤثرات غير منهج الله الممثل في القرآن.

أما وسيلته إلى ذلك فقد كان القرآن وحده باعتباره النبع الذي يسقون منه ويتكيفون به ويتخرجون عليه، مع وجود المؤثرات من حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما زال في أوروبا، ومن حضارة الإغريق ومنطقهم وفلسفتهم وفنهم الذي ما زال نبع الغرب، ومن حضارة الفرس وفنها وشعرها وأساطيرها وعقائدها ونظم حكمها وحضارات أخرى، وكان للرسول ﷺ في اتخاذ ذلك المصدر وحده منهج مقصود وتصميم مرسوم كان نتاجه ذلك الجيل الفريـد الذي ذكـرنا أوصـافه[1]، والـذي رباه الرسول ﷺ تربية دقيقة عميقة، ولـم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكي جمرة قلوبهم، ولـم تزل مجالس الرسول ﷺ تزيدهم رسوخاً في الدين وعزوفاً عن الشهوات، وتفانياً في سبيل مرضاة الله، وحنيناً إلى الجنة، وحرصاً على العلم، وفقهاً في الدين، ومحاسبة للنفس، يطيعون الرسول في المنشط والمكره، وينفرون في سبيل الله خفافاً وثقالاً، قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعاً وعشرين مرة في عشر سنين، وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائة مرة، فهان عليهم التخلي عن الدنيا وهانت عليهم رزيئة أولادهم ونسائهم في نفوسهم، ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه ولم يتعودوه. وبكل ما يشق على النفس إتيانه في المال والنفس والولد والعشيرة فتنشطوا وخفوا لامتثال أمرها[2].

---

(١) راجع سيد قطب معالم في الطريق ص ١١ ـ ١٤.

(٢) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٩٨.

وهذا الجيل الذي رباه الرسول ﷺ حتى إذا تيقن من ثمرة تربيته ونجاح غرسه لحقَ الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى، وقد أدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الظلمة وأضاء الأرض بنور الله وهديه. وقد اقتضى الفتح الإسلامي وامتداده ـ زيادة على طبيعة هذا الدين الجديد ـ أن يتعلم المسلمون القراءة والكتابة وأن تتسع حركة محو الأمية بينهم. وقد ساعدت عدة عوامل على انتشار القراءة والكتابة وازدهار الحركة العلمية، أهمها اختلاط العرب بغيرهم مما جعل التعليم أمراً لازماً لمواجهة الحياة الجديدة والحضارة الموعودة، ومنها أن الإسلام قد جاء بدعوة تدعو إلى إعمال العقل والتفكير في ملكوت الله وخلق الإنسان ليصل بذلك إلى الإيمان بالله وقدرته وإبداعه ووحدانيته، وتدرج في هذا الخطاب بما يناسب عقلية العرب وتصوراتهم والمحسات المتعلقة بحياتهم ﴿ أفَلا يَنظرونَ إلى الإبلِ كيفَ خُلِقَتْ وإلى السماءِ كيفَ رُفِعَتْ وإلى الجبالِ كيفَ نُصِبَتْ وإلى الأرضِ كيفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠] ﴿ فَلْينظرِ الإنسانُ إلى طعامِه أنا صَبَبْنا الماءَ صَبّاً ثمَّ شَقَقْنا الأرضَ شَقّاً فَأَنْبَتْنا فيها حَبّاً وَعِنَباً وقَضْباً وزَيْتوناً وَنَخْلاً وحدائقَ غُلْباً وفاكهةً وأبّاً مَتَاعاً لكم ولأنعامِكم ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

فكانت هذه الآيات ومثيلاتها في القرآن بواعث على إعمال العقل والنظر في الكون والتأمل فيه، مما وجه إلى أهمية التعليم كوسيلة إلى المعرفة، وارتفع المستوى العقلي في ذلك المجتمع وزادت الثقافة والمعرفة من القرآن مما زاد في نفوسهم حب العلم والتطلع إليه.

يقول ابن سعد في طبقاته عن مسروق من التابعين (شاممت أصحاب رسول الله فوجدت علمهم انتهى إلى ستة، إلى عمر وعلي وعبدالله ومعاذ وأبي الدرداء وزيد بن ثابت) وهؤلاء يمثلون بعض رجال الطبقة الأولى في العلم، ومع ذلك نجد بين أصحاب رسول الله ﷺ نوعاً من التخصص في العلوم فعبدالله بن عمر كان من أوثق رواة الحديث وأكثرهم دقةً وتحرياً

لألفاظ الرسول ﷺ، بينما لم يكن والده على قرب صلته من الرسول ﷺ كذلك، إذ كان ثاقب الفكر بعيد النظر في المشكلات الكبيرة خاصة في عهد الرسول ﷺ وأيام خلافته. أما عبدالله بن عباس فكان رجلاً متعدد المعارف واسع الثقافة فهو مفسِّر ومحدِّث وعالم بأشعار العرب وأيامها والأنساب والفرائض والمغازي كما كان مطلعاً على التوارة والإنجيل، أما علي بن أبي طالب فقد عرف بالحكم والأشعار والخطب والأدعية ورواية الحديث وحسن القضاء وأسباب النزول.

ولأن الرسول ﷺ كان يعلم أهمية العلم والتعليم في تغيير سلوك القبائل المعتنقة للإسلام، فقد كان يرسل من يعلمهم، فقد أرسل إلى اليمن والبحرين ومكة بعد فتحها والمدينة قبل الهجرة وتبعه في ذلك خلفاؤه، وكان لانتشار الصحابة في الأمصار الإسلامية أكبر الأثر في ازدهار الحركة العلمية وتكوين مدارس بها وتخريج جماعات نبغت علمياً من التابعين من أمثال سعيد بن المسيب وشريح وعلقمة ومسروق.

ولم يقتصر الأمر على العرب بل نبغ كثير من الموالي وأبنائهم ممن وحّد الإسلام بينهم وبين العرب، من أمثال نافع مولى عبدالله بن عمر وراوي أحاديثه، وسليمان بن يسار الذي كان والده مولى لميمونة أم المؤمنين، وربيعة الرأي شيخ الإمام مالك. أما في مكة فعكرمة مولى عبدالله بن عباس وراوي أحاديثه، ومجاهد بن جبير مولى بني مخزوم، وعطاء بن رباح مولى بني فهر وغيرهم كثير.

وعرف في مصر يزيد بن حبيب مولى الأزد وأستاذ الليث بن سعد وكان مفتي أهل مصر وهو من شمالي السودان من (دنقلا)، وفي الشام مكحول بن عبدالله أستاذ الأوزاعي، وفي الكوفة سعيد بن جبير، وفي البصرة محمد بن سيرين والتي كانت أمه مولاة أبي بكر، والحسن بن يسار مولى زيد بن ثابت.

أما من كانوا من أبوين أحدهما عربي والآخر عجمي فكثيرون منهم:

القاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (زين العابدين) وغيرهم كثير.

والمعروف أن التعليم كان يمارس في عهد الخلفاء في المساجد، فقد أرسل عمر بن الخطاب لأهل البصرة من يفقههم كما كان يفعل الرسول ﷺ، وأثر عنه قوله: «علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن الشعر»[1].

وكان التعليم في عهد الخلفاء وقفاً على القرّاء من حملة القرآن لانشغال الصحابة بأمر الدعوة وإرساء قواعد الدولة الجديدة، وفي ذلك يقول ابن خلدون: (ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبي ﷺ، أو ممن سمعه منهم ومن عليتهم وكانوا يسمّون لذلك القراء، أي الذين يقرؤون الكتاب، لأن العرب كانوا أمة أميّة، فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ، وبقي الأمر كذلك صدر الملة ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمّيّة من العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعةً وعلماً فبُدّلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء)[2].

وقول سيدنا عمر السابق يدل على أن التعليم المنظم لم يكن موجوداً في صدر الإسلام، وأن الآباء هم الذين كانوا يقومون بواجب التعليم زيادة على ما كان يتعلمه البعض في حلقات المساجد، حيث يجلس الأستاذ وحوله الطلاب يتلقون عنه. فقد روي أن عبدالله بن عباس كان يجلس بفناء الكعبة والناس يسألونه عن تفسير القرآن، وكان ربيعة الرأي يجلس في مسجد رسول الله ﷺ ويأتيه مالك والحسن وأشراف أهل المدينة

(١) البيان والتبين ـ الجاحظ ص ٩٢ ج ٢.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٦ م ١ ط دار البيان.

يحدقون به وحلقته وافرة، وكذلك كان مجلس الحسن البصري في مسجد البصرة، وقد يكون في المسجد الواحد عدة حلقات، ولم يكن التعليم وقفاً على العلوم الدينية بل كانوا يعلمون في المساجد الكيمياء والزجر والفأل[1]. ولا تجد سنداً على أن المسلمين قد أنشؤوا مدارس خاصة للتعليم إلى العهد الأموي، إنما اقتصر على المساجد والبيوت. وتذكر الروايات أن تعليم الصبيان في المساجد لم يكن مرغوباً فيه، وربما كانت الكتاتيب قرب المساجد أو ملحقة بها، ثم كان محور التعليم في هذه المدارس القرآن ثم الأحاديث والأخبار وبعض الأحكام الفقهية والشعر.

وكان الاهتمام بالقرآن كما يقول ابن خلدون لأنه شعار الدين، وأصبح القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات. وقد اختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان واختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات، فأما أهل المغرب فيقتصرون على تعليم القرآن فقط لا يخلطون ذلك بالحديث أو الفقه أو الشعر، أما أهل الأندلس فيعلمون القرآن ورواية الشعر وتجويد الخط، وأما أهل إفريقية فيعلمون القرآن والحديث وقوانين العلوم، وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم مع العناية بالقرآن وإفراد الخط بمعلميه[2].

ومما سبق يتضح لنا أن التعليم اقتصر في عهد الخلفاء على تعليم القرآن، ثم دعت دواعي حفظ اللغة مع انتشار الصحابة ومن دخلوا في الإسلام إلى الاهتمام باللغة ودراستها خوفاً من ظهور اللحن في القرآن الكريم، فكان اهتمام أبي الأسود الدؤلي بقواعد اللغة أخذاً عن سيدنا علي أو بتوجيه منه، وفي العهد الأموي توسعت الدائرة إلى الاهتمام بالشعر والأدب والتاريخ والقصص، فقد روي عن معاوية أنه كان يسهر الليل في سماع أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها، وكان نتاج هذا الاهتمام

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام ص ١٦٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون.

بالتاريخ: ظهور كتب السير والمغازي من جمع الأحاديث المتعلقة بهما، كما انتشرت القصص التي بدأت في نهاية عهد عمر أو عهد عثمان، وكان القاصّ يجلس في المسجد فيذكر الله ثم يسرد قصصاً عن الأمم الأخرى تقوم كلها على الترغيب والترهيب.

ثم ظهرت العناية بعلم الحديث في عهد سيدنا عمر بن عبد العزيز مما جعل الحديث يحتل مكانة كبيرة في المنهج الدراسي، ولم تكن تلك بداية الاهتمام بعلم الحديث وتدوينه كما يرى البعض، وإنما كانت بداية احتلال الحديث لمكانته في المنهج التربوي الإسلامي، فقد بدأت العناية بعلم الحديث منذ عهد الرسول ﷺ.

وعلى هذا نستطيع أن نقول: إن المنهج التربوي التعليمي الإسلامي في صدر الإسلام كان يركز على ثلاث مواد رئيسة هي:

١ ـ القرآن الكريم الذي توفي الرسول ﷺ وهو في صحف مفرقة كتبها كتاب الوحي، ثم تولى زيد بن ثابت جمعه من الصحف وصدور الرجال في عهد أبي بكر، ثم جمع سيدنا عثمان لجنة من الصحابة برئاسة زيد بن ثابت جمعت القرآن في مصحف واحد نسخت منه نسخاً أُرسلت إلى الأقطار الإسلامية.

ولأن العرب لم يكونوا يفهمون القرآن في جملته وتفصيله كلهم؛ فكانت الحاجة إلى العناية بالقرآن حفظاً وتفسيراً، واشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة منهم علي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس وابن مسعود وأبيّ بن كعب في المرتبة الأولى، ويليهم زيد بن ثابت وابن الزبير وأبو موسى الأشعري، وكان لهؤلاء المفسرين رواة من التابعين من أمثال عكرمة ومجاهد وابن أبي رباح ممن رووا عن عبدالله بن عباس. ولم يتعد التفسير آنذاك الاقتصار على المعاني اللغوية، أما استنباط الأحكام فقد ارتبط بالحركة الفقهية وظهور المذاهب الدينية.

٢ ـ أما مادة الحديث: فكانت العناية به كما قلنا منذ عهد الرسول ﷺ إلا أن تدوينه لم يكن يدوّن منه إلا القليل، وكان أغلبه في صدور الرجال، مما جعل علم الحديث يتعرض إلى كثير من الوضع. وأشهر من روى عن رسول الله ﷺ وأكثرهم: أبو هريرة وعائشة وابن عمر وابن عباس وجابر وأنس بن مالك، ولكن الحديث بصورته التي وصلت إلينا لم يدون في القرن الأول، وقد فكر سيدنا عمر بن الخطاب في تدوينه إلا أنه لم يفعل، حتى جاء سيدنا عمر بن عبد العزيز فكتب إلى عماله يطلب جمع حديث رسول الله ﷺ. ويذكر البخاري أن أول من جمع الأحاديث: الربيع بن صبيح وسعيد بن أبي عروبة، كما صنّف فيه مالكٌ «الموطَّأ» بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وسفيان الثوري بالكوفة، وغيرهم ممن صنّفوا في الحديث.

٣ ـ أما اللغة فقد أدت الفتوحات الإسلامية إلى انتشار اللغة العربية في البلاد التي دخل أهلها الإسلام، وأدت العوامل التي نتجت من اختلاط العرب بغيرهم إلى ظهور اللحن في اللغة، والحاجة إلى علم يضبط قواعد اللغة ويحفظها ويتعلمه الناس (وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغةً في جميع أمصارهم ومدنهم، وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة، ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير أواخره، وإن كان بقي في الدلالات على أصله وسمي لساناً حضرياً في جميع أمصار الإسلام)[1].

وقد ذكرنا أن المساجد كانت أمكنة للتعليم كما هي للعبادة والقضاء والتخطيط للحرب ونشر الدعوة، واستمر الحال على ذلك في القرن الثاني للهجرة أيضاً. واشتهر من المساجد إلى جانب الحرمين الشريفين: جامع المنصور في بغداد، وجامع دمشق الذي بناه الوليد بن عبد الملك، وجامع

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٩.

عمرو بن العاص في مصر والذي بني عام ٢١ هـ.

ولم تقتصر الدراسة فيها على العلوم الدينية بل شملت العلوم اللغوية والأدبية، أما الكتاتيب ـ والكلمة مأخوذة من التكتيب وتعليم الكتابة ـ فقد اقتصرت على تعليم الكتابة والقراءة ولم تظهر في العهد االأول للإسلام، فقد كان التعليم من واجب الآباء والمعلمين الخصوصيين، ووصية سيدنا عمر تدل على ذلك، ولم يشجع المسلمون تعليم الصبيان في المساجد لأن الصبيان لا يحافظون على حرمة المسجد ونظافته، ومع ذلك فقد كانت الحلقات الدراسية تعقد في أركان المساجد.

وقد وضعوا أسساً للتعلم أهمها ما نسميه بالمفهوم الحديث: استمرارية التعليم والحض على طلبه والاستزادة منه، ومن ذلك ما رواه سعيد بن المسيب عن عبدالله بن عباس أن الرسول ﷺ قال: «من جاء أجله وهو يطلب علماً ليحيي به الإسلام لم تفضله النبيون إلا بدرجة»[1] وسئل عمرو بن العلاء: حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فأجاب: ما دام تحسن به الحياة. ومما يدل على أن التعليم الأولي كان في الكتّاب ثم ينتقل الطالب إلى المسجد ما روي عن الشافعي قال: (كنت يتيماً في حجر أمي فدفعتني في الكتّاب ولم يكن عندها ما تعطي المعلم، فكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء)[2] وقد فرقوا بين العلم والتعلم باعتبار التعلم (نشاطاً عقلياً يمارس فيه الإنسان نوعاً معيناً من الخبرة الجديدة التي لم يسبق أن مرت في خبرته السابقة)[3]. وإن التعلم عملية لا تلاحظ مباشرة في المتعلم، إنما يستدل عليها من آثارها ونتائجها في شخص المتعلم وسلوكه وأفكاره ولذلك كانوا يقولون: إنما العلم بالتعلم. وكانوا

---

(١) القرطبي: جامع بيان العلم وفضله ص ١٢٦.
(٢) المصدر السابق ص ١٣٠.
(٣) د. أحمد زكي علم النفس التربوي ص ٣٤٥.

يرون التنوع والمرتبة والتدرج في طلب العلم، فقد روي عن ابن خالد الوالي قوله: كنا نجالس أصحاب النبي ﷺ فيتناشدون الأشعار ويتذاكرون أيامهم في الجاهلية[1]. وروي عن يونس بن يزيد قوله عن ابن شهاب (يا يونس لا تكابر العلم فإن العلم أودية، ولا تأخذ العلم جملة فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي)[2]. وقد اتخذوا أساليب مختلفة في التعليم ومراعاة الفروق الفردية والجوانب النفسية في التعليم.

أما في العصر الأموي فقد تطور المنهج التربوي لعوامل عدة:

أولاً: اهتمام الخلفاء بالنواحي العلمية فقد عرف عن معاوية استدعاؤه في مجلسه للأدباء والعلماء ليقرؤوا له تاريخ العرب وأيامهم وتاريخ الفرس والروم وحكامهم ونظم إدارتهم.

ثانياً: استمرار الاهتمام بالعلوم الدينية وتفرق الصحابة في الأمصار، حيث كونوا مدارس وتلاميذ ينقلون العلم عنهم من جيل التابعين وتابعيهم.

ثالثاً: دخول عنصر الموالي في الحياة العلمية بعد دخولهم الإسلام وجهودهم الفعالة في تطور المنهج التربوي الإسلامي.

رابعاً: ظهور المدارس المختلفة في علوم الحديث والفقه واللغة في المدينة المنورة والكوفة والبصرة ومصر، وكان من أبرز علماء مدرسة الحديث والفقه: محمد الباقر وابنه جعفر الصادق وسفيان الثوري ومالك، كما ظهر في العراق مدرسة أبي حنيفة، وعرفت مدرسة العراق بالرأي وإعمال القياس في القرنين الأول والثاني، وكثير من التابعين ينتمون إليها ومنهم الحسن البصري، ولم تكن المذاهب الأربعة قد تكونت في القرن الأول، ولكن ولد إمامان من الأربعة في أواخر الدولة الأموية وهما: الإمام

---

(١) القرطبي جامع بيان العلم ص ١٣٩.
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٨.

أبو حنيفة الذي ولد عام ٨٠ هـ، ومالك الذي ولد عام ٩٦ هـ، وامتاز مذهبه باعتماده على الحديث وعمل أهل المدينة.

أما اللغة والنحو فقد ظهرت عدة مدارس أشهرها مدرستا البصرة والكوفة، وقد اشتهر من الأولى: عيسى بن عمر الثقفي أستاذ الخليل بن أحمد وسيبويه ويونس بن حبيب والأصمعي وغيرهم. أما الثانية فعلى رأسها: الكسائي والفراء وغيرهم.

وقد تطور منهج التعليم في هذا العصر من حيث المحتوى، فشمل إلى جانب القرآن والحديث والفقه واللغة؛ العلوم الطبيعية والرياضية، وقد صاحب التطور في المنهج تطور في مفاهيم التعليم وطرق التعلم وأساليبه، وكان من نتائج ذلك كله أن بدأت النظريات التربوية تتبلور وتتضح، والمدارس التربوية تتميز، وساعد على ذلك: التطور الكبير في ميادين العلوم المختلفة، وانتعاش الحركة العلمية بظهور رجال نبغوا في ميادين المعرفة المختلفة من أمثال: الطبري في التاريخ والتفسير، والجاحظ والمبرد والزجاج في اللغة، وفي ذلك يقول الكاتب الأميركي (دريبز) في كتابه (النزاع بين العلم والدين) نقلاً عن جيبون (كان أمراء المسلمين في الأقاليم ينافسون الملوك ويناظرونهم في رعاية العلم والعلماء، وكان من نتيجة تنشيطهم وتشجيعهم للعلماء أن انتشر الذوق العلمي في المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة، ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتي ألف دينار لتأسيس كلية علمية في بغداد، ووقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنوياً، وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف لا فرق بينهم بين غني وفقير، فكان فيها ابن السيد العظيم وابن الصانع الفقير على السواء، وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤونة دفع أجر التعليم، ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة، وكانت المؤلفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سداً لحاجة أهل العلم ورغبة الأغنياء في جمع الكتب)[1].

---

(١) عطية الأبراشي: التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ٦٥.

وقد صحب تطورَ المفاهيم التربوية ظهورُ المدارس التربوية لمدرسة الحديث والفقه وعلم الأصول والكلام والتصوف وغيرها، وقد تحددت المفاهيم أول الأمر بالالتزام بنصوص الكتاب والسنة وما كان عليه الصحابة، أما في القرن الرابع الهجري فقد حدث الاختلاف في الرأي بين الفقهاء والمحدِّثين، في حين رأى المحدثون الاكتفاء بالنظر في تراث عصر النبوة والصحابة؛ بينما رأى الفقهاء اعتماد ما تركه الأئمة في مجال الفقه واتباع منهجهم في البحث والدراسة، إذ أن المحدِّثين اعتبروا التمسك بتراث الأئمة تقليداً وتحرجوا من اتباعهم، كما استنكروا ظهور المذاهب واشتغال المؤرخين بالتاريخ دون الحديث، كما اختلفوا في طرق البحث والتحصيل العلمي، فبينما يشترط المحدِّثون الرحلة والإسناد، لم يشترط ذلك جماعة من الفقهاء، زيادة على اعتبارهم أن جهود الفقهاء قامت على جهود المحدِّثين. وهذه الانتقادات أثرت في مفاهيم الفقهاء الذين استنكروا التقليد مع المحدِّثين وأباحوه للعامة لأنهم لا بد من أن يقلدوا علماءهم، وكان من نتائج ظهور هذه المدارس ظهور رجال اتضحت مفاهيمهم التربوية وتبلورت نظريات التربية الإسلامية فيما كتبوا، وسنعرض لجهودهم وإضافاتهم وآرائهم عندما نتحدث عن جهود رجال التربية الإسلامية.

أما القرن الخامس فقد تبلورت نظريته في التربية على يد علماء الأشاعرة ـ الماوردي والخطيب البغدادي وأبي حامد الغزالي ـ وساعدهم على ذلك ظهور التقليد ومعارضة الاجتهاد واتهام من يعمل عقله بالميل للمبتدعة ومشايعة الاعتزال، وكان الحنابلة على رأس هذا الاتجاه المتحرج ومعهم عدد من رجال الفقه والحديث. وقد أدى هذا الاتجاه إلى انحسار التخصصات في أطرها المذهبية والتراجع عن بعض المبادىء التربوية مثل الاستعدادات والميول للمتعلمين، كما أصاب الضعف محتوى المنهاج وأساليب التربية والتعليم التي كانت سائدة مثل طرق الأسئلة والإملاء وطريقة السماع، كما تأثرت علاقات المذاهب الفكرية إذ حلّ التعصب

مكان التسامح وأوقع كل فريق بالآخر، فاضطُهد العلماء وحدثت الفتن، وظهر خطر الإسماعيليين الذين أنشؤوا الجامع الأزهر ليكون مركزاً لنشر الدعوة الشيعية، إلا أن السلاجقة قد تحالفوا مع مذاهب السنة في مواجهة الخطر الإسماعيلي في ميدان العقيدة والفكـر، وأن يختاروا من هـذه المذاهب من يستطيع قيادة المعركة الفكرية والإشراف على مؤسسات التعليم، ولم يكن هناك من يفوق الأشاعرة في تلك المهمة. والواقع أن استيلاء السلاجقة على السلطة في بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري قد كان بداية لانتصار أهل السنة على الشيعة، واتخذوا العلم وسيلة لمحاربة أفكار التشيع إذ أن الناس إذا تعلموا الدين الحقيقي فرقوا بين الحق والباطل وحرروا عقولهم من أوهام المضلين فأنشأ (نظام الملك) مدرسة عرفت (بالمدرسة النظامية) وكانت نقطة الانطلاق في الاتجاه لبناء مثل هذه المدرسة حتى عند من جاؤوا بعد السلاجقة، فقد أنشأ (نور الدين زنكي) أول مدرسة في دمشق، كما أن الأيوبيين وضعوا حدّاً للحكم الشيعي في مصر وأعادوا مصر إلى السنّة، وأنشؤوا المدارس التي أشاعت السنّة، واستمر إنشاء المدارس بعد سقوط الأيوبيين وقيام المماليك بحكم مصر.

وفي القرن الخامس ظهر ثلاثة من العلماء كانوا قمماً في مضمار التربية الإسلامية وتحديد أصولها وأهدافها ووسائلها منهم علي بن محمد الماوردي (٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ)، وأحمد بن علي الخطيب البغدادي (٣٩٢ ـ ٣٦٣ هـ)، وأبو حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) وقد حددوا هدف التربية بأنها إعداد الإنسان للحياة الدنيا والآخرة وتربية العقول، إذ أن الهدف من طلب العلوم عند الغزالي هو التقرب إلى الله دون الرياسة والمباهـاة والمنافسة.

أما من الناحية المنهجية فتأتي العلوم الدينية في مقدمة المنهج ثم العلوم المهنية، ولا بد للمتعلم من التزود بثقافة كاملة واطلاع على كل

العلوم، ثم التخصص. وقد قسم الغزالي العلوم إلى علوم محمودة ومذمومة ولكل منهما أقسام وأحكام. وسنتحدث بالتفصيل عن ذلك كله عندما نتحدث عن جهود هؤلاء العلماء وإسهاماتهم في ميدان التربية.

وإذا استعرضنا أهم الأمكنة التي قامت بمهمة التربية والتعليم في القرنين الثالث والرابع نجد:

١ ـ الجامع الأموي بدمشق والذي بناه الوليد بن عبد الملك، وكانت حلقات الدرس فيه مختلفة، إذ كان للمالكية فيه زاوية وكذلك للشافعية، وكان للخطيب البغدادي حلقة يجتمع الناس إليه ليقرأ لهم دروساً في الحديث، ولم يقتصر المنهج فيه على العلوم الدينية بل شمل العلوم اللغوية والأدب والحساب والفلك، والطلاب يفدون من كل مكان.

٢ ـ جامع المنصور في بغداد والذي بناه أبو جعفر المنصور، وكان الكسائي يجلس فيه لتدريس علوم اللغة.

٣ ـ الجامع الأزهر الذي أنشأه جوهر الصقلي واكتمل بناؤه ٣٦١ هـ. وأصبح منارة للطلاب من البلاد الإسلامية كلها حيث يدرسون علوم القرآن والسنة.

٤ ـ المدرسة النظامية في بغداد فقد تم بناؤها ٤٥٩ هـ. وهي تنسب إلى منشئها الوزير العالم الفقيه نظام الملك الذي أنشأ غيرها من المدارس في كل البلاد، وقد درس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي.

٥ ـ المدرسة النورية الكبرى بدمشق فقد قال عنها ابن جبير (تبعد تلك المدرسة عن الجامع الأموي بدمشق بنصف ميل تقريباً ومساحتها ١٥٠٠ متر مربع بالتقريب. وبها بيت خاص لمدرسي المدرسة، وأهم مكان بها: قاعة للمحاضرات، وهي قاعة كبيرة تسع عدداً كبيراً من الطلاب، وبالمدرسة مسجد مفتوح لمن يرغب في العبادة، وهناك

استراحة للمدرسين ومساكن للطلبة المقيمين بالقسم الداخلي، ومسكن لخادم المدرسة ودورة للمياه ومخزن للأدوات الزائدة بالمدرسة).

ونلاحظ أن محتوى التعليم لم يكن متبايناً بين التعليم في المساجد والمدارس، إلا أن المساجد هي أماكن للعبادة، ثم التعليم وأمور الناس. بينما المدارس أعدت أساساً للدراسة وإقامة الطلاب المتغربين وألحقت بها أماكن للصلاة.

أما في القرنين السادس والسابع الهجريين فقد تجمد مفهوم النظرية التربوية وضعف أمام تلبية حاجات المجتمع، وذلك لأسباب عدة أهمها: انتشار التعصب المذهبي بين المذاهب والجماعات والفتن والخصومة. وقد ذكر ابن جبير أن أصحاب كل مذهب كانوا يؤدون صلاتهم منفردين في المسجد الحرام، وكلّ يحرم للحج من مكان يختلف عن الآخرين، وأدى التعصب إلى ظهور مدارس خاصة بالشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة، وانحصر المنهج فيما يتعصب المذهب إليه. ثم سيطرت الدولة على التعليم لضعف العلماء وذهاب مكانتهم القديمة، واستغلت سلطات الدولة توجيه التعليم لتثبيت أنظمتها وتكريس الولاء لها، وتعيين المشايخ والمدرسين حسب ولائهم، والتخطيط للمناهج التي تدرَّس وأنواع الكتب[١]، وحدث الانفصال بين العلوم الدينية والطبيعية.

أما في القرون التالية للقرن الثامن (فلم تتمكن نظرية التربية الإسلامية أن تتحرر من الركود الذي أصابها في الفترة السابقة، فأخذت ابتداءً من القرن الثامن الهجري في الجمود الذي استمر حتى مطلع القرن الحالي، فلم تعد تتفاعل مع حاجات المجتمع وظروف التطور، وانحسر مفهوم النظرية التربوية ليتخلص من قدرة الخلف على تزويد معارف السلف أو شرحها أو تلخيصها)[٢]. ثم انحسر لذلك المنهج الذي اقتصر على العلوم الدينية وحدها والاكتفاء باختصار كتب السلف وشرحها وتدريسها.

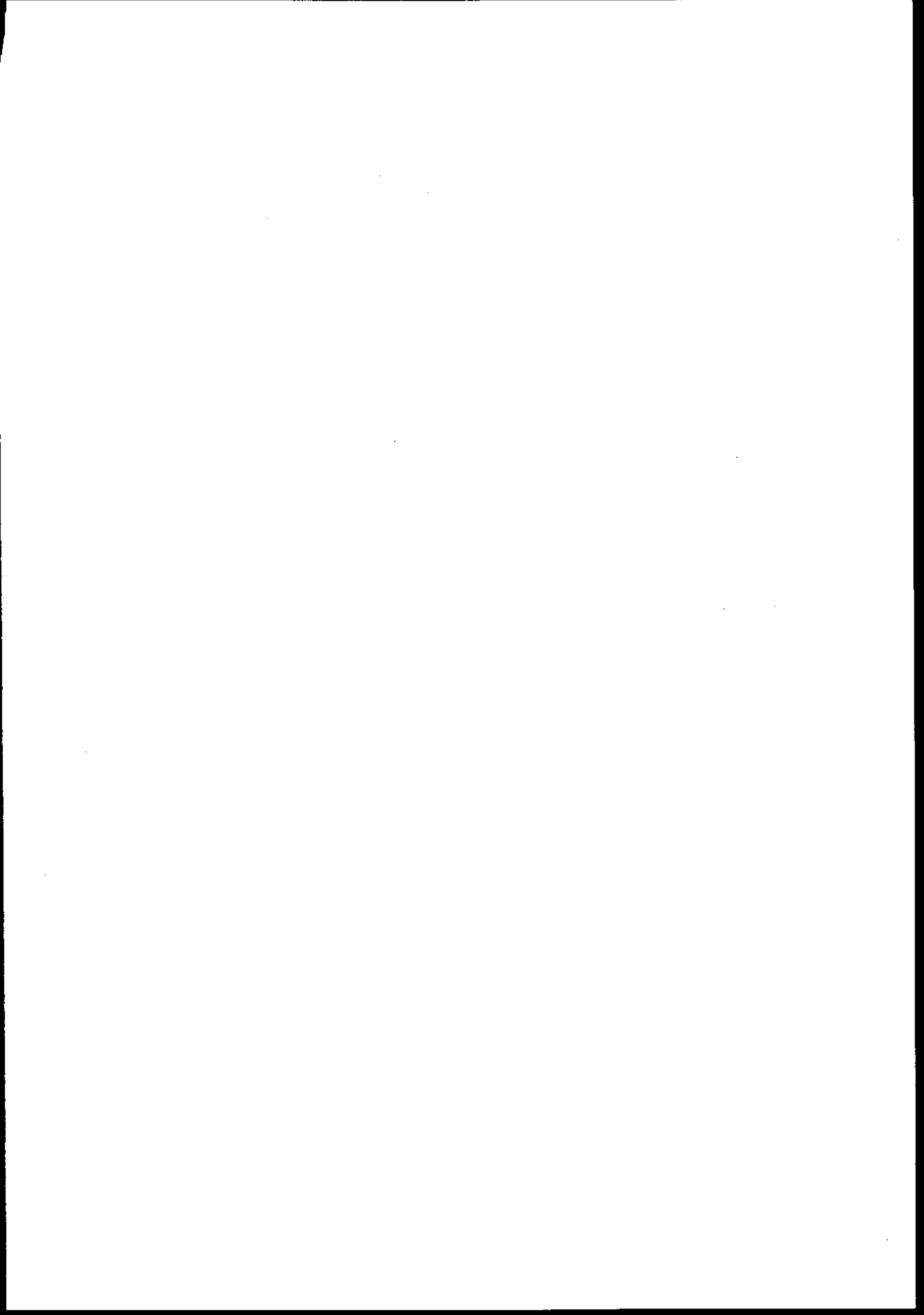
(١) راجع تطور مفهوم النظرية التربوية ص ١٧٥ وما بعده.

(٢) ماجد عرسان: تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ص ٢٠٩.

الفصل الثالث

مرتكزات التَّربية في الإسلام

١ ـ مرتكز العقيدة والإيمان.
٢ ـ مرتكز الإنسانيَّة والفطرة.
٣ ـ مرتكز العلم.
٤ ـ مرتكز المسؤوليَّة والجزاء.



مرتكزات التربية الإسلامية

إننا نستمد بطبيعة انتمائنا الإسلامي مرتكزات وأسس التربية الإسلامية من المصدرين الأساسيين للعلوم الإسلامية كلها وهما: الكتاب والسنّة. لأن أصول التربية الإسلامية ومرتكزاتها وأهدافها موضحة ومفسرة في هذين المصدرين الأساسيين، أما النظريات التربوية الإسلامية فهي وإن كانت مستمدة من الكتاب والسنّة إلا أنها في مجملها تمثل آراء علماء المسلمين ومفكريهم خلال تاريخ الإسلام الطويل، وهذه النظريات تختلف عن الأسس والأهداف في أنها تمثل آراء البشر القابلة للتطور والتعديل والزيادة والنقصان والنجاح والإخفاق، وقد اجتهد علماء المسلمين في آرائهم التربوية داخل إطار الإسلام وبثوا آراءهم التي تمثل النظرية التربوية في الإسلام من خلال كتب الفقه والحديث والأدب والتصوف وعلم الكلام والأخلاق.

وارتبطت التربية الإسلامية بفلسفة الإسلام ونظرته إلى الإنسان والكون، لأن اتصال التربية بالفلسفة وثيق، فإذا كانت الفلسفة تعمل لبناء المجتمع وتكوينه فإن وسيلتها لذلك هي التربية القائمة على نظرة الفلسفة للإنسان والكون، فالنظرية التربوية منبثقة من الفلسفة التي استمدت منها، والتربية هي أداة الفلسفة لبناء الأفراد والمجتمعات ونقلها من مرحلة النظرية إلى مرحلة التطبيق، ومن هنا فإن التفرقة بين الأصول والأهداف والنظرية

التربوية الإسلامية أمر مهم وضروري بالنسبة لدراسة مرتكزات التربية الإسلامية.

تقوم التربية الإسلامية على ركائز تمثل الأساس بالنسبة لها وهذه المرتكزات هي:

أولاً: مرتكز العقيدة الإسلامية

تمثل العقيدة المرتكز الأساسي للتربية الإسلامية إذ أن الإيمان بالله هو الموجه لسلوك الإنسان والدافع له إلى اتجاه الخير والنصير له من حيث العناية والرعاية والتوفيق، كما أنه الذي يصرفه عن طريق الشر ويجعله متحلياً بالفضائل وحسن الخلق. ونقصد بالإيمان أركان الإيمان التي في حديث أبي هريرة:

«قال ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: والإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

ولأن هذا الإيمان هو الموجه للسلوك والضابط له والمتصل اتصالاً وثيقاً بالأعمال الصادرة من الإنسان فإن التربية الإسلامية تربط دائماً بين العمل والسلوك، ثم بين العمل الصادر من هذا الإيمان وبين الجزاء قال تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ كانَتْ لهم جناتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]. ويقول: ﴿والعصرِ إنّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ، إلا الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ، وتَوَاصَوْا بالحَقِّ وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ﴾ والقرآن مليء بالآيات التي تقرن الإيمان بالعمل، فالإيمان الحق هو الإيمان الذي

(١) فتح الباري ص ١١٤ كتاب الإيمان ج ١.

يصدر عنه السلوك وينبع منه العمل الصالح ويخرج منه الخلق الكريم، فحسن الخلق والإخاء والمودة واجتناب الكبائر والتمسك بالفضائل يجب أن تصدر كلها عن هذه العقيدة. والرسول ﷺ يقول مبيناً عملية الربط بين الإيمان والسلوك الصادر من المؤمن في التربية الإسلامية: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

ويقول في سلوك المؤمن نحو جاره ونحو نفسه: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»[(١)]. «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع بجنبه»[(٢)] كما يتحدث عن أثر الإيمان في تجنب الرذائل وارتباط الإيمان بالسلوك ساعة فعل العمل: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»، «ولا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه».

إن التربية الإسلامية في ربطها المحكم بين العقيدة والسلوك وجعل العمل نابعاً من العقيدة والعقيدة أساس لكل فعل، إنما تؤكد أهمية ربط التربية بمعتقدات الأمة، وكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تركز على هذا الجانب وتؤكد عليه وهو: أهمية ربط التربية بعقيدة الأمة، وقد بينا في تعريفنا للتربية عند (جون ديوي) الذي يرى التربية وسيلة لتدعيم عقيدة الأمة، كما أن التربية في نظر البروتستانتيين تعمل على تنمية المعتقدات الدينية وزيادة ميل الطفل وحبه للكنيسة لأن على ذلك ستترتب سعادته الأبدية.

ولأن التربية الإسلامية تربط بين العقيدة والعمل باعتبار العمل مظهراً للإيمان وترجمة له، فإن الله سبحانه وتعالى جعل العمل معياراً حقيقياً

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) فتح الباري ص ٥٦/٥٧ كتاب الإيمان.

لصدق الإيمان، فربط دائماً بين الإيمان والعمل، وذم الذين لا يربطون بينهما ﴿كَبُرَ مَقْتاً عندَ اللهِ أنْ تقولوا ما لا تَفعلونَ﴾ [الصف:٣]. ﴿الذينَ قالوا آمَنّا بأفواهِهم ولم تؤمنْ قلوبُهم﴾ [المائدة: ٤١]. ﴿يَقولونَ بأفواهِهم ما ليسَ في قلوبِهم﴾ [آل عمران: ١٦٧].

والعقيدة التي هي أساس من أسس التربية لا بد أن ترتكز على دعائم أهمها:

الإيمان بالله الذي لا إله غيره وبملائكته ورسله، وتوحيد الله في الألوهية باعتبار ذلك القاعدة الأساسية لكل دين أنزله الله سبحانه وتعالى: ﴿وما أرسَلْنا مِن قبلِكَ مِن رسولٍ إلا نُوحِي إليهِ أنّهْ لا إلـهَ إلا أنا فاعْبُدونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. ويترتب على الإيمان بلا إله إلا الله الإيمان بأنه خالق الكون وخالق البشر وخالق الحياة والموت، وأنه العليم بكل ما يقع في الكون وما يدور في النفس الإنسانية من خير وشر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ ونعلمُ ما تُوَسْوِسُ بهِ نفسُه ونحنُ أقربُ إليهِ مِن حَبْلِ الوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]. ﴿يا بُنَيَّ إنّها إنْ تَكُ مِثقالَ حَبّةٍ مِن خَرْدَلٍ فَتَكُنْ في صخرةٍ أو في السمواتِ أو في الأرضِ يَأتِ بها اللهُ إنّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]. وكل صغير وكبير من صنع الله سبحانه وتعالى ﴿سُبحانَ الذي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الأرضُ وَمِن أَنْفُسِهم ومِمّا لا يَعلمونَ﴾ [يس: ٣٦]. والله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون هو الذي سخّر هذا الكون لينعم به الإنسان وأعدّ له من أسباب الحياة ونعمها ما ييسر له سرّ وجوده في الأرض ﴿اللهُ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وأنزلَ مِن السماءِ ماءً فأخرجَ بِهِ مِن الثمراتِ رزقاً لكم وسَخَّرَ لكمُ الفُلْكَ لِتجرِيَ في البحرِ بأمرِهِ وسَخَّرَ لكمُ الأنهارَ وسَخَّرَ لكمُ الشمسَ والقمرَ دائِبَيْنِ وسَخَّرَ لكمُ الليلَ والنهارَ وآتاكُم مِن كلِّ ما سألتُمُوهُ وإنْ تَعُدّوا نِعمةَ اللهِ لا تُحْصُوها إنّ الإنسانَ لَظلومٌ كَفّار﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤].

وقد ذكرنا أن العقيدة لا بد أن تنعكس على الإنسان وسلوكه، فإذا ما آمن المسلم إيماناً يقيناً بالله سبحانه وبعلمه ومراقبته الدائمة لعبده؛ كان هذا

الإيمان محدداً لسلوك المسلم كفرد وسلوك الجماعة كأمة مسلمة. فالعقيدة لا بد أن تترجَم في حياة الفرد الذي يعلم بأن الله مطّلع على سرِّه ونجواه وأن أفعاله مكتوبة وهو محاسب عليها، ولا بد أن تترجَم في حياة الجماعة فتبني نظام حياتها وفق هذه العقيدة التي آمنت بها. إذ أن شهادة أن لا إلّه إلا الله تعني كما يقول الشهيد سيد قطب:

(إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية.. إفراده بها اعتقاداً في الضمير، وعبادة في الشعائر، وشريعة في واقع الحياة. فشهادة لا إله إلا الله لا توجد فعلاً ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جدِّياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم.

ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية.. أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله. لا يقضون هم في أي شأن من شؤونها، ولا في أي جانب من جوانبها من عند أنفسهم، بل لا بد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه.. وحكم الله هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه وهو رسول الله، وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الإسلام الأول: شهادة أن محمداً رسول الله)(١).

إن عنصر الإيمان بالله خالق الكون والحياة والإنسان عنصر فعّال في توجيه سلوك الإنسان نحو الخير والعبودية الكاملة للّه ونبذ ما عدا الله من طواغيت وأصنام تستعبد الإنسان وتنحرف بسلوكه في الحياة.

والذي يؤمن بالله غيباً يؤمن بالكتب بعامة والقرآن الكريم بخاصة لأنه كما ذكر الله: كتاب هداية ونور وطريق إلى الله ﴿كتابٌ أنزَلْناهُ إليكَ لِتُخْرِجَ الناسَ مِن الظلماتِ إلى النورِ بإذنِ رَبِّهم إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ﴾ [إبراهيم: ١]، والإيمان بالكتاب الذي هو نور للناس يقتضي

---

(١) معالم في الطريق ١٧ ـ ١٨.

الإيمان بكل ما فيه من أحكام وقوانين، باعتبار أن هذه الأحكام والقوانين إنما جاءت لتحقيق العبور بالإنسان من ظلمات الكفر والإلحاد والأساطير والأوهام والخرافات والأرباب والطواغيت إلى نور الإيمان بالله، الذي ينير الطريق القويم ونور العدل والحرية والطمأنينة والمساواة. واتباع ما جاء في الكتاب أمر من الله سبحانه ﴿اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم مِن رَبِّكم ولا تَتَّبِعوا مِن دونِهِ أَوْلياءَ قليلاً ما تَذَكَّرون﴾ [الأعراف: ٣]. واتباع من جاء بالكتاب أمر منه أيضاً ﴿أطِيعوا الله وأطِيعوا الرسولَ﴾ [محمد: ٣٣]. ﴿مَنْ يُطِعِ الرسولَ فَقَدْ أطاعَ الله﴾ [النساء: ٨٠]. والكتاب هو الفاصل في أمور الحياة صغيرها وكبيرها حقيرها وعظيمها طيبها وخبيثها: ﴿الذِينَ يَتَّبِعونَ الرسولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجِدونَهُ مكتوباً عِندَهم في التوراةِ والإنجيلِ يَأمُرُهُمْ بالمعروفِ ويَنهاهُم عَنِ المنكرِ وَيُحِلُّ لهمُ الطيباتِ ويُحَرِّمُ عليهمُ الخبائثَ ويَضَعُ عنهم إصْرَهُم والأغلالَ التي كانت عليهم فالذين آمَنوا به وعَزَّرُوهُ ونَصَروه واتَّبَعوا النورَ الذي أُنْزِلَ معَه أولئكَ هُمُ المفلِحون﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فالذين يؤمنون بالله وبكتابه وبرسله وما جاؤوا به من عند الله هدياً ونوراً وأحكاماً وقوانين هم المفلحون في الدنيا والآخرة ﴿يا أيها الناسُ قَدْ جاءَكم بُرْهانٌ مِن رَبِّكم وأنزَلْنا إليكم نوراً مُبيناً فأمّا الذينَ آمَنوا بالله وَاعْتَصَموا به فَسَيُدْخِلُهم في رحمةٍ منه وفَضْلٍ ويَهْدِيهم إليه صِراطاً مستقيماً﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥].

والجانب السلوكي الذي يجب أن يتمخض عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره واليوم الآخر؛ يأتي في مقدمته: أن تكون الطاعة للّه ثم لرسوله لأن في طاعته طاعة للّه، فطاعة الكافرين والمنافقين والشياطين والمبتدعين والفسقة ليس من الإيمان، بل إن طاعة ولي الأمر لا تجب إذا لم يكن عاملاً بكتاب الله منهجاً للحياة وسلوكاً للبشر ﴿يا أيّها الذين آمَنوا أطِيعوا الله وأطِيعوا الرسولَ وَأُولي الأمرِ منكم﴾ [النساء: ٥٩]. ويقول: ﴿وإن تُطِعْ أكثرَ مَن في الأرضِ يُضِلّوكَ عَن سبيلِ الله﴾ [الأنعام: ١١٦]. ومظهر هذه الطاعة أن يحكم المسلمون

بما أنزل الله وأن لا يتحاكموا إلى الطاغوت والشيطان والكفرة والملحدين وقوانين البشر وأنظمتهم ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذِين يَزْعمُون أنهم آمَنوا بما أُنْزِلَ إليكَ وما أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُريدونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطاغوتِ وقد أُمِروا أَنْ يَكْفُروا به وَيُريدُ الشيطانُ أَنْ يُضِلّهم ضلالاً بعيداً وإذا قِيل لهم تَعَالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرسولِ رأيتَ المنافقِينَ يَصُدّونَ عنكَ صُدُوداً﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١].

وسائل التربية الإيمانية:

إن أهم الوسائل التي تمارسها التربية الإسلامية في سبيل غرس الإيمان في القلوب والذي يدفع السلوك للعمل هو الاهتمام ببعض الجوانب العملية منها:

١ - حاجة البشرية الفطرية لهذا الإيمان لأن الإيمان بالله هو الذي يمنح الطمأنينة والاستقرار ويحرر الإنسان من الخوف والأوهام والخرافات ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً ولا رَهَقَاً﴾ [الجن: ١٣].

وحاجة البشرية إلى الله سبحانه وتعالى والإيمان به والإحساس الدائم بوجوده أمر ملازم للوجود البشري، ويقول في ذلك كريس مورسون (إن كون الإنسان في كل مكان ومنذ بدء الخليقة حتى الآن، قد يشعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم، يدل على أن الدين فطري فيه ويجب أن يقر العلم بذلك، وسواء أحاط الإنسان صورة محفورة بشعوره بأن هناك قوة خارجية للخير أو الشر أم لم يفعل، فإن ذلك ليس هو الأمر المهم، بل الحقيقة الواقعة هي اعترافه بوجود الله. والذين أتيح لهم العلم بالعالم لا يحق لهم أن ينظروا نظرة الازدراء إلى فجاجة أولئك الذين سبقوهم أو الذين لا يعرفون الآن الحق كما نراه. بل إننا على العكس يجب أن تأخذنا الروعة والدهشة والإجلال لاتفاق البشر في نواحي العالم على البحث عن الخالق والإيمان بوجوده. أوَليست روح الإنسان هي التي تشعر باتصالها بالله؟ أم نخشى أن نقول بأن الحافز

الديني الذي لا يملكه إلا الإنسان هو جزء من الكائن الواعي كأية صفة أخرى من خصائصه؟ إن وجود الحافز هو برهان على قصد العناية الإلهية)[1].

٢ ـ إيجاد الرغبة للإيمان والطلب للهداية قبل الاعتماد على الأدلة النظرية، لأن خلو الرغبة من قلب الإنسان لا يجعله مؤمناً مهما ذكر له من الأدلة والبراهين. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إنّ الذِينَ كَفَروا سَواءٌ عليهم أأنذرتَهم أم لم تُنْذِرْهُم لا يُؤمِنون خَتَمَ اللهُ على قلوبِهم وعلى سَمْعِهم وعلى أبْصارِهم غِشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾ [البقرة: ٦ ـ ٧].

ويقول على لسان سيدنا نوح: ﴿ وإني كلّما دَعَوْتُهم لِتَغْفِرَ لهم جَعَلوا أصابعَهم في آذانِهم واسْتَغْشَوْا ثِيابَهُم وأصَرُّوا وَاسْتكبَرُوا اسْتِكباراً﴾ فهم لا رغبة لهم في الإيمان بالرغم من الأدلة المادية المتعلقة بحياتهم والدافعة للإيمان التي ذكرها لهم ﴿يُرْسِلِ السماءَ عليكم مِدْرَاراً ويُمْدِدكُم بأموالٍ وبَنِينَ ويَجْعَلْ لكم جناتٍ وَيَجعلْ لكم أنهاراً﴾ [نوح: ٧ ـ ١٢]. ﴿ومنهم مَن يَستمِعُ إليكَ وَجَعَلْنا على قلوبِهم أكِنَّةً أنْ يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهم وَقْراً وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يُؤمِنوا بها﴾ [الأنعام: ٢٥].

ويمكن إيجاد هذه الرغبة بالترغيب والترهيب والجزاء والعقاب، والآيات في ذلك كثيرة منها: ﴿وَمَنْ يُؤمِن باللهِ ويَعْمَلْ صالحاً يُكَفِّرْ عنهُ سَيِّئاتِه وَيُدْخِلْهُ جناتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ خالدِينَ فِيها أبداً ذلكَ الفوزُ العظيمُ﴾ [التغابن: ٩].

ولا يتم الترغيب في الإيمان إلا إذا تخلص الإنسان من ربقة التقليد والتعصب لعقيدة الآباء والتكبر والتعالي واتهام الناس بالجهل والفساد في العقائد ﴿سَأَصْرِفُ عَن آياتِي الذينَ يَتَكَبَّرونَ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لا يُؤمِنوا بِها وإنْ يَرَوْا سَبيلَ الرُّشْدِ لا يَتّخِذوهُ سَبِيلاً وإنْ يَرَوْا

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

سَبيـلَ الغَيِّ يَتّخِذوهُ سَبيـلاً ذلكَ بـأنهم كَذّبُـوا بآيـاتِنـا وكـانـوا عنهـا غافِلينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

٣ ـ ربط الإيمان بالله بحياة الفرد وإشعاره بقرب الله منه ومراقبته الدائمة له حتى يكون هذا الشعور ضابطاً للسلوك وموجهاً له ﴿ولقد خَلَقْنا الإنسـانَ ونعلمُ ما تُـوَسْـوِسُ بـهِ نفسُـه ونحنُ أقـربُ إليـهِ مِن حَبْـلِ الوَريدِ﴾ [ق:١٦]. وربط الإيمان بحياة الفرد يتدرج من وضع يده على المحسات إلى ما لا يحس، بدءاً بالإنسان نفسه وما بينه وبين الطبيعة الإلَهية من توافق وانسجام ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إلى طعامِه أنّـا صَبَبْنا الماءَ صَبّاً ثمّ شَقَقْنا الأرضَ شَقّاً فأنْبَتْنَا فِيها حَبّاً وعِنَباً وقَضْباً وزَيْتوناً ونَخْلاً وحدائِقَ غُلْباً وفاكهةً وأبّاً متاعاً لكم ولأنعامِكم﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

ثم التدرج إلى صورة أكبر من نعم الله على الإنسان ﴿اللهُ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وأنزلَ مِن السماءِ ماءً فأخرجَ بهِ مِن الثمراتِ رزقاً لكم وسَخَّرَ لكمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ في البحر بأمرِهِ وَسَخَّرَ لكمُ الأنهارَ وسَخَّرَ لكمُ الشمسَ والقمرَ دائِبَيْنِ وسَخَّرَ لكمُ الليلَ والنهارَ وآتاكُم مِن كُلِّ ما سَـأَلْتُمُـوهُ وإنْ تَعُـدّوا نِعمـةَ اللهِ لا تُحصـوهـا إنّ الإنسـانَ لَـظلومٌ كفّار﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

٤ ـ بيان التوافق بين الإيمان والعلم لأنهما يكملان بعضهما، لأن العلم الذي نؤمن به هو العلم الذي مصدره الله سبحانه وتعالى، الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم، والذي خلق الإنسان وعلّمه البيان. فبالعلم والإيمان يوجّه السلوك ويقوّم، وتعتقد القلوب وتفهم ﴿وقالَ الذِينَ أُوتـوا الـعِلمَ والإيـمـانَ لقـد لَـبِثْـتُم فـي كـتـابِ اللهِ إلـى يـومِ البعثِ﴾ [الروم: ٥٦].

إن القرآن يحدثنا أن التأمل والتفكير في الظواهر الطبيعية واستعمال الحسّ والمشاهدة هي وسيلة المعرفة للّه والدالة على وجوده وبديع خلقه وإحكام صنعه، ثم هي الوسيلة لتقوية الصلة العقلية بالله ﴿إن في خَلْقِ السَّمواتِ والأرض

واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأُولي الألبابِ الذينَ يَذكرونَ اللهَ قياماً وقُعوداً وعلى جُنوبِهم ويَتَفكّرونَ في خَلْق السمواتِ والأرضِ رَبَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سُبحَانَكَ فَقِنَا عذابَ النارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]. والتربية الإسلامية تدعو إلى كشف حقائق الوجود والكون لمن تربيهم، وتدعو إلى استخدام الحواس والقدرات التي أودعها الله في الإنسان ليدرك عجائب صنع الله فيكون نابعاً من إدراك وفهم وراسخاً لا يتزعزع ولا ينقص بل يزيد وينمو.

ثانياً: مرتكز الإنسانية والفطرة

اختلف العلماء حول الطبيعة الإنسانية بين من يرون الإنسان مادة أولية تطورت وتعقدت، ومن يرونه عقلاً وروحاً، ومن يرونه مكوّناً من الروح والمادة. واختلفت تبعاً لذلك تفسيراتهم لطبيعة الإنسان هل هي طبيعة حيوانية أم طبيعة روحية أم متوسطة بينهما.

أما الإسلام فله رأيه في طبيعة خلقه، فالقرآن يحدد خلق الإنسان فيقول: ﴿ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِن سُلالةٍ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْناه نُطفةً في قرارٍ مَكِينٍ ثمّ خلَقْنا النُّطفةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا المضغةَ عِظاماً فَكَسَوْنا العِظَامَ لحماً ثم أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالِقين﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]. فالقرآن يبين أن الإنسان خُلق في أطوار ﴿ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ للّهِ وقاراً وَقَدْ خَلَقَكم أطواراً﴾ [نوح: ١٣ ـ ١٤]. والأطوار هي انتقال الإنسان من مرحلة الطين إلى مرحلة الإنسان، ولا اهتمام لنا بالسلسلة التي بين هذين الطورين، إذ أن التحديد العلمي لذلك قد يكون صحيحاً وقد لا يكون، والنفخة الروحية التي ذكرها القرآن هي التي جعلت من الطين إنساناً مكرماً، أما التفاصيل الموجودة في الآية فهي تتناول أطوار نشأة الفرد الإنساني بعد أن صار إنساناً ويقول أيضاً: ﴿ الذي أحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ مِن طِين﴾ [السجدة: ٧]. ويقول: ﴿وإذْ قالَ رَبُّكَ للملائِكَةِ إنّي خالِقٌ بَشَراً مِن صَلْصالٍ مِن حَمَإٍ مَسْنُونٍ فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيه مِن رُوحِي فَقَعُوا له ساجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

من تفسير هذه الآية يقول سيد قطب رحمه الله: (ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال، ثم من النفخة العلوية التي فرقت بينه وبين سائر الأحياء، ومنحته خصائص الإنسانية وأولها القدرة على الارتقاء في سلم المدارك العليا الخاصة بعالم الإنسان، هذه النفخة التي تصله بالملأ الأعلى، وتجعله أهلاً للاتصال بالله وللتلقي عنه، ولتجاوز النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات والحواس، إلى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه القلوب والعقول، والتي تمنحه ذلك السر الخفي الذي يسري به وراء الزمان والمكان ووراء طاقة العضلات والحواس إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة في بعض الأحيان.

ذلك كله مع ثقلة الطين في طبعه ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات، ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات.

والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأفق الأعلى الذي يطلب إليه أن يبلغه وهو الكمال البشري المقدر له. فليس مطلوباً منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبته ليكون ملكاً أو ليكون حيواناً)[1].

إن وجود خصائص مادية وخصائص روحية في الإنسان، جعلت التركيب الإنساني جامعاً لصفات ترجع بعضها إلى الناحية المادية وبعضها إلى الناحية الروحية فيه، وبعضها إلى امتزاج الناحيتين في الإنسان. وهذا ما يسمى بالميول والدوافع والغرائز، أو ما يسمى بالفطرة التي تشمل الثلاثة، وكل واحدة من الثلاثة لها دلالتها وتفريعاتها. فالغرائز هي الاستعدادات النفسية العضوية فطرية أو موروثة تجعل المرء يحدد مواقفه سلباً أو إيجاباً إزاء مواضيع معينة بعد إدراكه لها مباشرة. أما الدوافع فهي

(١) في ظلال القرآن ص ٢١ ـ ٢٢ ج ١٤ م ٥.

كل أمر يدفع الإنسان إلى سلوك معين أو تغير داخلي معين، سواء كان الدافع داخلياً من الإنسان أو خارجياً من بيئته التي يعيش فيها. والدافع يشمل كل الدوافع كالميول والرغبات والحوافز والحاجات وذلك كله يعبر عنه الإسلام بالفطرة باعتبارها قوة دافعة تدفع الإنسان إلى القيام بأفعال معينة نتيجة مواجهة مواقف معينة في الحياة. ولا نود أن نفصل الدوافع كلها ولكننا سنعرض لبعضها، فحب التملك دافع فطري في الإنسان عالجه القرآن مراراً ﴿وإنه لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَديدٌ﴾ [العاديات: ٨]. ﴿وَتُحِبُّونَ المالَ حُبّاً جَمّاً﴾ [الفجر: ٢٠]. وقد ترتبت بعض الصفات على غريزة حب التملك في الإنسان مثل التدافع في الدنيا وحب الشهوات والنساء والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والأنعام والحرث، وهو مع ذلك هلوع جزوع إذا أصابه شرّ، ومنوع وناسٍ إذا أدركه الخير.

يقول الله تعالى: ﴿وإذا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُنِيبينَ إليهِ، ثُمَّ إذا أذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إذا فريقٌ منهم بِرَبِّهِم يُشْرِكونَ لِيَكْفُروا بما آتَيْناهُم فَتَمَتَّعوا فسوفَ تَعلمونَ. أم أنزلْنا عليهم سُلطاناً فهوَ يَتكلَّمُ بما كانوا بهِ يُشرِكونَ، وإذا أَذَقْنا الناسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها، وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم إذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٣ - ٣٦].

فهذه الآيات تصور النفس الإنسانية التي تتحكم فيها الانفعالات حين لا تستند إلى عقيدة ثابتة وقيم دائمة، فهي تلجأ إلى الله في ساعات الشدة، فإذا صرف الله عنهم الشدة نسوه بل كفروا بما أتاهم من فضله ورحمته، وقد يفرح الإنسان برحمة الله ونعمه وتنسيه الفرحة شكر النعمة والرحمة، بل قد يتجبر ويتكبر ويبطر فإذا ابتلاه الله في نعمته جزاء عمله، تملّكه اليأس والقنوط من رحمة الله. وهذه الحالات هي للنفس البشرية التي لا تستقيم على منهج الله ولا تثبت على قِيَمه.

هذه الدوافع الفطرية والغرائز المادية كلها خير إذا وُجِّهت إلى الخير، وشرّ إذا وُجِّهت إلى الشرّ وأسيء استعمالها.

أما الدوافع الفطرية الروحية فإن الإسلام قد قرّرها، ومنها نزعة التديّن في الإنسان، واستعداده الفطري في الالتجاء إلى الله ومعرفته والركون إليه والاطمئنان عنده، بصرف النظر عن صحة التديّن أو انحرافه. فالبشرية في تاريخها لم تخل من الآلهة التي عبدتها باطلاً من دون الله من الأشجار والأحجار والنيران والأبقار، بل والبشر أنفسهم ولكن الفطرة السليمة هي التي عاهد الله عليها بني الإنسان وأخذ منهم العهد عليها ﴿وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَني آدمَ من ظُهورِهم ذُرِّيَّتَهم وأشْهَدَهُم على أنفسِهم ألستُ بِرَبِّكم؟ قالوا بَلَى شَهِدْنا أَنْ تَقولوا يومَ القيامةِ إنا كنّا عَن هَذا غافِلينَ أو تَقولوا إنما أشرَكَ آباؤنا مِن قبلُ وكُنّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهم أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ المبطِلونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

وعن الآية روي عن ابن عباس قوله: (إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطي الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به، نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقرّ به، لم ينفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر؛ مات على الميثاق الأول على الفطرة)[١].

والرسول ﷺ يقول: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه». ويقول الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزلْ به سلطاناً»[٢].

وقد سبق أن ذكرنا الطبيعة الإنسانية في آراء الفلاسفة والإسلام، وقد ذكرنا أن الإسلام يرى في الإنسان طاقات ضخمة يمكن توجيهها إلى الخير

---

(١) تفسير ابن كثير ص ٢٦٢ ج ٢.

(٢) رواه مسلم.

إذا وُجِّهت توجيهاً صحيحاً، وإلى الشر إن لم يحسَن استخدامها. فالإسلام يرى أن الدوافع والغرائز والميول يمكن أن توجَّه إلى الخير لتسموَ بالإنسان وترقى به وتخلّصه من الخلود إلى الأرض والركون إلى الشهوات وطاعة الشيطان. وقد بيّن الرسول ﷺ ذلك في قوله: «إن للشيطان لمة يا بـن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخـرى فليتعوذ بـالله من الشيطان ثم قـرأ: ﴿الشيطانُ يَعِدُكُمُ الفـقرَ ويأمرُكم بالفحشاءِ﴾» [البقرة: ٢٦٨].

والإسلام يقرر أن الإنسان كثيراً ما ينحرف عن فطرته، ولكن التربية هي الوسيلة لإرجاع الإنسان إلى فطرته وتوافقه معها، وإرسال الله سبحانه الرسل للناس مع إشهاده لهم على أنفسهم إنما هي الوسيلة لهداية الإنسان إلى فطرته وتوجيهه إليها، ومع أن القرآن يذكر أن الله ألهم النفس تقواها وفجورها، وأن الإنسان قد يفلح بتزكيتها ويخيب بدسِّها، فإن سيدنـا إبراهيم يدعو الله قائلاً: ﴿رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهم رَسُولاً منهم يَتْلُو عليهم آياتِكَ ويُعَلِّمُهُمُ الكتـابَ والحكمـةَ وَيُـزَكِّيهم إنـك أنتَ العـزيـزُ الحكيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فالرسل جاؤوا معلِّمين للكتاب ومزكِّين للنفوس وموجِّهين للدوافع والفطر ﴿كما أرسَلْنا فيكم رسولاً منكم يَتْلُو عليكم آياتِنا ويزكِّيكُم ويُعَلِّمُكُمُ الكتابَ والحكمةَ ويُعَلِّمُكُمْ ما لم تكونوا تَعلمونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وهكذا نجد الإسلام يقرر أن التربية تقوم على أساس من تقرير وجود غرائز وميول ودوافع تسيِّر سلوك الإنسان، وأن مهمة التربية هي توجيه هذه الطاقات الطبيعية إلى الخير وإلى وجهتها التي خلقت من أجلها، وعلى دور التربية وواجبها يترتب الجزاء الأخروي ﴿وأمّا مَن خافَ مَقامَ رَبِّه وَنَهى النفسَ عَنِ الهَوَى فإنّ الجنةَ هيَ المأوى﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

ثالثاً: مرتكز العلم

يقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿إنّ هَذا القرآنَ يَهدِي للتي هيَ أقومُ وَيُبَشِّرُ المؤمِنينَ، الذينَ يَعملونَ الصالحاتِ أنّ لهم أجراً كبيراً وأن الذينَ لا يُؤمِنون بالآخرةِ أَعْتَدْنا لهم عذاباً أليماً﴾ [الإسراء: ٩ - ١٠].

فالقرآن هو كتاب الهداية والتربية، وهي هداية وتربية لا تختص بجيل دون جيل، أو قوم دون قوم، ولا بزمان ومكان معينين، ولكنها هداية أجيال من البشر وأقوام من الناس باختلاف الأزمنة والأمكنة على منهج الخير ومنهج الله، لذا كان استعمال الفعل المضارع (يهدي) الدال على الحال والمستمر في المستقبل. وهداية الله وتربيته لا تتأثران بالرأي، ولا تنقادان مع الهوى، ولا تميلان مع المودة والشنآن، ولا تخضعان للمصالح والأغراض، لأنها هداية وتربية خالق الكون وفاطر السموات.

وتشمل هذه التربية عدة مجالات هي:

١ ـ في مجال العقيدة:

فهي تهدي إلى عقيدة واضحة بسيطة لا غموض فيها ولا التواء، تحرر الروح من الأوهام والأساطير والخرافات وتحرر طاقات البشر للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتّساق.

٢ ـ في مجال الإنسان:

تهدي الإنسان إلى التناسق بين مظهره ومخبره وسلوكه ودوافعه، وبين النظرية في الإيمان والتطبيق في الواقع، الأمر الذي يجعل الإنسان يسمو بنفسه إلى عالم أفضل وأحسن، ويترجم أعماله كلها إلى عبادات ـ حتى ولو كانت من متع الحياة ـ ما دام المقصود بها وجه الله تعالى.

٣ ـ في مجال العبادة:

هي هداية وتربية إلى عبادات سهلة بسيطة تتوازن فيها طاقات الإنسان والتكاليف التي أمره الله بها، بحيث لا تتعارض التكاليف مع طاقة الإنسان وقدراته، وبحيث يكون التوازن بينهما محفوظاً بنسبة ثابتة ﴿لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلا وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكتَسَبَتْ﴾ ثم ﴿رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والموازنة الدقيقة بين التكاليف والواجبات هي التي تجعل هذه التكاليف سهلة معقولة لا مشقة فيها فتملّها النفس وتيأس منها الروح، ولا سهولة فيها بالدرجة التي تجعل المرء يستهونُها ويستهتر بها، فهي وسط لا تتجاوز حدود الطاقة والاحتمال، والقصد والاعتدال.

٤ ـ في مجال الجماعة والدولة:

للإسلام هدايته وتربيته للدولة من القاعدة ممثلة في الأمة الإسلامية إلى القمة ممثلة في الحاكم أو الراعي وتوجيهه في نظامه الأساسي الذي يشمل:

١ ـ نظام الحكم.
٢ ـ نظام الاقتصاد والمال.
٣ ـ النظام الاجتماعي.
٤ ـ نظام التعامل الدولي.

وسبق أن ذكرنا أن العقيدة الإسلامية لا تتعارض مع القوانين العلمية

للحياة والنواميس الكونية، ولهذا كانت الناحية العلمية من الأسس التي بنيت عليها التربية الإسلامية.

إن التربية في الإسلام لا تبنى على الأساسيات التي يبنى عليها علم من العلوم كعلم النفس أو علم الاجتماع أو الطبيعة أو غيرها من العلوم، وإنما تقوم على مجموع هذه العلوم وعلى أساس نظرة الإسلام لقوانين الكون والحياة.

تحدث علماء المسلمين عن القوانين التي تبنى عليها الحياة، وقد اتفقوا على أنها لا تخرج عن خمسة هي: حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال. ويمكننا أن نأخذ بما ذكر الإمام الشاطبي في الموافقات توضيحاً لرأي علماء المسلمين إذ يقول: (تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها أن تكون ضرورية، والثاني أن تكون حاجية، والثالث أن تكون تحسينية.

فأما الضرورية فمعناها أنه لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجرِ مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع بالخسران المبين، والحفظ لها يكون بأمرين:

أحدهما ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود.

والثاني ما يدرأ عنها الاحتلال الواقع أو المتوقع فيها. وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم.

فأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من جانب الوجود كالإيمان والنطق بالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبه ذلك، والعادات راجعة إلى حفظ النفس والعقل من جانب الوجود أيضاً، كتناول المأكولات والمشروبات والملبوسات والمسكونات وما أشبه ذلك، والمعاملات راجعة إلى حفظ النسل والمال من جانب الوجود، وإلى حفظ النفس والعقل أيضاً لكن بواسطة العادات والجنايات، ويجمعها الأمر

بالمعروف. والنهي عن المنكر يرجع إلى حفظ الجميع من جانب العدم).

ثم يقول: (ومجموع الضروريات خمس وهي: حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وقد قالوا إنها مراعاة في كل ملّة)[1] وهي حقيقةً مراعاةً في كل ملة وكل زمان، حيث كتب كثير من العلماء عن قوانين الحياة وقسّموها أقساماً، ويمكن أن تأخذ بتحديد الكسيس كاريل الذي يرى أن (القوانين الأساسية التي تقوم عليها الحياة الإنسانية تنحصر في ثلاثة هي: قانون المحافظة على الحياة، وقانون تكاثر النوع، وقانون الارتقاء العقلي والروحي)[2].

ويلاحظ أنه أجمل ما فصّل الإمام الشاطبي، حيث يدخل في قانون المحافظة على الحياة: حفظ النفس والمال والدين، وتحت قانون التكاثر: حفظ النسل، وتحت الارتقاء الروحي والعقلي: حفظ العقل.

وسنأخذ بالتقسيم الثلاثي لنبين موقف التربية الإسلامية من كل قانون.

أ ـ المحافظة على الحياة:

أما بالنسبة لقانون المحافظة على الحياة فإن الإسلام يدعو إلى المحافظة على حياة البشر ويذم كل أمر يؤدي إلى إبادة هذه الحياة أو قتلها. ومن هنا كان تحريم الإسلام للقتل والزنا والسرقة وشرب الخمر والكذب والزور والربا وما إلى ذلك، لأنها إذا نظرنا إليها جميعها وجدناها وسائل هدم للحياة وقتل لها.

كما أن الإسلام يدعو إلى ما يثري هذه الحياة ويقويها ويحقق للإنسان الأمن والاستقرار والهدوء، فينصرف إلى أداء رسالته في الحياة، وعلى قمة هذه: الإيمان بالله وعدم الشرك به في أي مظهر من مظاهره،

(١) الإمام الشاطبي ـ الموافقات ص ٤ ـ ٥ ـ ج ثاني.
(٢) ألكسيس كاريل.

وطاعة الوالدين، والإحسان إلى الناس، وترجمة ذلك كله في المعاملة والسلوك، والاقتصاد والتوسط في أمور الحياة، والعدل والوفاء بالعهد وحفظ المواثيق، وما إلى ذلك من كل أمر دعا الإسلام إليه للمحافظة على الحياة وإنمائها وازدهارها.

إن الإيمان بالله وحده وعدم الإشراك به يمثل أول عنصر في عناصر المحافظة على الحياة، إذ أن الإيمان هو الذي يعطي الإنسان الأمن والاستقرار والسكون، الأمر الذي يدفعه إلى العمل والإنتاج وإثراء الحياة وتعمير الأرض والتعايش بسلام مع الآخرين جماعاتٍ أو دولاً. ونقيضه الإشراك بالله واتخاذ الآلهة دونه باعتبار الإشراك بالله العنصر الأول في إبادة الحياة وقتلها، إذ أن العقل لا يقبل ولا يستقر على الاستسلام بأن لهذا الكون بنظامه الدقيق من تعاقب الليل والنهار، والمدّ والجزر في البحار، والتوافق بين العناصر التي يتألف منها جسم الإنسان والعناصر التي تكون التربة الزراعية وغيرها، لا يقبل العقل إلا أن يكون الموجد واحداً والمنظم واحداً والقوانين التي أودعها الكونَ واحدةً، كما أنه لا يقبل الشريك إذ أن الشراكة في الخلق تعني التنافس والتطاحن والتباين والاختلاف والعجز والفساد، ثم يترتب على ذلك اضطراب الحياة وفقدان الطمأنينة والاستقرار والأمن والنظام، وإذا فقد الإنسان ما يؤمن به حقاً ويحتاج إليه دوماً ويستنجد به متى أراد ويدعو متى احتاج وهو متيقن من النجدة والإجابة، فقد الطمأنينة والأمن وفقد الدافع للحياة فضلاً عن المحافظة عليها. وفقدان الدافع والداعي يؤديان إلى قتل الحياة وتدميرها ﴿لَوْ كانَ فيهما آلهةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنا الليلَ والنهارَ آيتَين فَمَحَوْنا آيةَ الليلِ وَجَعَلْنا آيةَ النهارِ مبصرةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكم، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السنينَ والحسابَ وكلَّ شيء فَصَّلْنَاهُ تفصيلاً، وكلَّ إنسانٍ أَلزمْنَاه طائرَهُ في عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يَلقاهُ منشوراً. اقْرَأْ كتابَكَ كفَى بنفسِكَ اليومَ

عليكَ حَسِيباً، مَن اهْتَدَى فإنما يَهتدِي لنفسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فإنما يَضِلُّ عليها ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وما كُنّا مُعَذِّبينَ حتى نبعثَ رسولاً﴾ [الإسراء: ١٢ - ١٥].

فالوجود كله وما فيه من حركة وسكون، لم يترك للصدفة، فالليل والنهار آيتان من آيات الله المتجددة الدقيقة، والليل جعله الله للهدوء والراحة والنوم، والنهار للجد والكدح والسعي. ومن تعاقب الليل والنهار علّم الناس حساب الساعات والأيام والشهور والفصول، وبهذا الناموس الإلّهي ارتبط العمل وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ومسؤولية فردية، جعلت الإنسان يختار بين الهدى والضلال والطاعة والمعصية ولا يتحمل أحد وزر أخيه لأنها مسؤولية فردية كما ذكرنا.

أما المبادىء التربوية التي تبين طرق الهداية وتربط قواعد السلوك والتكاليف الفردية بالعقيدة فإنها تتمثل في الأحكام والنظم والقيم التي دعا الإسلامُ المسلمَ إلى التمسك بها حتى تتحقق له الهداية واقعاً، ويرقى بآدميته في الخلق والسلوك وهذا ما تضمنته الآية ﴿وكلَّ شيءٍ فَصَّلْناه تفصيلاً﴾ فما هي النظم التي دعا إليها مما يهدي للتي هي أقوم؟

يقول الله تعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلّهاً آخرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً، وَقَضى رَبُّكَ ألّا تَعْبُدوا إلا إيّاهُ وبالوالدَين إحساناً، إما يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أحدُهُما أو كِلاهُما فَلا تَقُلْ لهما أُفٍّ ولاَ تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كريماً، وَاخْفِضْ لَهُما جناحَ الذلِّ مِنَ الرَّحمةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهما كما رَبَّيانِي صَغيراً، رَبُّكم أعلمُ بما في نفوسِكم إن تَكونوا صالِحِين فإنه كانَ للأوّابين غَفوراً. وآتِ ذا القُرْبَى حَقَّهُ والمسكينَ وابنَ السبيل ولا تُبَذِّرْ تبذيراً إن المبَذِّرين كانوا إخوانَ الشياطين وكانَ الشيطانُ لِرَبِّه كَفوراً، وإما تُعْرِضَنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ مِن رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لهم قولاً مَيسوراً ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً، إنّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إنه كانَ بعبادِهِ خَبيراً بَصِيراً، ولا تَقْتُلوا

أولادَكم خَشْيَةَ إمْلاقٍ نحنُ نرزقُهم وإياكم إنّ قَتْلَهم كانَ خِطْئاً كبيراً ولا تَقْرَبُوا الزِّنا إنه كانَ فاحشةً وسَاءَ سَبيلًا، ولا تَقْتُلوا النفسَ التي حَرَّمَ الله إلا بالحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مظلوماً فقد جَعَلْنا لِوَلِيِّه سُلطاناً فلا يُسْرِفْ في القَتْل إنه كانَ منصوراً. ولا تَقْرَبُوا مَالَ اليتيم إلا بالتي هيَ أحسنُ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وأَوْفُوا بالعَهْدِ إنّ العهدَ كانَ مَسْؤولًا. وأوْفوا الكَيْلَ إذا كِلْتُم وَزِنُوا بالقِسْطاس المستقيم ذَلك خَيْرٌ وأحسنُ تأويلًا. ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ إنّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنه مسؤولًا ولا تَمْشِ في الأرض مَرَحاً إنكَ لن تَخْرِقَ الأرضَ ولن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولًا كلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مكروهاً﴾ [الإسراء: ٢٢ - ٣٨].

ويقول تعالى أيضاً: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عليكم ألا تُشْركوا به شيئاً وبالوالدَين إحساناً ولا تَقْتُلوا أولادَكم من إملاقٍ نحنُ نرزقُكم وإياهم ولا تَقْرَبُوا الفَواحِشَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ، ولا تَقْتُلوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ الله إلا بالحَقِّ ذلكم وَصّاكم به لعلّكم تَعْقِلونَ، ولا تَقْرَبوا مالَ اليتيم إلا بالتي هيَ أحْسَنُ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزانَ بالقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَها وإذا قُلْتُم فاعْدِلوا ولو كانَ ذا قُرْبَى وبعهدِ الله أَوْفُوا ذلكم وَصّاكم به لعلكم تَذَكّرون وأن هذا صِراطِي مستقيماً فَاتَّبِعُوه ولا تَتَّبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سَبيلِهِ ذلكم وَصّاكم به لعلكم تَتَّقونَ﴾ [الأنعام ١٥١ - ١٥٣].

الآيات السابقة من سورتَي الأنعام والإسراء تبين تكاليف الهداية والأوامر والنواهي التي يربِّي بها الله عبادَه، ونلاحظ أن هذه الآيات قد اتفقت في عدد من التكاليف الفردية والاجتماعية التي تؤدي إلى حفظ الحياة وسلامتها وقوتها سواء في النواحي الإيجابية أو النواحي السلبية وهي:

عدم الإشراك بالله باتخاذ الآلهة معه، لأن هذا يمثل محور العقيدة التي يقوم عليها منهج الله في التربية. فالقرآن في كثير من سُوَره وقصصه

يركز على الحقيقة الكبرى وهي: عبادة الله وحده، والنهي عن عبادة غيره. فقضية الألوهية والعبودية هي قضية الإنسان الأولى والأخيرة في هذا الوجود، لذا كانت وصية الله الخالدة لعباده والتي حملتها رسله إليهم هي ﴿يا قَوْمِ اعْبُدوا اللهَ ما لكم من إلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩ - ٦٥ - ٧٣ - ٨٥].

ولأن العقيدة مسألة خاصة بالإنسان يحاسَب على أساسها فإن الله يوجِّه الخطاب للفرد مع عمومية الأمر فقال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلَهاً آخر﴾ [الإسراء: ٢٢] ﴿يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ باللهِ﴾ [لقمان: ١٣] والنهي عن الشرك يقتضي توحيد المعبود الواحد الأحد لذلك قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدوا إلا إيّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وهذه الصيغ نجدها كثيرة في القرآن الكريم إذ نجد الأمر بعبادة الله ثم النهي عن عبادة غيره أو الشرك به، وكلا المعنيين واحد إلا أن أحدهما منطوق والآخر مفهوم ﴿يا قومِ اعْبُدوا اللهَ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥] و[هود: ٥٠، ٦١، ٨٤] و[المؤمنون: ٢٣] و[العنكبوت: ٣٦]. ﴿ألّا تَعْبُدوا إلا اللهَ﴾ [هود: ٢، ٢٦] و[فصلت: ١٤] و[الأحقاف: ٢١] ﴿لا تُشْرِكْ باللهِ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿واعْبُدوا اللهَ ولا تُشْرِكوا بهِ شيئاً﴾ [النساء: ٣٦] الخ.

ثم الإحسان إلى الوالدين: ونجد في الآيتين استعمالاً لكلمة (الإحسان) للربط بين حسن المعاملة للوالدين وتقوى الله ومراقبته، إذ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذا المعنى في الحديث عن تربية القرآن في مجال العلاقة بين الأبناء والآباء.

أما عن قتل الأولاد الذي حكاه القرآن عن الجاهليين والذي لا زال مستمراً فإن القرآن يحدثنا أن العقيدة الصحيحة تؤدي إلى توافق الإنسان مع فطرته وصحة مشاعره وسلامته كفرد وكعضو في المجتمع، وكما أن العقائد الصحيحة تنعكس آثارها على المجتمع فكذلك العقائد المنحرفة

تنعكس على المجتمع، لأن المجتمع في حركته لا يصدر إلا عن عقائد، فالعقيدة هي الحياة.

والقرآن يحدثنا عن انعكاس المعتقدات على المجتمع بما كان يفعله الجاهليون من قتل الأولاد خشية الفقر والإملاق، ولو كانوا يعتقدون اعتقاداً صحيحاً بأن الأرزاق بيد الله لما وجدوا علاقة بين كثرة الأولاد وخشية الفقر. فالدافع إلى ذلك التفكير هو فساد هذه العقيدة التي لا تترك الأمر بيد الله خالق الكون ورازق الأحياء، ونجد اختلافاً في التعبير بين الآيات باختلاف مقتضى الحال، فلما كان قتل الأولاد بسبب فقر الآباء قدّم رزق الآباء على الأبناء في سورة الأنعام ﴿نحنُ نَرْزُقُكم وإيّاهُم﴾ ولما كان القتل لاعتقاد أن سبب الفقر هو الأبناء قدّم رزقهم على رزق آبائهم في الإسراء.. ﴿نحنُ نَرْزُقُهم وإيّاكُم﴾.

إننا نجد الصورة تتكرر في الجاهلية التي نعيشها فقد نشأ عن انحراف عقائد المسلمين وإبعادهم تولّي الله الأرزاق من تفكيرهم؛ أن ربطوا بين ظروفهم المادية وكثرة النسل، فظهر في واقعهم العملي والنظري حركة تحديد النسل، بادّعاء صعوبة الحياة وارتفاع تكاليف المعيشة وتحسين التربية بالإقلال من عدد الأولاد، وهي فكرة يهودية قصد منها إضعاف الجنس البشري عامة والإسلامي خاصة، ليسهل لهم السيطرة على البشر. وهي فكرة تتمشى مع اعتقادهم في أنهم الجنس الأسمى والشعب المختار الذي يجب أن يحكم ويسود العالم.

ومع ذلك فإننا نلاحظ في الدول التي أخذت بنظام تحديد النسل كثيراً من المشكلات الاقتصادية والتفكك الأسري والحيرة في أوساط الشباب، بل إن دولاً إسلامية أخذت بهذا النظام وجنّدت له الأموال والإمكانات المختلفة وجعلت لها مصالح قائمة بهذا الأمر، إلا أنها فشلت في ذلك لتعارض الفكرة مع الفطرة السليمة بل المسلمة، وارتفعت فيها نسبة المواليد بنسب عالية وكبيرة.

وتطالب التربية القرآنية للفرد من الإنسان البعد عن الفواحش خاصة الزنا، ففي سورة الأنعام ﴿ولا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ ما ظهرَ منها وما بَطَن﴾ وفي سورة الإسراء تحديد الزنا باعتباره فاحشة. وفي السورتين ربط بين ثلاثة أنواع من القتل، قتل الأولاد خشية الفقر، وقتل ناشىء عن الزنا، ثم قتل النفس التي حرّمها الله.

وعن القتل الناشىء عن الزنا يقول المرحوم سيد قطب: (إن في الزنا قتلاً من نـواحٍ شتى، إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة في موضعها، يتبعه غالباً الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق قبل مولده أو بعد مولده. فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة أو حياة مهينة فهي حياة مضيعة في المجتمع على نحو من الأنحاء، وهو قتل في صورة أخرى للجماعة التي يفشو فيهـا فتضيع الأنساب وتختلط الدماء وتذهب الثقة في العرض والولد، وتتخلخل الجماعة وتتفكك روابطها فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين الجماعات.

وهو قتل للجماعة من جانب آخر إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها، ويجعل الأسرة تبعة لا داعي لها، والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه)[1].

وقد حرم الإسلام قتل النفس التي حرمها الله إلا بالحق، وقد بيّن الرسول ﷺ هذا الحق الذي تقتل به النفس المسلمة في حديثه ﷺ: «لا يحلُّ دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة» رواه البخاري ومسلم.

فالذي يَقتل مسلماً يُقتل به حفاظاً لـدماء المسلمين ولئـلا تعم

(١) راجع سيد قطب في ظلال القرآن ص ١٦ ج ١٥ وما بعدها ج ١٥ المجلد الخامس.

الفوضى وتراق الدماء وتكثر الثارات بين الناس، فلا بد من القصاص حتى لا تمتد يد على نفس بريئة إذا علمت بأن القصاص لا يلحقها، وفي القصاص حياة لنفوس أخرى ﴿وَلَكُم في القَصَاصِ حياةٌ يا أولي الألباب﴾ [البقرة: ١٧٩] وقد رأينا مدى انتشار الجرائم في الدول التي ألغت عقوبة الإعدام، والتي يطالب فيها الناس بإعادة هذه العقوبة حتى تحدّ عدد الجرائم المتزايدة لاطمئنان المجرم على أن حياته لن تُزهق.

أما الزاني المحصن ففي قتله وقاية للمجتمع من انتشار جرثومة الفساد واختلاط الأنساب، وما يترتب على جريمة الزنا من جرائم القتل والإجهاض ومحاولات إخفاء الحمل غير المشروع وأبناء السفاح ونظرة المجتمع لهم وموقفهم من المجتمع وما إلى ذلك.

أما الخارج عن جماعة المسلمين ففي قتله حماية للنظام من الفوضى الدينية والجماعة من التفكك والضعف، فالدين لا إكراه في اعتناقه. أما من اعتنقه وآمن به فليس مخيراً في الخروج منه، فقد كانت له الحرية الكاملة قبل أن يسلم ويؤمن، أما بعد ذلك فالأمر مختلف وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «من فارق الجماعة قدر شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه». رواه الترمذي والنسائي. وقد أخذت الجماعات العلنية والسرية حتى العصابات والمنظمات الإرهابية بهذا المبدأ من الإسلام، فالجماعات تقتل كل من خرج عليها حتى لا يفضح أسرارها ويكشف خططها ويطلع الأعداء على أسرار جماعته. فإذا كانت مبادىء البشر تحمى بهذا المبدأ في عالمنا فكيف بمبادىء خالق البشر ونظامه ودينه؟

إن جماعة المسلمين مطالبون بتوفير الأسباب التي تحفظ حياة البشر الأسوياء الذين يعيشون في ظروف عادية، وغير الأسوياء الذين يعيشون في ظروف غير عادية كاليتامى، وبالرغم من أنهم ينطبق عليهم قول الرسول ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه». رواه الترمذي؛ إلا أن الجماعة المسلمة مطالبة برعاية مال اليتيم وحفظه وتنميته

بما يعود بالفائدة إليه، فاليتيم ضعيف محتاج إلى غيره حتى يبلغ أشدّه، والوفاء بحقوقه من الوفاء بالعهد. وعندما تسهر الجماعة المسلمة على شؤون الأيتام والأرامل والمساكين والفقراء فإنها تحفظ حياتهم وتجعلهم أناساً صالحين في المجتمع.

أما عن تربية القرآن في مجال المعاملات والبيع والشراء فواضح أن الجماعة المسلمة تتحرك وتتعامل فيما بينها. والمجتمع المستقر المزدهر هو الذي يقوم فيه التعامل على أسس من العدل والأمانة والاستقامة والنظافة في القلب والضمير. ولذلك ذم الله سبحانه المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، وذلك استعجالاً للكسب الفاني والقليل الذي يذهب الثقة ويهدر الكرامة.

والأوامر التي تدعو إلى سلامة الحياة ونقائها كثيرة، كالوفاء بالعهد، وقول الحق ولو على ذوي القربى، واتباع هدى الله، والاقتصاد في الإنفاق والنهي عن التبذير، وعدم إلقاء النفس في التهلكة، وغير ذلك من الأوامر والنواهي التي يحفل بها كتاب الله وسنة نبيه، وكلها تؤدي إلى توفير حياة هانئة سعيدة خالية من القلق والاضطراب والفوضى.

ب ـ تكاثر النوع:

هذا القانون مرتبط بسابقه فالحياة التي يطالب الإنسان بحفظها وصيانتها هي الحياة التي ينشئها المجتمع النظيف الطاهر بين الرجل والمرأة، وهما عماد الأسرة التي تكوِّن الحياة المشتركة بين الجنسين الذكر والأنثى، والله سبحانه شرع الزواج الذي يحقق السكينة والمودة والرحمة وتكاثر النوع من آياته: ﴿ومِن آياتِهِ أنْ خلقَ لكم مِن أنفسِكم أزواجاً لِتَسْكُنوا إليها وجعلَ بينَكم مَوَدّةً ورحمةً إنّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتفكّرون﴾ [الروم: ٢١].

لذلك شرع الإسلام الزواج وحض عليه ليبتغي الناس ما كتب الله

لهم من الذرية وإنشاء الأجيال. ولذلك حضّ الرسول عليه الصلاة والسلام الشباب على الزواج «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1].

فالزواج هو العلاقة الشرعية الوحيدة التي عن طريقها يحفظ النسل ويستمر، فالشخص القادر على الزواج والمستطيع تحمل أعبائه الاقتصادية والاجتماعية والتربوية، عليه أن يؤدي واجبه ودوره في استمرار الحياة وتكاثر النوع. ولهذا جعل الإسلام للأسرة نظاماً كاملاً، فالمرأة مساوية للرجل في الحقوق والواجبات، والرجل هو رب الأسرة ورئيسها ومديرها، لذلك كانت له القوامة وعليه التكاليف المترتبة على هذا الامتياز، والعلاقة في الأسرة قائمة على السكينة والمودة والرحمة والعطاء والبذل والطاعة والتفاهم.

كما أرسى الإسلام الضوابط والنظم التي تحفظ هذه العلاقة في الظروف العادية، كما وضع الحلول للمشكلات التي قد تنجم بين الرجل والمرأة، وتدرج في خطوات العلاج حتى لا تنهار هذه العلاقة بمجرد الخلافات الناتجة من حركة الحياة بين الزوجين.

ولأن الزواج هو الوسيلة الشرعية لتكاثر النوع زيادة على أنه سنّة الرسول ﷺ؛ فإن الرسول ﷺ نهى عن التبتل بمعنى الانقطاع عن النساء عبادة للّه، فعن أنس رضي الله عنه أنه قال: كان النبي ﷺ يأمرنا بالباءة وينهى عن التبتل نهياً شديداً ويقول: «تزوّجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة».

وقد سبق أن ذكرنا أن الإسلام يحرم كل أمر يعوق الحياة ويعطلها ويهدمها، ويحبذ كل أمريدعو إلى إثرائها ونمائها وزيادتها ومن هنا كان تحريمه للتناسل الذي لا يقوم على أساس شرعي، لأنه ضد المحافظة

(١) كتاب النكاح سبل السلام ١٠٩ ج أول. وكتب السنة.

على الحياة، وتشجيعه التناسل الشرعي وتحريمه كل أمر يعوق حفظ النوع واستمراره وتكاثره، لذلك حرّم الإجهاض إلا للضرورة ومنع الإخصاء لما رواه الصحابة من قولهم: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شيء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب. ثم قرأ علينا ﴿يا أيها الذينَ آمَنوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تَعْتَدُوا إنّ الله لا يُحِبُّ المعتدينَ﴾ [المائدة: ٨٧] ـ رواه البخاري ـ.

إن حركة تحديد النسل التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر في أوروبا، حركة مناقضة لقوانين الحياة في زيادة النسل الإنساني وتكاثره. وقد استحدث المجتمع المعاصر وسائل كثيرة للحيلولة دون زيادة النسل، كان من أخطر نتائجها ـ حسب الإحصاء ـ انتشار الفواحش والأمراض الخبيثة المزمنة. وقد كان من نتائج انتشار الزنا وسهولة ارتكابه أنه يولد في كل عام ٨٠ ألف طفل غير شرعي. أما في أمريكا فنسبة أولاد الحلال هي ١ : ٥.

أما عن الأمراض الخبيثة المترتبة على الزنا مثل السيلان والزهري فإنها كثيرة وأخطارها مدمرة للعالم. (ففي مدن أمريكا كلها تقريباً نجد أن الزهري والسيلان في انتشار وتقدم بسرعة لا توصف، وأن أكثر من يفشو فيهم هذان المرضان هم الأحداث من الفتيان والفتيات الذين سنهم أقل من عشرين سنة، بل الحقيقة أن نصف المصابين بهذين المرضين هم هؤلاء الأحداث)[1] وهناك إحصاءات مذهلة عن انتشار الأمراض الخبيثة في العالم يمكن الرجوع إليها في كتاب (حركة تحديد النسل) للشيخ أبي الأعلى المودودي.

وترتب على حركة تحديد النسل أيضاً ضعف العلاقات الزوجية وارتفاع نسب الطلاق والهجر بين الأزواج، وحرمان الأطفال من رعاية

(١) كتاب (مشاكل الإنسان) نقلاً عن المودودي ـ حركة تحديد النسل ص ٣١.

أسرهم وآبائهم وتشرّد الشباب الناشىء في هذه البيئات، وذلك لما للأبناء من أهمية في استمرار العلاقات وازدياد الروابط الأسرية، ولما لانعدامهم من فتور في العلاقات وكآبة ووحشة يشعر بها الزوجان. كما ترتب على هذه الحركة انخفاض نسبة المواليد مع استعمال الموانع وارتفاع نسبة الإجهاض، وقد كان رد الفعل في أمم الغرب واضحاً وأصبحت نسبة المواليد المنخفضة مدعاة للقلق، مما حدا بكثير من الدول إلى البحث عن طريق لجان متخصصة لدراسة تلك الظاهرة ووضع الحلول المناسبة لها فأوصت اللجنة التي شكلت في إنجلترا بما يأتي:

١ ـ أن تمنح كل أسرة مكافأة مالية على قدر ما يكون لديها من الأطفال.
٢ ـ تخفيف وطأة الضرائب على من لديهم عدد من الأطفال.
٣ ـ زيادة عدد حجرات النوم في البيوت.
٤ ـ معالجة مشاكل قلة السكان بواسطة جمعيات.
٥ ـ العمل على رفاه الأسرة الكبيرة ورخائها الاقتصادي عن طريق مشاريع المحافظة على الصحة والأعمال الخيرية.

وقد أُيِّدت مقترحات اللجان بما يحفظ الحياة الاجتماعية والعائلية، وأعطيت للمقترحات صفتها القانونية، ورصدت مكافآت مالية للأطفال وأمهاتهم، وإجازات للعاملات، وتوفير فرص التعليم والعلاج والسكن للمتزوجين من أصحاب الأطفال حتى يزيلوا كل عائق مادي أو تربوي يمنع إنجاب الأطفال أو يحتج به المؤيدون[1].

أما فرنسا فقد أصدرت فيها الحكومة قانوناً يحرم تعليم منع الحمل ونشر المعلومات عن طرقه ووسائله خطابة أو كتابة أو إشارة بالسر أو العلانية، حتى إن الأطباء أنفسهم ملزمون بموجب هذا القانون أن لا يقوموا سرّاً أو علانية بشيء قد ينتج عنه منع الحمل. ولحمل السكان على كثرة التناسل وضعت فيها أكثر من عشرة قوانين، بموجبها تمنح الأسرة ذات

(١) المودودي: حركة تحديد النسل، ط دار الفكر دمشق، ص ٥٢.

العدد الكبيرمن الأطفال مكافآت مالية وتعفيها من بعض الضرائب، وتوفر لها تسهيلات متعددة في الرواتب والأجر والمعايش وفي أجور السفر في القطار، بل هي تمنحها الجوائز والوسائم، وعلى العكس من ذلك تفرض فيها الضرائب الإضافية على الذين لا يتزوجون أو يتزوجون ولكن لا ينجبون ذرية[1].

وكذلك فعلت إيطاليا في عهد موسوليني الذي وضع عقوبات مالية وبالسجن لمدة لمن يفعل أمراً يؤدي إلى منع الحمل.

وكذلك فعلت السويد التي انخفضت فيها المواليد بصورة خطيرة.

أما عن موقف الإسلام فيقول المودودي: (إن قوانين الإسلام للحياة الاجتماعية والاقتصادية مع تعاليمه الخلقية وتربيته الروحانية، قد محت كل سبب أو داعية من تلك الأسباب والدواعي التي لأجلها نشأت ثم تقدمت وانتشرت حركة تحديد النسل في المدنية الغربية، فالإنسان إذا كان مؤمناً بالإسلام مصدِّقاً لتعاليمه وقوانينه من الوجهة الفكرية والعملية، فإنه من المحال أن تنشأ في نفسه رغبة في تحديد النسل، أو تعرض له في حياته ظروف ترغمه على الانحراف عن طريق الفطرة المستقيم)[2].

ويرى المودودي أن امتناع الرجل والمرأة عن الوفاء بالتزاماتهما في الإنجاب وزيادة النسل هو المقصود من قوله تعالى: ﴿وَلآمُرَنَّهُم فَلَيُغَيِّرُنَّ خلقَ اللهِ﴾ [النساء: ١١٩] والقرآن يقول: ﴿نِسَاؤُكم حَرْثٌ لكم فَأْتُوا حَرْثَكم أَنَّى شِئْتُم وَقَدِّموا لأَنْفُسِكم﴾ [البقرة: ٢٢٣] ويقول أيضاً: ﴿وَمِن آياتِهِ أَنْ خلقَ لكم مِن أنفسِكم أزواجاً لِتَسكنوا إليها وجعل بينكم مَوَدَّةً ورحمةً﴾ [الروم: ٢١].

---

(١) المصدر السابق ص ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) أزوالد سوارز ـ نفسية الجنس ص ١٧ نقلاً عن حركة تحديد النسل للمودودي ص ٦٤.

فغرض القرآن من إقامة العلاقة الزوجية واللذة التي يجدانها في الاتصال، إنما هي للإبقاء على النوع البشري وتكاثره وزيادته، وهي المناسبة مع فطرة الإنسان. فإذا لم يتحقق هذا الغرض من الزواج وكانت المتعة هي المقصودة فإنهما يتركبان جريمة قتل النفس وتغييرخلق الله وفطرته. وفي ذلك يقول الدكتور أزوالد شوارز: (من الحقيقة التي لا غبار عليها أن هذه الغريزة إنما هي لإنجاب الذرية وتخليد النسل، إذ من القوانين الثابتة في علم الأحياء أن كل عضو في جسد الإنسان يجب أن يؤدي وظيفته الخاصة المستقلة، حتى يحقق بذلك المهمة التي قد أسندتها إليه الفطرة. وعلى هذا إذا مُنع هذا العضو من أداء وظيفته الخاصة فلا بد أن تتعرض حياة الإنسان لمشاكل مرهقة متعددة، وما يتعلق بهذا البحث أن جسد المرأة لم يخلق في معظمه إلا لوظيفة الحمل والتوليد، فهي إذا منعت أن تعمل لتحقيق هذه الوظيفة الأساسية لنظامها الجسدي والعقلي، فلا بد أن تذهب ضحية الاضمحلال والتذمر والعقد النفسية المتعددة، وعلى خلاف هذا فإنها عندما تصبح أمّاً، تجد جمالاً جديداً وبهاءً روحياً يتغلب على ما قد يعتريها من الضعف والاضمحلال بسبب وضع الطفل وإرضاعه).

إن خطورة هذه الحركة هي في دخولها وانتشارها بين المسلمين، وترويج أجهزة الإعلام والحكومات لها، وقد استغل دعاة التحديد ما يعانيه المسلمون من فقر وسوء ترشيد لتوزيع ثرواتهم التي مَنّ الله عليهم بها، استغلوا فقرهم وروّجوا لهذه الحركة وربطوها بصعوبة التربية والتعليم لعدد من الأولاد، وقلة الدخول ومحدوديتها، وارتفاع تكاليف المعيشة وقلة الموارد، وصعوبة الرقي والتحضر مع كثرة الأولاد، وقد وجدت هذه الأسباب ـ مع ضعف العقائد والإيمان بالله الخالق الرازق المدبِّر المعطي المانع ـ وجدت قبولاً ورواجاً وانتشاراً تحت ظل الأنظمة البعيدة عن منهج الله وشريعته ونظامه الاجتماعي والاقتصادي، كما أنهم وجدوا من يذكر بعض الأحاديث الخاصة بالعزل، والتي لو درست ووُضعت أمام الأحاديث

التي تنفِّر من العزل، لما وجدوا إباحة إلا في ظروف خاصة وحاجات ضرورية لا ترقى إلى مستوى الدعوة الجماعية.

إن تكاثر النوع وزيادته من الوسائل الحقيقية لزيادة الإنتاج وارتفاع مستوى دخل الفرد والاكتفاء الذاتي في القوى البشرية المؤثرة في زيادة الدخل، والأمة الإسلامية أمة حضارة وبناء ودعوة وجهاد، وهذه الصفات تستلزم الدعوة إلى تكاثر النسل وتدريب الكوادر المؤهلة الجيدة لميادين الاقتصاد والدعوة والجهاد والبناء، وفي ذلك يرى المؤرخ ويل درانت أن كثرة السكان من أهم أسباب التقدم المدني، كما يرى المؤرخ الإنجليزي المعروف أرنولد توينبي: أن على زيادة السكان يتوقف تقدم أي حضارة إنسانية. ويقول أورجابنسكي: (إن التضخم العظيم مطلق العنان لعدد من السكان؛ كان له الأثر القوي والقول الفيصل في الارتفاع بأوروبا وجعلها قوة من الدرجة الأولى في العالم، إنه لم يكن من نتائج انفجار عدد السكان في أوروبا بعد؛ أن تهيأت الأيدي العاملة لتسيير حياتها الاقتصادية الصناعية من جانب ومن جانب آخر ظل يتهيأ لها المهاجرون والجنود والعمال للانتشار في العالم وتسيير مختلف دولها المنتشرة في أصقاعه البعيدة المترامية الأطراف حيث كان قد دخل في حوزته السياسية نصف مساحة الكرة الأرضية وثلث عدد سكانها)[1].

إن الأمة المسلمة عليها أن تكرر هذا الدور وهذا الانتشار في العالم، لأن واجبها أن تقدم للعالم منهج الله ونظامه، لأن في ذلك سعادته الدنيوية والأخروية، وما قوة الصين الشعبية ونظرة العالم لها إلا من خلال العدد الهائل لسكانها وتوجس العالم منهم، وإن أعداء الإسلام لا يهابون إلا تزايد عد المسلمين الذي سيؤدي إلى قوتهم. وعن ذلك تقول مجلة التايم الأمريكية في عددها بتاريخ ١١/١/١٩٦١م (الحقيقة أن سيادة

(١) حركة تحديد النسل ص ١٧٠.

أوروبا السياسية تتوجس خطراً سياسياً شديداً من تزايد السكان في آسيا والعالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الجاري)[1].

إن قوى الشرك والصليبية والاستعمار والشيوعية والصهيونية العالمية كلها أعداء يتربصون بالعالم الإسلامي، ويحيكون الدسائس والمؤامرات التي تعطله عن بناء قوته الاقتصادية والسياسية والعسكرية. ومن أهم المعوقات التي يركزون عليها، الدعوة إلى تحديد النسل في الوقت الذي تحرِّم الصليبية واليهودية على أتباعها تحديد نسلهم، بل تطلب فيها إسرائيل من دول العالم مدّها بالرجال لتزيد من قوتها العسكرية والسكانية، والعالم لا يعترف اليوم إلا بمنطق الأقوى والأشد، ولا شدة ولا قوة بعد الله إلا بزيادة الكفاءة السياسية والقتالية للعالم الإسلامي، ولا سبيل إلى ذلك كله إلا بتكاثر النوع وزيادة السكان.

ج ـ قانون الارتقاء الروحي والعقلي:

أما بالنسبة لقانون الارتقاء الروحي والعقلي فإن الإسلام يدعو الإنسان إلى المحافظة على عقله الذي كرّمه الله به وميزه عن الحيوانات الأخرى، لذلك حرّم عليه كل شيء يؤدي إلى فقدانه لهذه الخاصة المميزة له، فحرّم عليه المسكرات والمخدرات باعتبارها عوامل هدم للمجتمع وقتل لمواهب الإنسان وصرف للطاقات البشرية في غير الوجهة التي يجب أن توجه إليها، وهي تتنافى مع مطالبة الإنسان بالسمو الروحي الذي هو من مميزات الإنسان وهي خاصة تمنحه السكينة والطمأنينة ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطمئِنُّ القلوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وترفعه عن الخلود إلى الأرض واتباع الشهوات والانغماس في الحياة المادية ﴿إنَّ الصلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمنكرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

إن فقدان التربية الروحية للإنسان يؤدي به إلى الانحلال والفوضى وسيطرة الشهوات وانتشار الأدواء الاجتماعية مثل الحسد والبغضاء والكذب

(١) حركة تحديد النسل ص ١٧٤.

والنفاق الخ. إذ أن الجانب الروحي في حياة الإنسان يمثل إحدى حاجاته الطبيعية التي تبعده عن كثير من الأمراض المادية وتحقق له السعادة في الدنيا والآخرة وتسمو نفسه إلى درجات الكمال والنماء والرقي. والعبادات التي فرضها الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج وخضوع كامل لله، هي الطريق إلى السمو الروحي والكمال العقلي ووسيلة إلى السعادة في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة ﴿إنّ الذِينَ آمَنوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَأقامُوا الصلاةَ وآتَوا الزكاةَ لهم أجْرُهم عِنْدَ رَبِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحْزَنونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

إن الإسلام قد كلف الإنسان بتكاليف وواجبات تتناسب مع طاقته وتميزه عن الحيوان وغير الحيوان ممن عجزت طاقاتهم عن القيام بواجب تلك التكاليف، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿إنّا عَرَضْنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنها وَأشْفَقْنَ مِنها وَحَمَلَها الإنسانُ إنّهُ كان ظَلوماً جهولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والإنسان بتحمله عبء التكاليف والقيام بها؛ قد ميز نفسه عن الحيوان، فهذه التكاليف والواجبات ما هي إلا تمييز لإنسانية الإنسان وإعزاز لمكانته وتأكيد لتكريم الله له عن سائر المخلوقات. والذي ميّز الإنسان وجعل له هذه الخاصة هو تميُّزه من الناحية العقلية والروحية والأخلاقية، فإذا تخلى الإنسان عن حمل هذه التكاليف غلّب صفات الحيوان في شخصه، وأصبح كما وصفه القرآن من الأنعام أو الدواب ﴿إنّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الذِينَ كَفَرُوا فهم لا يؤمنون﴾ [الأنفال: ٥٥]. ﴿إنّ شَرَّ الدوابِّ عندَ اللهِ الصمُّ البُكْمُ الذِينَ لا يَعقلونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]. بل إنهم قد يكونون في منزلة أقل من الأنعام ﴿إنْ هُم إلا كالأنعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ سَبيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤]. وأهم مظاهر هذا الرقي هو التحلي بحسن الخلق ولين الجانب وتزكية النفس وإصلاحها وتطهيرها باعتبارها أهم الحاجات التي اقتضت إرسال الله الرسل للناس إذ يقول تعالى: ﴿هوَ الذي بَعَثَ في

الأُمِّيِّينَ رَسُولاً منهم يَتلو عليهم آياتِهِ وَيُزَكِّيهم وَيُعَلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِن قبلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. ويقول: ﴿كَمَا أَرسَلْنا فيكم رَسُولاً منكم يَتلو عليكم آياتِنا وَيُزَكِّيكم وَيُعَلِّمُكم الكتابَ وَالحكمةَ وَيُعَلِّمُكم ما لم تكونوا تَعلمونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

فالله سبحانه وتعالى يذكِّر عباده ما أنعم به عليهم من إرسال الرسول محمد ﷺ، ليتلو عليهم آيات الله المختلفة بمدلولاتها ومظاهرها المتباينة «ليطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن. والحكمة وهي السنة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقول الغراء فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته إلى حال الأولياء وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً وأبرّهم قلوباً وأقلّهم تكلفاً وأصدقهم لهجة».

وقال تعالى: ﴿لقد مَنَّ اللهُ على المؤمِنين إذ بَعَثَ فِيهم رَسُولاً منهم يَتْلُو عليهم آياتِهِ وَيُزَكِّيهم﴾ [آل عمران: ١٦٤]. ولمن يعرف قدر هذه النعمة ويقدرها يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ بَدّلُوا نعمةَ اللهِ كُفْراً وأَحَلُّوا قومَهم دارَ البَوار﴾ [إبراهيم: ٢٨]. قال ابن عباس: يعني بنعمة الله، محمداً ﷺ[1]. ولأن الله سبحانه ذكر هذه النعمة نعمة إرسال الرسول ﷺ طلب الله مقابلة تلك النعمة بما يجب له من شكر وذكر فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم وَاشْكُروا لِي وَلا تَكفرون﴾ [البقرة: ١٥٢]. وحين نتدبر اللفظ (يزكيهم) نجد أن المقصود بالتزكية انتزاع ما هو غير مرغوب فيه، وتعزيز ما هو مرغوب به، فهي إذن تعديل للسلوك بلغة التربية الحديثة.

والقرآن يقدم التزكية على التعليم كما هو واضح من ترتيب السياق ويجعلها مقدمة له تسهل التعليم وتعززه ﴿قد أفلحَ من تَزَكّى﴾ [الأعلى: ١٤]. وجاء أيضاً ﴿وَنفسٍ وَمَا سَوّاها فألهمهَا فُجُورَها وَتَقْوَاها قَدْ أفلحَ مَن زَكّاها﴾ [الشمس: ٧ ـ ٩].

(١) تفسير ابن كثير ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ج ١.

وفي ميدان التزكية هذه تشدد التطبيقات النبوية على الابتعاد بالفرد عن البيئات التي تتنكر للقيم الإسلامية وعن مؤسساتها الثقافية والتوجيهية والوظيفية ابتعاداً يستهدف توفير نـوع من الحمايـة الفكريـة والروحيـة والسلوكية، ويمكّن التربية الإسلامية من الانفراد بإعادة تشكيل سلوكه[1].

وفي سبيل هذه التزكية اتخذت التطبيقات التربوية الإسلامية ثلاث خطوات:

أولها: تعديل السلوك بإبعاد المسلم عن المنابع الدينية الأخرى وتوحيد المنبع الذي يستقي منه المسلم وهو القرآن ومخالفة المظاهر الحياتية لغير المسلمين.

وثانيها: إبعاد المؤثرات الثقافية الخارجية من أنماط التفكير والقيم والعادات والتقاليد والتصورات.

ثم الخطوة الثالثة وهي: (الشروع بتعديل السلوك غير المرغوب به وتعزيز ما هو مرغوب به.

ويلاحظ أن القرآن الكريم والسنة الشريفة قد حددا للنفس ثلاث مراتب يتدرج الفرد خلالها حتى يبلغ السلوك العاطفي والعقلي والعملي منتهاه المرغوب به. وهذه المراتب هي: مرتبة الإسلام وتستهدف تعديل السلوك، ثم مرتبة الإيمان حيث يتدعم السلوك الظاهر بالإيمان الباطن، ثم مرتبة الإحسـان حيث تتناسق مهـارات التفكير مـع تطبيقـات الجوارح وانفعالات الشعور وتتضافر جميعها لإخلاص العبودية للّه وإصابة الحق في كل ميدان من ميادين العبادة أو العمل وبذلك تتضافر جميع أنماط السلوك لتعزيز الموقف الذي تحدده أهداف التربية الإسلامية)[2].

ومرحلة الإيمان التي ذكرها الأستاذ ماجد عرسان والتي يطلب فيها مطابقة المخبَر للمظهَر هي التي عبّر عنها القرآن الكريم في الآية ﴿قالَتِ

(١) ماجد عرسان الكيلاني ـ تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ص ٤١.
(٢) المصدر السابق.

الأعرابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤمِنوا ولكن قُولُوا أَسْلَمْنا ولمّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قلوبِكم﴾ [الحجرات: ١٤].

أما المرحلة الثالثة فهي التي عبّر عنها الرسول ﷺ بقوله: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١] أو التي قال فيها: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس»[٢].

ولو استعرضنا التكاليف والأوامر التي أمرنا الله بها لوجدناها في نهاية الأمر كمال السلوك وقمة الاستقامة وغاية الرقي الروحي والعقلي وصلاح الفرد والأمة. فالصلاة والصيام والزكاة والحج ومراعاة حقوق الله كلها من إيمان بذاته وصفاته وأفعاله ورسله وملائكته وكتبه وبعثه وحسابه وجنته وناره وحلاله وحرامه ونصر شريعته والجهاد لإقامة حكمه وإعلاء كلمته، ومراعاة أوامر الله في طاعة الوالدين وحقوقهما وبرهما والدعاء لهما وتفقد أمورهما ما داما على قيد الحياة، ثم مراعاة حقوق الزوجة والأولاد من إحسان وبر ونفقة وتربية وهداية، ثم حقوق الأقارب والجيران والمسلمين عامة، ثم حقوق الدولة الإسلامية والجماعات.

كل هذه الأشياء هي التي تؤدي إلى الإنسان الكامل الخلق الموجه لطاقاته التي أودعها الله فيه في اتجاهها الصحيح، وكلها في النهاية تؤدي بالإنسان إلى تحقيق سر وجوده على هذا الكون وهو عبادة الله وحده خالق هذا الكون الذي سخّره لعباده ليكونوا سادة الكون وعبيد الله..

إن الرقي الكامل لا يتم بمجرد الجهود التي يبذلها الفرد لإصلاح نفسه والسموّ بها والترفّع بها عما يهين آدميته ويذهب عقله، ولكن جهود الأمة والدولة كلها يجب أن تتجه إلى ذلك. فإذا كان العلم المجرد يرى ضرراً كبيراً على إنسانية الإنسان من إباحة الخمور وأنواع الدخان والانقياد

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الترمذي.

وراء الشهوات بلا رابط، فإن أنظمة الحكم وقوانين الجماعات يجب أن تحرم ذلك صيانة لعقل الإنسان وكرامته وإنسانيته، وإذا كان التفكير الحر المعقول حقاً يميز آدمية الإنسان، فإن الأنظمة التي تحجر التفكير وتمنع النقد والمناقشة والتأمل كالمجتمعات الشيوعية والاشتراكية وتوابعها والأنظمة التي تبيح التفكير بلا قيود ولا ضوابط كلها تحط من قدر العقل وإنسانية الإنسان.

والقرآن قد جاء بدعوة لتحرير العقل البشري من قيود الحجر كلِّها قديمة وحديثة، وأنكر على الذين يعطلون هذه الخاصة خاصة التفكير في أنفسهم ﴿وإذا قِيلَ لهم اتَّبِعُوا ما أنزلَ الله قالوا: بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنَا عليه آباءَنا أَوَلَوْ كان آباؤُهم لا يَعقلونَ شيئاً ولا يَهتدونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وقوله: ﴿قالوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا ﴾ [الأعراف: ٧٠].

ويحدثنا القرآن أن ضلال البشرية راجع إلى تعطيلها لعقلها وتقديسها لتقاليد وديانات سابقيها ولو كانوا على غير الهدى، وهذا سر رفضهم لكل دين جديد جاء لتحرير عقولهم والسمو بأرواحهم وربطهم بالله سبحانه وتعالى «خالق الكون» ﴿بَلْ قالوا إنا وَجَدْنا آباءَنا على أُمَّةٍ وإنّا على آثارِهِم مُهْتَدُونَ. وكذلكَ ما أرسَلْنا مِن قَبْلِكَ في قريةٍ مِن نذيرٍ إلا قالَ مُتْرَفُوها إنّا وَجَدْنا آباءَنا على أُمّةٍ وإنّا على آثارهم مُقْتَدُونَ. قال أَوَلَوْ جِئْتُكم بأهدى ممّا وَجَدْتُم عليه آباءَكم قالوا إنا بما أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرونَ﴾ [الزخرف: ٢٢ ـ ٢٤].

لذلك كله دعا القرآن إلى تحرير العقل البشري والتأمل في ملكوت الله والكون بنظامه وتنسيقه وآياته وحقائق الوجود الدالة على عظمة الخالق المدبر المنسق ﴿إنّ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، واختلافِ الليلِ والنهارِ، والفلكِ التي تَجْري في البحرِ بما ينفعُ الناسَ، وما أنزلَ الله مِنَ السماءِ مِن ماءٍ فأحْيَا بهِ الأرضَ بعدَ مَوْتِها، وَبَثّ فيها مِن كُلِّ دابّةٍ، وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المسخَّرِ بينَ السماءِ والأرضِ: لآياتٍ لقومٍ يَعقلونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والنظر في الكون والتأمل في ملكوت الله، جعل كثيراً من علماء الغرب فضلاً عن المسلمين يؤمنون بأن لهذا الكون خالقاً ولنظامه مدبراً يقول (أوبختون): (إن من وراء هذا الكون عقلاً مدبراً حكيماً، هذا العقل هو الروح الأعظم، هو الله سبحانه وتعالى). ويقول العالم (بليغن) في كتابه (العلم ينظر إلى السماء): (إن الكون كله بنجومه المختلفة الأحجام التي لا حصر لها، والتي تندفع في جميع الاتجاهات كأنها شظايا قنبلة متفجرة؛ صورة لا يكاد المرء يتخيلها حتى يدركه البهر وتنقطع أنفاسه، ولكن يبدو أن الأجدر بأن يبهر ويقطع الأنفاس؛ هو رؤية هذا الحيوان البشري الضئيل الذي يعيش على شظية من شظايا نجم صغير، في زاوية صغيرة من زوايا مجرة لا تختلف شيئاً عن الملايين من أمثالها، هذا الحيوان يجرؤ على أن يسمو ببصره إلى إطراق الفضاء، يجرؤ فيتحدى ثم يجرؤ فيحاول أن يعرف سر الكون)[1].

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وفي أنْفُسِكم أَفَلا تُبْصِرونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

إن ارتقاء الإنسان عقلياً وروحياً هو الوسيلة لسعادته في الدنيا والآخرة، لأن الإنسان في حاجة إلى الحياة الروحية كحاجته للمتطلبات المادية، والعقل والروح هما الميزان للإنسان عن بقية المخلوقات، إذ أن معرفة الله سبحانه والمداومة على ذكره والامتثال للواجبات الروحية التي فرضها على عباده هي التي تضفي على حياة المرء البهجة والمسرة والرضا والاطمئنان في الدنيا والنجاة والفلاح في الآخرة وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أعرضَ عَنْ ذِكْري فَإنَّ له مَعيشَةً ضَنْكاً﴾ هذا في الدنيا أما في الآخرة ﴿وَنَحْشُرُه يومَ القِيامةِ أعْمَى قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أعْمَى وَقَدْ كنتُ بَصِيراً قالَ كذلكَ أتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وكذلكَ اليومَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

(١) نقلاً عن محمد شديد ـ منهج القرآن في التربية ص ٩٤.

رابعاً: مرتكز المسؤولية والجزاء

تربية الإحساس والشعور بالمسؤولية من الأمور التي بنت التربية الإسلامية ركائزها عليها، وذلك لما للإحساس بالمسؤولية وغرسها في النفوس وممارستها في الواقع من أثر كبير في تربية الأفراد والمجتمعات، والمسؤول هو الشخص الذي يتحمل نتيجة أعماله وتصرفاته أمام الله سبحانه وتعالى وأمام نفسه ومجتمعه. وعلى مدى الالتزام بهذه المسؤولية أو عدم الالتزام بها يكون الجزاء خيراً أو شراً. والمسؤول في الإسلام هو الراعي كما بيّنه الرسول ﷺ في حديثه «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسؤولة عن رعيتها. والخادم في مال سيده راعٍ وهو مسؤول عن رعيته»[1].

فالمسؤوليات تتدرج لتشمل الفرد والأسرة والجماعة والحاكم والعامل، مما يدل على أن الراعي هو كل شخص في موقع المسؤولية أياً كانت المسؤولية المناطة به، والمسؤولية بهذا المعنى تشمل كل فرد من أفراد الأمة توفرت فيه الأهلية للتكاليف والوعي بنفسه وسلوكه وواجباته في الحياة.

والعرب يطلقون كلمة (الراعي) على من ينظر إلى الأشياء بعين

(١) رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي عن ابن عمر مرفوعاً.

المصلحة والخير. والقرآن استعمل الكلمة في دلالتها الحقيقية ﴿كُلُوا وَارْعُوا أَنْعَامَكُم﴾ [طه: ٥٤]. والمجازية ﴿والذينَ هُمْ لأماناتِهم وَعَهْدِهِم رَاعُون﴾ [المعارج: ٣٢]. وارتباط المسؤولية بالأمانة كثير في القرآن باعتبار أن الأمانة تشمل كل الواجبات المناطة بالإنسان في الحياة إزاء رَبِّه أولاً ثم إزاء نفسه وأسرته ومجتمعه، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَخُونوا اللهَ والرسولَ وتَخونوا أماناتِكم﴾ [الأنفال: ٢٧]. والأمانة هنا كما يقول ابن عباس: الأعمال التي ائتمن الله عليها العبادَ من فرائض وغيرها[1].

ولذلك يشترط الإسلام في الشخص المسؤول شروطاً تبيِّن الأهلية كشرط العقل والبلوغ والحرية في الإرادة والاختيار والقبول والرفض والقدرة على التحمل، فالمجنون غير مطالب بالمسؤوليات وكذلك الصغير والذي لا يملك إرادة نفسه أو لا يستطيع تنفيذ اختياراته ولذلك أخرج الإسلام من دائرة المسؤولية المجنون والنائم والناسي والمضطر ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه﴾ [البقرة: ١٧٣] وكذلك ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فإنَّ رَبَّكَ غفورٌ رحيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] كما أخرج ما تتحدث به نفس الإنسان من هواجسٍ ووساوس إلا إذا ترجمت أحاديث النفس إلى أفعال، فعندما نزل قول الله تعالى: ﴿للّه ما في السمواتِ وما في الأرضِ وإنْ تُبْدُوا ما في أنفسِكم أو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وهرعوا إليه يتساءلون عن مؤاخذتهم على حديث نفوسهم وهواجس قلوبهم، فطلب منهم أن يسمعوا ويطيعوا، فنزلت الآيات التالية لها. قال ابن عباس: (فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها وصار الأمر إلى أن قضى الله عز وجل أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل)[2].

(١) ابن كثير ص ٣٠١ ج ٢.
(٢) ابن كثير ص ٢٣٩.

فالمسؤولية على قدر طاقة الإنسان وقدرته ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها﴾ وتكاليف الإسلام كلها من واجبات وفرائض وسنن وغيرها لا تجد فيها أمراً خارجاً عن طاقة الإنسان، فهي تكاليف ليست شاقة ومتعبة بحيث يعجز عنها الإنسان وليست سهلة وبسيطة بحيث يستهتر بها الإنسان ويستهزىء، وهو مع مسؤوليته غير محاسب على النسيان والخطأ ﴿رَبَّنا لا تُؤَاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطَأْنا، رَبَّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصراً كما حَمَلْتَه على الذِينَ مِن قَبْلِنا، رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

بل إن الإسلام جعلَ مسؤولية الإنسان عما تحدثه به نفسه من معصية في صالحه إذا تخلى عن ذلك خشية للّه وتذكراً له، ففي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها سيئة. وإذا همّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً».

والأحاديث حول هذا المعنى كثيرة وكلها تدل على ربط المسؤولية بالسلوك العملي، ولكن الإسلام يوضح فرقاً بين ما تقدم وبين نوع من أحاديث النفس المرتبطة بالإرادة وسبق الإصرار كما يقولون وهو نوع من السلوك يؤاخذ عليه الإنسان في الإسلام سواء ارتبط بالعمل أم لم يرتبط وهو الذي قال فيه الله تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغوِ في أَيْمانِكم ولكنْ يُؤاخِذُكم بما كَسَبَتْ قلوبُكم﴾ [البقرة: ٢٢٥] أو قوله: ﴿ولكنْ يُؤاخِذُكم بما عَقَّدْتُم الأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩] وقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» والمقتول مؤاخذ لأنه دخل تحت طائلة الشروع في القتل وسبق العزم والإصرار على القتل إلا إذا كان دفاعاً من المقتول أو القاتل عن نفسه.

وحديث المسؤولية السابق يوضح أن الإنسان في الإسلام لا تقتصر مسؤولياته على نفسه، وإنما تتدرج هذه المسؤوليات من الفرد إلى الأسرة إلى الجماعة إلى الحاكم أو الراعي. ففي مسؤولية الفرد نحو أسرته يقول

الله تعالى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاةِ وَاصْطَبِرْ عليها﴾ [طه: ١٣٢]. ﴿وكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاةِ والزكاةِ وكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ [مريم: ٥٥] ﴿يا أَيُّها الذِينَ آمَنوا قُوا أنفسَكم وأهلِيكم ناراً وَقُودُها الناسُ والحجارةُ﴾ [التحريم: ٦] ويقول الرسول ﷺ: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيّع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»[1].

وبما أن أقل عدد تتكون منه الأسرة فردان هما الزوج والزوجة، فإن لكل واحد منهما مسؤولياته، وكذلك الأبناء والأقارب إن كانت الأسرة كبيرة، وقد وضع الإسلام المسؤولية الكبرى في الأسرة على عاتق الزوج باعتباره المتولي لزمام القيادة والنظام والتوجيه للأسرة والمسؤولية عنها أمام الله والمجتمع، وعلى عظم المسؤوليات والتكاليف تكون الامتيازات الممنوحة للرجل، ومنها امتياز القوامة ومقابل هذا الامتياز، الامتيازُ الذي منح للمرأة وهو إطلاق صفة الصلاح عليها إن قامت بواجبها وأعانت زوجها على مسؤولياته والله تعالى يقول: ﴿الرجالُ قوّامونَ على النساءِ بما فضَّلَ اللهُ بعضَهم على بعضٍ وبما أَنْفَقُوا مِن أموالِهم فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغيْبِ بما حَفِظَ اللهُ﴾ [النساء: ٣٤].

وهذه القوامة قد حددها الله تعالى من خلال الوظائف والخصائص النفسية والعضوية والعقلية لكل من الرجل والمرأة، وهما يمثلان نفساً واحدة واختص كل واحد من شطري النفس بتكاليف وأعباء حسب استعداداته الفطرية وخصائصه العقلية والعاطفية، لأن الرجل والمرأة يكوِّنان مؤسسة تسمى بالأسرة فإن رئاسة هذه المؤسسة هي القوامة والقوامة بهذا (وظيفة، داخل كيان الأسرة، ولإدارة هذه المؤسسة الخطيرة، وصيانتها وحمايتها. ووجود القيم في مؤسسة ما، لا يلغي وجود ولا شخصية ولا حقوق الشركاء فيها والعاملين في وظائفها)[2].

---

(١) ابن حبان.

(٢) سيد قطب في ظلال القرآن ص ٦١ ج ٥ م ٢.

وقد حدد الرسول ﷺ مسؤوليات كل من الزوجين في خطبة الوداع حيث يقول: «أما بعد: أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً: لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبيّنة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح. فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت»[١].

فمسؤوليات الزوج تتمثل في حسن الخلق والمعاشرة والتحمل وضبط النفس والمودة والملاطفة وحسن الظن والإنفاق بحسب الاستطاعة ﴿لِيُنْفِق ذو سَعَةٍ مِن سَعَتِه وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمّا آتاهُ اللهُ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا ما آتاها سَيَجْعَلُ اللهُ بعدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ [الطلاق:٧] وكذلك العدل إذا عدّد الزوجات، وهو العدل فيما يملك مثل العدل في النفقة وفي المبيت دون العاطفة والحب.

أما الزوجة فمسؤولياتها واضحة في الخطبة وهي طاعة الزوج إلا في معصية، وعدم مخالفته في حدود قدرتها وإمكاناتها، والمحافظة على بيته وماله وعرضه، وتوفير سبل الراحة المادية والمعنوية له، وعونه على الدنيا والآخرة، وتحبيب نفسها إليه، وإحسان عشرته وإطراء معروفه، فهي راعية ومسؤولة أمام الله عن رعيتها.

أما مسؤولية الآباء نحو الأبناء فكثيرة أهمها اختيار الاسم الصالح المعبِّر عن أمله فيهم، وتغذية أجسامهم بالغذاء وأرواحهم وعقولهم بالعلم والمعرفة والفضائل والقيم والأخلاق الحسنة والتربية الشاملة القائمة على حسن العقيدة وسلامة الضمير والخوف من الله. أما مسؤولية الأبناء فعظيمة وجسيمة، والقرآن قد أكثر من وصاية الأبناء بالآباء ولم يوصِ الآباء

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٠٤.

بالأبناء، لأن إحساس الآباء فطري وعطاءهم مطلق وحبهم غريزي، لذا كانت وصية القرآن للأبناء أما الآباء فقد وُصّوا مرّتين في مشكلة قتل الأبناء ﴿وَقَضَى رَبُّكَ ألاّ تَعْبُدوا إلاّ إيَّاهُ وبالوالدَين إحساناً إمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أحَدُهُما أو كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهما أفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا وقُلْ لهما قَوْلاً كَريماً وَاخْفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ مِن الرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

وفي حديث ابن مسعود يقول: «سألت النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ فقال: الصلاة على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: برّ الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»[1].

فرَبّ الأسرة مسؤول عن كل فرد من أفراد أسرته رعاية وعناية وتربية وتعليماً وتوجيهاً في حدود طاقته وقدراته، حتى يخلي بذلك مسؤوليته أمام الله سبحانه وتعالى.

أما المسؤولية الجماعية فإن الفرد مسؤول عن تصرفات أعضاء الجماعة وسلوكهم باعتبار الجماعة وحدة واحدة لها شخصيتها الاعتبارية. ولأن الأمة الإسلامية أمة دعوة ورسالة فإن أولى المسؤوليات المناطة بها هي القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يقول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أمَّةٍ أُخرجَتْ للناسِ تَأْمُرونَ بالمعروفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ، وَتُؤمِنون باللهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ﴿وَلْتَكُنْ منكم أمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخيرِ وَيَأمرونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ وأولئكَ هُمُ المفلحون﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضهُم أولياءُ بعضٍ يَأمُرونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ﴾ [التوبة: ٧١]. ويقول عن بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ الذينَ كَفَروا من بَنِي إسرائيلَ على لسانِ داودَ وعيسى بنِ مَرْيَمَ ذلكَ بِما عَصَوْا

(١) رواه البخاري ج ٨ ص ١٦٣.

وكانوا يَعْتَدُونَ، كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ منكرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانوا يَفعلون﴾ [المائدة: ٧٨].

ولأن انحراف الأفراد يؤدي إلى فساد المجتمع فقد عقب الرسول ﷺ على الآية السابقة بقوله: «كلا والله لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، ولتأخذنّ على يد الظالم، ولتأطرنّه على الحق أطراً، ولتقصرنّه على الحق قصراً، أو ليضربنّ الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم»[1] وفي هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتنةً لا تُصِيبَنَّ الذينَ ظَلموا منكم خاصةً واعلموا أنّ الله شديدُ العِقاب﴾ [الأنفال: ٢٥]. ولأن المسلمين في توادّهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، فإن الرسول ﷺ شبّه الجماعة بالجسد لتضامنها في مسؤولياتها، وشبهها بالسفينة وبمسؤولية الجماعة عنها بصفتهم الجماعية لا الفردية فقال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً»[2].

وقد أخذت كل النظريات الحديثة في الأخلاق بما قرره الإسلام من أن حرية الأفراد ليست مطلقة بل مقيدة بقيود كما أخذ بها في (إعلان حقوق الإنسان) وعرّفت الحرية فيها بأنها (القدرة على عمل شيء لا يضر بالغير) وحقوق الغير في الإسلام تشمل حق الله أولاً، ثم المجتمع أفراداً وجماعات، وإزالة المنكر أمر جعله الرسول ﷺ من مسؤوليات الأفراد في الجماعة وواجباتهم بالطرق المتاحة لهم «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[3].

(١) رواه أبو داود والترمذي.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم.

ومجاهدة الخارجين عن الإسلام والمنحرفين في السلوك دليل على الإيمان فالرسول ﷺ يقول: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1] والمسؤوليات الجماعية كثيرة في الإسلام، وفي القرآن والسنة المزيد لمن أراد ذلك.

أما المسؤولية الفردية فإن الفرد المسؤول هو من توفرت فيه صفات الأهلية للقيام بمسؤولياته، والمسؤوليات المناطة بالفرد المسلم تتميز بالوسطية بين الصعوبة والسهولة كما أسلفنا، ولم يكلف الله عباده بمسؤوليات تفوق إمكاناتهم وقدراتهم الجسدية والعقلية والنفسية، لأن الله يريد لعباده اليسر ولا يكلف نفساً فوق طاقتها والرسول ﷺ يطلب من المسلمين أن يمتثلوا وينفذوا الأمور التي نهى عنها وأن يؤتوا من أوامره ما يستطيعون، والإنسان مسؤول أمام الله سبحانه عن نفسه وهو وإن كان مسؤولاً عن تصرفات الآخرين وسلوكهم من حيث التوجيه والإنكار والأخذ بيدهم، إلا أنه غير مسؤول عما وقع من أعمالهم، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ولا تَكْسِبُ كلُّ نَفسٍ إلا عَلَيهَا ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ويقول: ﴿وكُلَّ إنسانٍ ألزمْناهُ طائرَهُ في عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يَلقاهُ منشوراً اقْرَأ كتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليومَ عليكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤].

أما مسؤولية الراعي أو الحاكم أو الدولة فتتمثل أساساً في: تنفيذ شريعة الله ومنهجه في الحياة، وإقامة حدوده وأحكامه، وصيانة حقوق المسلمين والسهر على مصالحهم، ودرء الفساد في كل أنواعه.

---

(١) رواه مسلم.

ويتمخض عن المسؤوليات السابقة نوع الجزاء الذي يترتب على العمل الذي قام به الفرد باختياره وإرادته ومارس فيه الحرية التي أعطاها الله له، لأن الفرد المسلم تقوم تربيته على أساس مراقبة الله سبحانه وتعالى الدائمة، في سِرِّه وعلانيته خيره وشرِّه، وأنه مثاب على الخير ومعاقب على الشر. وهذا الإحساس هو ضابط السلوك بالنسبة للفرد الذي يعلم أن الله مطلع على كل صغيرة وكبيرة ﴿يَعلَمُ خائنةَ الأعْيُنِ وما تُخفِي الصدورُ﴾ [غافر: ١٩].

ولذلك صوّر القرآن حال المجرمين يوم القيامة وشفقتهم وخوفهم من ذلك الإحصاء الدقيق المتناهي في الدقة، والذي يحصي عمر الإنسان بالثواني إن عمل مثقال ذرة من خير وجده، وإن عمل مثقال ذرة من شر وجده ﴿وَوُضِعَ الكتابُ، فَتَرَى المجرمينَ مُشفِقينَ مِمّا فيهِ ويقولونَ يا وَيْلَتَنا ما لهذا الكتاب لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها وَوَجَدوا ما عَمِلوا حاضراً ولا يَظلمُ رَبُّك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩]. لأن المحصي والمحاسب هو الله سبحانه وتعالى الذي أحاط علمه بدقائق الأمور ولطائفها محسّة وغير محسّة ﴿إنّها إنْ تَكُ مِثقالَ حَبّةٍ مِن خَرْدَلٍ فَتَكُنْ في صخرةٍ أو في السمواتِ أو في الأرضِ يأتِ بها اللهُ إن الله لطيفٌ خبيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]. كيف لا يكون ذلك وهو الذي يقول عن ذاته العلية: ﴿ما يكونُ مِن نَجْوَى ثلاثةٍ إلا هوَ رابعُهم ولا خمسةٍ إلا هوَ سادسُهم ولا أدنى مِن ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم أينما كانوا﴾ [المجادلة: ٧].

إن العقل الإنساني لا يقبل الظلم ولا يرضى به، والعدالة تقتضي إثابة المحسن وعقاب المسيء، والله قد حرّم الظلم على نفسه وجعله محرماً بين الناس ووعد بالجنة وهو لا يخلف وعده. ولأن العدالة تقتضي انتفاء المساواة بين الخبيث والطيب والمحسن والمسيء والصالح والطالح والمؤمن والكافر يقول الله تعالى: ﴿إن الذينَ يَضِلّون عَن سبيلِ اللهِ لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يومَ الحسابِ. وما خَلَقْنا السماءَ والأرضَ وما بينهما

باطلاً ذلكَ ظَنُّ الذينَ كَفَروا فويلٌ للذينَ كَفَروا مِن النارِ أمْ نجعلُ الذينَ آمَنـوا وَعَمِلوا الصالحـاتِ كالمفسِـدينَ في الأرضِ أم نجعلُ المتّقينَ كالفُجّار﴾[ص: ٢٦ ـ ٢٨] ويقول: ﴿أمْ حَسِبَ الذينَ اجْتَرَحُوا السيئاتِ أن نجعلَهم كالذِينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ، سواءٌ مَحياهُم ومَمَاتُهم ساءَ ما يَحكمونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

والفرد الذي وعده الله بالثواب أو العقاب يأتي يوم القيامة وحده ﴿وكلُّهم آتِيهِ يومَ القيامةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٥]. ﴿ولقد جِئتُمونا فُرادَى كما خلَقْناكم أوّلَ مَرّةٍ وتَركتُم ما خَوّلناكُم وراءَ ظُهورِكم﴾ [الأنعام: ٩٤]. فإذا وجد خيراً حسْب ما قدّم، كان مصيره الجنة والنعيم المقيم. وإذا قدّم شرّاً كان مصيره ما يستحقه من عقاب الله. والقرآن قد فصّل ذلك كثيراً وبيّن جزاء المحسن والمذنب، إلا أن الله سبحانه وتعالى لا يثيب إلا بمضاعفتها لمن يريد والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما لا يعلم قدره إلا الله، وقد يغفر الله لمن يشاء من عباده الذنوب دون الكفر فإنه لا يغفره ﴿إنّ الله لا يَغفـرُ أن يُشْـرَكَ بـهِ ويغفـرُ مـا دونَ ذلـكَ لمَن يشـاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. ولأن الشرك بالله ليس من الذنوب فإنه يقول: ﴿لا تَقْنَطوا مِن رحمةِ اللهِ، إنّ اللهَ يَغفرُ الذنوبَ جميعاً﴾ [الزمر: ٥٣].

والجزاء قد يكون في الدنيا أو الآخرة أو فيهما معاً، كما أنه قد يكون قصاصاً يقوم به وليّ الأمر، وقد يكون مباشرة من الله في الدنيا بالهلاك كما حدث لعاد وثمود وغيرهم من الأمم التي قصّ القرآن أخبارها، وقد يكون بالأمراض والأوبئة أو الذل والاستكانة والضلال، أو الابتلاء بفقدان السكينة والأمن والاستقرار، والانحلال الخلقي من حسد وبغض ونفاق وشقـاق ومجانة وخيانة ورشوة ومحسوبية.

إن السعادة والشقاء في الدنيا والآخرة تتوقفان على مدى التزام المسلم والمسلمين بمنهج الله وتربيته ونظامه وأحكامه وأوامره ونواهيه مراعاة ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿يومَ يأتِ

لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإذنِهِ فمنهم شَقِيٌّ وسعيدٌ فأما الذين شَقُوا ففي النارِ لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ. خالدِينَ فيها ما دامتِ السمواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ رَبُّك إنّ رَبَّك فعّالٌ لما يريد. وأما الذين سُعِدُوا ففي الجنةِ خالدِين فيها ما دامتِ السمواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ رَبُّك عطاءً غيرَ مجذوذٍ﴾ [هود: ١٠٥ - ١٠٨].

ولأهمية الجزاء في سلوك الإنسان فإن الله سبحانه وتعالى رغّب في الخير وحثّ عليه، وربط مصير الإنسان في حياته الدنيا والآخرة بمدى التزامه بالعمل والسلوك المرغوب فيه أو غير المرغوب فيه، أذ أن العقل البشري لا يتصور عدم الجزاء على ما يعم الحياة من خير ورحمة ومودة وإخاء أو ما يكدّرها من ظلم وشر وفرقة واستعباد وبعد عن الله.

أما بالنسبة للجزاء الدنيوي فالقرآن يقرر أن في القصاص حياة للناس. وقد قسم بعض الباحثين العقوبات إلى مؤيدات فطرية تتمثل بالعقوبة التلقائية التي تترتب على مخالفة أمر الله وربانيته وهي عقوبة القهر الإلّهي في الدنيا أو الثواب والعقاب في الآخرة ففيه يقول الأستاذ سعيد حوى: (إن أي انحراف عن أي جزء من أجزاء الإسلام يحمل في طياته عقوبته التي تحيق بالمنحرفين عنه، فمن رفض العبودية للّه عاقَبَتْه سنن الله بأن تجعله عبداً للإنسان، ومن غشّ ليربح عاقَبَتْه سنن الله بأن يفقد الثقة ويخسر، ومن فرّط في واجب اليوم عاقَبَتْه سنن الله بمضاعفة التعب في يوم آخر، وهكذا فما من انحراف عن أي جانب من الإسلام إلا تقابله عقوبة تليق به في الدنيا، لأن الانحراف عن قوانين الله في الكون والإنسان والاجتماع دائماً ليس لصالح الإنسان بل هو تدمير له أو تعذيب)[1].

ثم ضرب الباحث عشرة أمثلة من عقوبات الفطرة على أمثلة من الانحراف عن أمر الله ليوضح هذا المؤيد القوي من مؤيدات الإسلام. وهذا عين ما يقصد إليه الدكتور الكسيس كارل في كتابه تأملات في سلوك

(١) سعيد حوى ـ الإسلام ص ٧ ج ٤.

الإنسان إذ يقول: (وليس من العسير أن الخطيئة انتهاك إرادي أو غير إرادي لقوانين الحياة، وقوانين الحياة صارمة صرامة قوانين اختلاط الغازات وسقوط الأجسام. ولما كان انتهاك هذه القوانين لا يعاقب عليه إلا بعد مضي زمن من وقوعه وبطريقة خفية، فإن الإنسان لم يدرك بعد فداحة النتائج التي تترتب على الخطيئة، فكل خطيئة تؤدي إلى اضطرابات عضوية أو عقلية أو اجتماعية، وهي اضطرابات لا يمكن علاجها على وجه العموم، وإذا كانت التوبة لا تشفي تليّف الأنسجة لدى السكير أو الأمراض العصبية لدى أولاده فإنها تعجز أيضاً عن إصلاح الاضطرابات الناجمة عن الحسد والإسراف الجنسي والغيبة والنميمة والبغضاء، كما أنها كذلك لا تبعد الشقاء عن الشواذ الذين يولدون لأبوين مصابين بالعيوب، فالخطيئة تؤدي إن عاجلاً أو آجلاً إلى التدهور والموت، التدهور للجاني نفسه أو للوطن أو للنوع. ولهذا يجب على كل فرد أن يكون قادراً على التمييز بين الخير والشر)[1].

إن التربية الإسلامية وقد وضعت كل فرد من الأمة في موقع المسؤولية التي يترتب عليها المحاسبة، والجزاء يتناسب مع القوانين الطبيعية في الكون والنزعات الفطرية في الإنسان، إذ أن الإنسان يريد أن يرى نتيجة أعماله وثمار جهده لأن العمل يكون على قدر الثواب في الدنيا، فكيف بالآخرة؟!..

التربية على الجزاء:

الإيمان بالجزاء جزء من الإيمان باليوم الآخر الذي هو شرط من شروط الإسلام نزل به الرسل جميعاً، ولولا إيمان الإنسان باليوم الآخر وما فيه من حساب لما رغب الناس ونشطوا في أداء تكاليف الدين ومسؤولياته، ولما تجنبوا النار وما يقرِّب إليها من قول أو عمل، والإنسان بغريزته لا يتجه إلى عمل أو يعرض عنه ما لم يعلم ما يترتب على العمل

(١) راجع سعيد حوى الإسلام ـ المؤيدات الفطرية ص ٧ ـ ٦٢.

من نفع وعلى الترك من ضرر. والإسلام لا يربي الفرد على فعل العمل أو تركه تبعاً لمقاييس الاستحسان والاستبشاع البشري الدنيوي المرتبط بالحياة الدنيا، بل يربيه على أن يربط الاستحسان بما يرضي الله سبحانه وتعالى وإن لم يكن له نفع منه في الدنيا، والاستبشاع بما يسخط الله سبحانه وإن ترتبت عليه منفعة له في الدنيا.

إنه هدف الحياة الأخرى، مجازاة الناس على أعمالهم في الدنيا حسنة أو سيئة، لأن أعمالهم كلها محفوظة مسجلة، ولا نود أن نتحدث عن الذي توصّل إليه العلماء من الشعور واللاشعور في الإنسان، ولكننا نذكر قول الله سبحانه وتعالى ﴿ما يلفظُ من قولٍ إلاّ لَدَيْهِ رقيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وهذه الآية تربي المسلم على أنه مسؤول عن كل ما يلفظ به من الكلام مهما كان نوعه أو أداته، وقد ثبت علمياً أن أصوات البشر كلها باقية في الأثير ويمكن سماعها في المستقبل فيما لو نجح الإنسان في اختراع آلة تفرق بين الأصوات.

أما أعمال الإنسان القلبية أو اللسانية أو العضوية فكلها مسجلة ومصورة بدقة تامة، فإذا كانت الأقمار الصناعية تسجل حركة الحياة كلها على الأرض ليلاً أو نهاراً، بل تصوِّر الموجات الحرارية في الفضاء، فإن ذلك دليل واضح على أن تحركات الإنسان كلها مسجلة، وقد أثبت العلم إمكانية تصوير أعمالنا (إن كل شيء حدث في الظلام أو في النور ـ جامداً كان أو متحركاً ـ تصدر عنه «حرارة» بصفة دائمة في كل مكان وفي كل حال، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماماً كالأصوات التي تكون عكساً كاملاً للموجات التي يحركها اللسان. وقد تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تخرج عن أي كائن، وبالتالي تعطي هذه الآلة صورة فوتغرافية كاملة للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية Heat Waves).

وصدق الله العظيم حين ذكر على لسان المشركين قولهم: ﴿يا وَيْلَتَنا

ما لهذا الكتاب لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجَدوا ما عَمِلوا حاضراً ولا يظلمُ رَبُّك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩][1].

والتربية على أن الله يجازي الناس بأعمالهم أمر يقرّه العقل، بل لا يرى غيره لأننا نجد في الحياة من يفعلون الخير ولا يجدون جزاءهم فيها، بل قد يكون فعل الخير والدعوة إليه سبباً في تركهم لهذه الحياة، بينما نجد أناساً لا يفعلون إلا الشر ينعمون بهذه الحياة ويهنؤون بها ولا يجدون من يجازيهم على سوء أعمالهم أو ظلمهم، مما يجعل العقل في يقين من أن الأمور لا تنتهي بالموت ومفارقة الدنيا فلا بد من جزاء على الخير والشر، لأن الله سبحانه جعل الدنيا دار ابتلاء وامتحان فابتلاهم بالخير والشر والغرائز والأهواء، وأنزل الرسل بالضوابط التي تحدد معاني الخير والشر، وأعطى الإنسان حرية الاختيار ومطلق الإرادة فيما ينهج من سلوك ويتبع من طريق يترتب عليهما مسؤوليته في تحمل الجزاء يوم القيامة.

والتربية على الجزاء مرتبطة بتربية المسلم على الخوف من الله والرجاء فيه والرغبة في جنته والرهبة من عذابه، والخوف لا يكون إلا من الله سبحانه وتعالى وليس من مخلوق من مخلوقاته ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إنّما ذلكمُ الشيطانُ يُخَوِّفُ أولياءَه فلا تَخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فالمؤمن لا يعتمد على صلاح أعماله لأنه لا يعلم ما قُبل منها وما لم يُقبل، ولا ييأس من رحمة الله لأنه ضد الإيمان، ولكنه يُقبِل على الحياة بين الخوف والشفقة والرجاء والأمل حتى يظل يقظ النفس مرهف الإحساس سليم الوعي لا يستكين لنزعات الشيطان ومتاهات الغفلة والنسيان، وقد جعل الله هذا من صفات المؤمنين ﴿والذينَ هُم مِن عذابِ رَبِّهم مُشفِقون. إن عذابَ رَبِّهم غيرُ مأمون﴾ [المعارج: ٢٧ - ٢٨]. فالشفقة من خشية الله والخوف منه يملآن قلب المؤمن بالحذر واليقظة

(١) الإسلام يتحدى ص ٩٢.

والتطلع إلى العمل الأفضل والمقامات العالية: ﴿إنّ الذينَ هُم مِن خَشْيَةِ رَبِّهم مُشفقونَ، والذينَ هم بآياتِ رَبِّهم يُؤمِنونَ. والذينَ هُم بربِّهم لا يُشركونَ والذين يُؤتونَ ما آتَوْا وقلوبُهم وَجِلَةٌ أنهم إلى ربِّهم راجعونَ أولئكَ يُسارِعونَ في الخيراتِ وهم لها سَابقونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

فعدم الاستكانة إلى العمل والإحساس الدائم بالتقصير واستصغار العبادة مهما عظمت بالمقارنة مع الاستحقاق ومع عظمة الخالق، كل ذلك دوافع للوجل والخوف والرجاء والأمل، الأمر الذي يدفعهم دائماً إلى المسارعة إلى فعل الخير والمسابقة في الطاعات والقربات.

الآثار التربوية للإيمان بالجزاء:

١ ـ التضحية والبذل:

المؤمن متيقن أن كل جهد يبذله ابتغاء مرضاة الله سيكون له رصيد في كتاب أعماله، وهذا اليقين هو الذي يجعله كثير التضحية واسع البذل. إن الغايات العظيمة في الحياة لا يصل الناس إليها إلا بالتضحيات العظيمة والبذل بلا حدود، والله سبحانه وتعالى أعدّ أحسن الجزاء لكل جهد يبذله البشر في سبيله مهما دق أو صغر في نظرهم و الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ذلكَ بأنّهم لا يُصِيبُهم ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ اللهِ. ولا يَطؤونَ مَوْطِئاً يَغيظُ الكفارَ، ولا يَنالونَ من عدوٍّ نَيْلًا إلا كُتبَ لهم به عملٌ صالحٌ، إنّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنينَ. ولا يُنفقونَ نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً، ولا يقطعونَ وادياً إلا كُتبَ لهم لِيَجْزِيَهم اللهُ أحسنَ ما كانوا يَعملون﴾ [التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١]. فالجزاء هنا شامل لأنواع المجاهدات والتضحيات التي تقدَّم للّه سبحانه وتعالى خالصة له، وذلك كله نتيجة تربية المسلم على البذل والعطاء تطلعاً لما عند الله من الجزاء.

ولقد كان لوعد الله للمجاهدين والشهداء أعظم الأثر في توجه هذه النفوس لنصرة دينه وإعلاء كلمته، يدفعهم حافز الجزاء الأخروي والرغبة فيما أعد الله لمن باعوا نفوسهم له، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إنّ اللهَ اشْتَرَى مِن المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم بأنَّ لهمُ الجنةَ يُقاتِلونَ في سبيلِ اللهِ

فَيَقتلون ويُقتلونَ وَعْداً عليهِ حَقّاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ وَمَن أوْفَى بعهدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكم الذي بايَعْتُم بهِ وذلكَ هوَ الفوزُ العظيمُ﴾ [التوبة : ١١١].

فاعتبار التضحية في سبيل الله صفقة رابحة ماضية هي التي تجعل النفوس تحوِّل القول إلى عمل والفكرة إلى واقع معاش، والعبد لا يد له فيما يبيع ولا سلطان له على البائع ولكنه تكريم الله وتقديره لمن آمنوا به وبثوابه وعقابه وطمعوا في جنته ورضوانه فضحّوا طواعية بحياتهم ووهبوا أرواحهم لباريها، بل يعدِّل الإسلام مفهومات البشر عن الموت والتضحية في سبيل الله فيقرر أن أول جزاء يتلقاه من بذلوا أرواحهم في سبيل الله أنهم أحياء يرزقون كما يرزق الأحياء ويعيشون مثلهم مشاعر الاستبشار والفرح وما أعد الله لهم من الجزاء ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً بلْ أحياءٌ عندَ رَبِّهم يُرْزَقونَ. فَرِحينَ بمـا آتاهُمُ اللهُ مِن فضلِهِ ويَستبشرونَ بالذينَ لم يَلْحَقُوا بهم مِن خلفِهم ألّا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنونَ يَستبشرون بنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ وأن الله لا يُضيع أجرَ المؤمنينَ، الذينَ اسْتَجابوا لله والرسولِ مِن بعدِما أصابَهُمُ القَرْحُ للذينَ أحسَنوا منهم واتَّقَوا أجرٌ عظيمٌ. الذينَ قالَ لهم الناسُ إن النـاسَ قد جَمَعُـوا لكم فَاخْشَوْهُمْ فزادَهم إيماناً وقالوا حَسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيلُ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٣].

وهكذا يمكن أن تتصل سلسلة الجهاد والبذل في حياة المسلمين ما دام إيمانهم بما عند الله قوياً، وما دامت استجابتهم مستمرة لدين الله وهدي رسوله، وما داموا مترفعين عن الاعتبارات الأرضية والحسابات البشرية ولا يخافون إلا من الله كافئهم ووكيلهم.

وقد تكون التضحية بمكاسب الدنيا وأعراضها التي يتسابق الناس فيها رجاء ما عند الله فيضحي المسلم بنفسه وماله وهذه أعلى درجات التضحية، وقد يكون البذل بالمال وحده أو النفس وحدها أو بشيء له قيمة في مقادير البشر يتنازل عنه المسلم ابتغاء وجه الله، وقصة أبي الدحداح

مع رسول الله ﷺ حينما نزلت الآية ﴿مَن ذَا الذي يُقرضُ اللهَ قَرْضاً حسناً فَيُضاعِفَهُ لهُ ولهُ أجرٌ كريمٌ﴾ [الحديد: ١١] معروفة حيث أقرض ربَّه حائطاً فيه ستمائة نخلة وأخرج أولاده منها لأنه لم يعد مالكاً، وتجيبه زوجه أم الدحداح (ربح بيعك يا أبا الدحداح) حتى قال الرسول ﷺ: «كم من عـذق رداح في الجنة لأبي الدحداح»[1].

وهكذا ربى الرسول ﷺ أصحابه على العمل بالقرآن فور نزوله، والتضحية بما يملكون مهما عظم ما ملكوا في أقدار البشر وأعرافهم.

وقد يكون جزاء التضحية والبذل عطاء من الله في الدنيا ورضاً وتمكّناً في الأرض وعزة ومنعة في الحياة ﴿يا أيها الذينَ آمَنوا هَلْ أدُلُّكم على تجارةٍ تُنْجِيكم مِن عذابٍ أليمٍ . تُؤمِنون بالله ورسولِهِ وتُجاهدونَ في سبيلِ الله بأموالِكم وأنفسِكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تَعلمونَ. يَغفرْ لكم ذنوبَكم وَيُدْخِلْكم جناتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ ومساكنَ طيبةً في جناتِ عَدْنٍ ذلكَ الفوزُ العظيمُ. وأخرى تُحبّونَها نصرٌ مِنَ اللهِ وفتحٌ قريبٌ وَبَشِّرِ المؤمنينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

٢ ـ بذل الجهد في العمل مرضاة للّه:

الإيمان بالجزاء يدفع المسلم إلى بذل أقصى طاقته وقدرته في سبيل العمل سواء أكان العمل للدنيا أم للآخرة، فالمؤمن يؤدي عمله الذي يكتسب منه أجره بإتقان وأمانة ومراقبة للّه لأنه سيحاسب على هذا العمل وأنه مطالب بإتقانه وإجادته وإحسانه، فهو إلى جانب الكسب المادي ينتظر كسباً آخر على إخلاصه في عمله ورعايته لحق العمل ومحافظته على الأموال العامة أو أموال المسلمين والله سبحانه يقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكم ورسولُه والمؤمنونَ وسَتُرَدُّونَ إلى عالمِ الغَيْبِ والشهادةِ فَيُنَبِّئُكُم بما كنتم تَعملونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

(١) مختصر تفسير ابن كثير ص ٤٤٨ مجلد ٣.

فالمؤمن لا يكتفي في أعماله بمطالب الدنيا ورغائبها ولكنه يتطلع إلى ما هو أسمى من ذلك وأكبر، وهو مرضاة الله وجزاؤه، والله سبحانه وتعالى يبذل عطاءه لعباده باختلاف مطالبهم وتفاوت نواياهم، فإذا كان عملهم للدنيا ونعيمها وشهواتها ورغائبها كان الجزاء دنيوياً، وإن كان العمل للآخرة بتكاليفها ومشقاتها وتبعاتها كان جزاؤه مما أحب. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَن كانَ يُريدُ العاجِلَةَ عَجَّلْنا لهُ فيها ما نشاءُ لِمَن نريدُ ثم جَعَلْنا لهُ جهنمَ يَصلاها مَذموماً مدحوراً. وَمَن أرادَ الآخرةَ وسَعَى لها سَعْيَها وهو مؤمنٌ فأولئكَ كانَ سعيُهُم مشكوراً. كُلًّا نُمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ مِن عطاءِ رَبِّك وما كانَ عَطاءُ رَبِّك محظوراً﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢٠]. «والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيَها، فيؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، ويقيم سعيه لها على الإيمان، وليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل. والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذائذ الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية. ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه فلا يكون عبداً لهذا المتاع»[1].

إن قيمة (التربية على الجزاء) هو سر توفق المسلم في الاستعداد الدائم للعمل وتوجيه طاقاته وإمكاناته في سبيل الواجب، ولو ترك أمر الجزاء إلى الجماعة أو الدولة انتفت من العمل صفة الإتقان والخوف، لأن الوطنية لا تراقب السرائر ولأن القلب الخالي من الإيمان لا ضابط له ولا رقيب ومن ثم لا إخلاص فيه.

ويمتاز الجزاء الأخروي على العمل باستيفائه لكل عمل يقدم عليه المسلم أو ينوي القيام به أو يهمّ به مجرد همّ، والمسلم متيقن أنه سيجد عمله كله من غير خطأ أو نسيان، بل إن الله سبحانه وتعالى جعل للمخلص في عمله جزاء في الدنيا يلقاه ويسعد به وهو ما يحس في نفسه

(١) ظلال القرآن ص ٢٢١٨ المجلد الرابع.

من سعادة ورضا وما يجده من الآخرين من احترام وتقدير وما يجده في كسبه المادي من بركة ونماء، فالإنسان يعمل في الدنيا أعمالاً ثم يجد من يظلمه في تقدير هذا العمل ومكافأته بل قد يجد من يسرق عمله وينسبه إلى نفسه أو رئيسه أو مجموعته، ولكن العمل الذي يقدم للّه لا يظلم فيه ولا ينسب لغيره ولا يقاس بمقادير البشر في العدل وموازينهم المعتمدة على ظواهر الأعمال ﴿وَنَضَعُ الموازينَ القِسطَ ليوم القيامةِ فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً وإن كانَ مِثقالَ حَبّةٍ مِن خَرْدَلٍ أتَيْنا بِها وَكَفَى بنا حاسِبين﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٣ - تربية النفس على الإحسان والشكر:

عندما تربط النفوس جزاءها بالله سبحانه وتعالى تنفتح أمامها أبواب من الخير وتوجه إلى الإحسان وفيض من الأعمال الصالحة، فالنفس تنصرف إلى أعمال الخير حبّاً للّه وتقرّباً إليه، لأن الله سبحانه يحب المحسنين، والمحسنون يقومون بصالح الأعمال شكراً للّه وامتناناً وعرفاناً بالجميل على الخلق والرزق والنعيم الذي لا يعدّ ولا يحصى، ولأن الإحسان هو الوصول إلى الكمال البشري في العمل، جعله الرسول ﷺ أعلى مراتب السلوك الإيماني حين عرّف الإحسان في حديث جبريل بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وهذا قمة ما يتطلبه الإسلام من المسلم بالمقاييس الإسلامية، وأصحاب الإحسان من وصفهم الله في القرآن بأوصاف كثيرة مثل ﴿وما كانَ قولَهم إلا أن قالوا: رَبَّنا اغفرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنا في أمْرِنَا وَثَبِّتْ أقدامَنا وانْصُرْنا على القومِ الكافرينَ فآتاهمُ اللهُ ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثوابِ الآخرةِ واللهُ يحبُّ المحسنين﴾ [آل عمران: ١٤٧ - ١٤٨].

فقمة الإحسان هو صدق الإيمان وقبول الابتلاء والاستغفار الدائم للّه، والإحساس بالقصور وطلب الثبات على الجهاد، ولذلك كان جزاء الإحسان في الدنيا: يقيناً، وثباتاً، ورضاً، واطمئناناً، وتيسيراً لأمور الحياة، وثمرات ينعم بها المحسنون، وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿للذِينَ

أحسَنوا في هذه الدنيا حسنةٌ وَلَدَارُ الآخـرةِ خيرٌ وَلَنِعمَ دارُ المتّقين﴾ [النحل: ٣٠].

أما جوانب الإحسان التي نصّ عليها القرآن فلأهميتها ولأن ترويض النفوس عليها تربية لها وإحسان وعبادة للّه تعالى ﴿واعبُدوا الله ولا تُشركوا بهِ شيئاً، وبالوالدينِ إحساناً، وبذي القربَى، واليَتامَى، والمساكينِ، والجارِ ذي القُرْبَى، والجَارِ الجُنُب، والصاحِب بالجنب، وابن السبيلِ، وما مَلَكَتْ أيْمـانُكم إنَّ اللهَ لا يحبُّ من كانَ مُختـالاً فخوراً﴾ [النسـاء: ٣٦]. بـل يشمل الإحسـان كل أمـر حسن من الفعل والقـول ﴿وإذ أخَذْنا ميثاقَ بَني إسرائيلَ لا تَعبدونَ إلا الله وبالوالدينِ إحساناً، وذي القربى واليتامى والمساكينِ وقولوا للنـاسِ حُسْناً﴾ [البقـرة: ٨٣]، بل يشمـل الإحسان ما هـو أشمل من العبـادات المفروضـة والمطلوبـة كما ذكـر الرسول ﷺ «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»(١).

ولأن الإنسان بفطرته يجازي بالشكر من أحسن إليه، كان شكر الله من آثار التربية الإيمانية في نفسه، لأن الشكر قيام بتكـاليف الدعـوة ومتطلبات الإيمان وعرفان للّه بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، وترجمة هذا الشكر فعلاً ممثلاً في العبادة المطلقة للّه، ولأن الإنسان بطبعه مجبول على قلة الشكر الذي هو نقصان العمل والركون إلى الهوى يقول الله تعالى: ﴿اعْمَلوا آلَ داودَ شُكْراً وقليلٌ مِن عبادِيَ الشكورُ﴾ [سبأ: ١٣]. فالشكر إيمان واعتراف قلبي يترجمه العمل الممثل في العبادة، ولذلك كان الأنبياء يسألون الله إلهامهم الشكر وتسهيله لهم ﴿رَبِّ أَوْزِعْني أنْ أشكرَ نعمتَكَ التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأنْ أعملَ صالحاً تَرضاهُ وأدْخِلْني برحمتِك في عبادِكَ الصالِحينَ﴾ [النمل: ١٩]. والحياة كلها ابتلاء من الله سبحانه وتعالى واختبار للهمم التي تتنافس على مرضاة الله ورضائه وأداء حق

---

(١) رواه مسلم.

الشكر له عملاً وعبـادة وممارسةً للحرية التي أعطاها الله له ليظهر شكره أو جحوده وكفوره، فقد هدى الله الإنسان ليبرز جوانب الخير فيه شكراً أو جوانب الشر كفراً ﴿قالَ هذا مِن فضل رَبِّي لِيَبْلُوَني أأشكرُ أمْ أكفرُ وَمَن شكرَ فإنما يشكرُ لنفسهِ وَمَن كفرَ فإن ربي غنيٌّ كريمٌ﴾ [النمل: ٤٠] فالله في غنى عن شكر العبد أو عبادته، والعبد في حاجة إلى الشكر لأنه يشكر لنفسه، ومن شكر زاده الله خيراً وبركةً ورضاً واطمئنانـاً وقبولاً، ومن كفر عذبه عذاباً شديداً بعد أن سخّر الله له الكون كله علّه يشكره. والله سبحانه يقول: ﴿وَاذْكُروني أذكرْكم وَاشْكروا لي ولا تَكفرونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. والشكر كما يقول الشهيد سيد قطب: (درجات تبدأ بـالاعتراف بفضله والحياء من معصيته، وتنتهي بالتجرد لشكره والقصد إلى هذا الشكر في كل حركة بدن، وفي كل لفظة لسان، وفي كل خفقة قلب وفي كل خطرة لسان)[1].

فالإنسان في تربيته لنفسه على الشكر يتدرج في مراحل ثلاث:

الأولى: شكر المنعم على نعمه وأفضاله واعترافه بها في حياته ﴿وأما بنعمةِ رَبِّك فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

والثانية: ترك المعاصي واجتنابها حياءً من الله وخجلاً، وقد أنعم عليه وأجزل، فلا يقابل نعمه بجحود ونكران ومخالفة له بالمعاصي.

والثالثة: شكر الله الدائم المجرد في حركة الحياة كلها وإخلاص العبادة له لاستحقاقه للعبادة. وهذه هي التي كان عليها الرسول ﷺ وأصحابه حين سئل عن كثرة الصلاة حتى تورمت قدماه وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فأجاب: «أفلا أكون عبداً شكورا؟».

وعن منزلة الشاكر والشاكرين يقـول ابن القيم: (وهي من أعلى

---

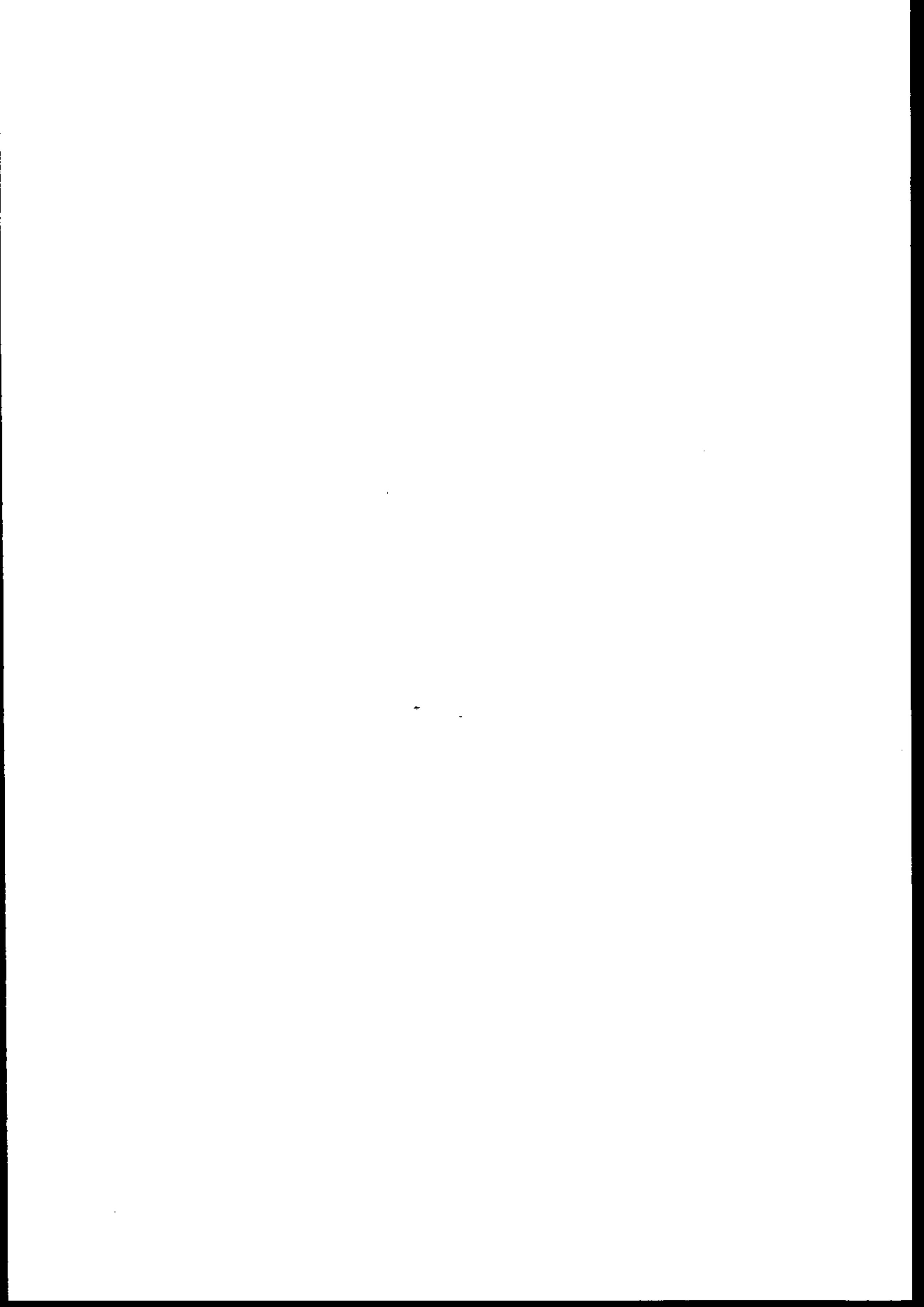
(١) في ظلال القرآن ص ١٤٠ م الأول.

المنازل: وهي فوق منزلة الرضا، وزيادة. فالرضا مندرج في الشكر إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان ـ كما تقدم ـ والإيمان نصفان: نصف شكر ونصف صبر. وقد أمر الله به، ونهى عن ضده وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه، فإنه سبحانه هو «الشكور» وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً، وهو غاية الرب من عبده. وأهله هم القليل من عباده)[1] قال الله تعالى: ﴿وَاشْكُروا نعمةَ اللهِ إن كنتم إياه تَعبدون﴾ [النحل: ١١٤]. وقال عن نوح عليه السلام ﴿إنه كانَ عبداً شكوراً﴾ [الإسـراء: ٣]. ثم يقول معرفاً الشكر: (وكذلك حقيقته في العبودية. وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحه انقياداً وطاعةً)[2].

* * *

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ٣٨٣.
(٢) تهذيب مدارج السالكين ص ٣٨٤.

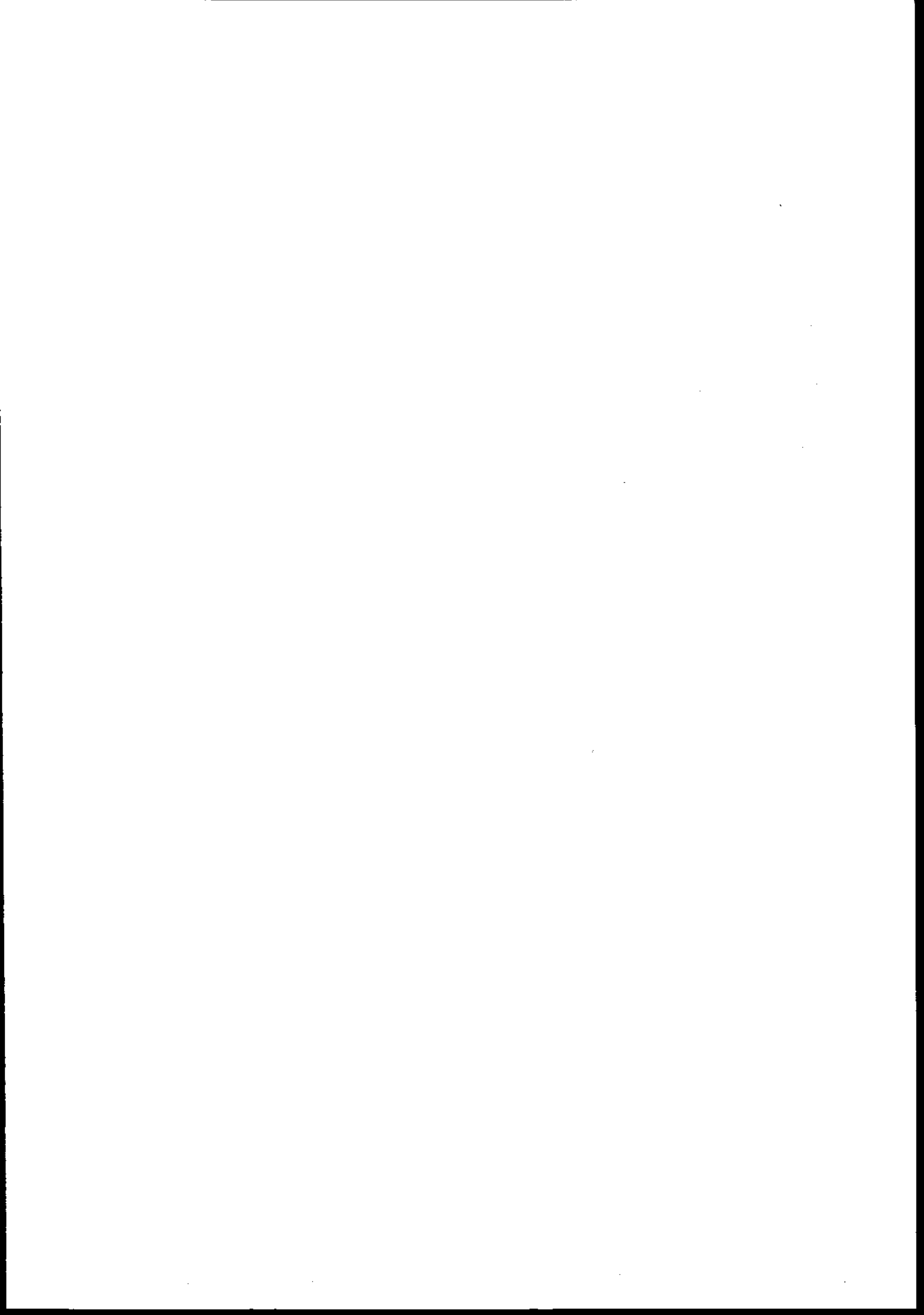


الفصـل الرابع

الأهداف الأساسية للتربية
في الإسلام

مقـدّمـة

١ ـ التَّربية الأخلاقيَّة.
٢ ـ إخلاص العبادة لله.
٣ ـ نشر العلم والثقافة.
٤ ـ العمل والحث عليه.
٥ ـ تربية روح المسؤولية والشورى.



مقـــدمـــــة

أخذت التربية المطبقة في البلاد الإسلامية أهدافها من نظريات (جون ديوي) وتلاميذه ممن يرون التربية (وظيفة اجتماعية بمعنى أنها من ضروريات كل جماعة إنسانية تريد أن تحافظ على بقائها وتتطور في سلم الرقي، وأنها يجب أن تتم في ضوء فلسفة اجتماعية وفي مواقف اجتماعية كذلك، وأن الغاية من التربية هي إيجاد مواطنين يقومون بـالوظـائف الاجتماعية التي منها الإبقاء على الثقافة وترقيتها وإصلاح عيوبها)[1] ويفهم من هذا أن هدف التربية هو إيجاد مواطن صالح تكون مهمته الإبقاء على ثقافة الجماعة وتهذيبها ونقلها، وأن هذه الجماعة هي التي تضع لنفسها الفلسفة التي ترتضيها والمعرفة التي تعمل لنموها والعقلية التي تريـد تكوينها، والقيم والمثل التي تريد من الأفراد أن يتمسكوا بها والمهارات التي يراد منهم إتقانها[2].

وقد نجد اختلافاً في الأهداف التي تعمل التربية لها باختـلاف المفاهيم التي تكوِّن منطلقات التربية. فأصحاب المفهوم الاجتماعي هم الذين يرون أن هدف التربية اجتماعي كمـا سبق أن ذكرنـا، وهؤلاء

(١) وليم كلباترك ـ أصول المنهج الجديد ص ١١ ـ ١٢ ترجمة الهادي عفيفي وأبو الفتوح رضوان.

(٢) نحو منهج إسلامي في التربية. بحث في محاضرات الجامعة الإسلامية لعام ٧٩ ص ٣٨٠. للمؤلف.

يعضدون موقفهم القائل بأن التربية نقل للتراث الاجتماعي وحفاظ عليه، لأن واجبات التربية الأساسية هي المحافظة على تراث الأجيال ونقلها بغثها وسمينها. ويرى هؤلاء أيضاً أن التربية تهدف بالإضافة إلى ما سبق العمل على تقدم المجتمع وتطوره لأن الحياة متغيرة ومتطورة، وما يرثه المجتمع ليس شيئاً مقدساً وإنما الغرض أخذ الصالح منه وتطويره لما هو أحسن وأجدى.

أما المثاليون فيرون في أهداف التربية اهتماماً بالمحافظة على المثل العليا للمجتمع أخلاقية كانت أو قومية أو إنسانية أو اقتصادية، لأن هذه المثل هي نتاج الدين والحضارة والتاريخ والثقافة والخبرات الإنسانية وعلاقات الأمم والأفراد، فالإبقاء على هذه المثل ونقلها للأجيال هو هدف التربية الأساسي، وهؤلاء يرون في هذه المثل تمثيلاً لجوانب الحق والخير، وأن الأديان والفلسفات إنما جاءت لتأييدها، وأنها قابلة للتطور والتقدم، وأنها هي التي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات.

أما أصحاب المفهوم الفردي للتربية فيرون أن أهم أهداف التربية هي إعداد الفرد من جوانبه المختلفة لحياته المقبلة، وذلك بتوجيهه إلى الاستفادة من خبرات الجماعة السابقة وخبراتها الحالية التي ابتكرتها في مواجهة ظروف الحياة الجديدة وطرق التعامل، كما أنها تساعد الفرد على أن يبقى بالشكل الأمثل الذي يتمناه لبقائه بحيث تتيسر له متطلباته الفسيولوجية وتطلعاته لحياة أيسر وأسهل خالية من التعقيدات والصعوبات.

وكذلك تهدف التربية الفردية إلى تحقيق غايات الإنسان وأهدافه بالشكل الذي يقره المجتمع ولا يتنافى مع مثله وأخلاقياته. ولذلك يجب على التربية أن تعمل على إبراز الميول والاستعدادات والمواهب الكامنة في الطفل وتنمية هذه المواهب وصقلها وتوجيهها، إذ أنها هي الأدوات للوصول إلى تحقيق الأماني الفردية ولذلك يقول (هربارت): (التربية تكوين الفرد من أجل ذاته، بأن نوقظ فيه ضروب ميوله الكثيرة) أما

(فرنسيس بيكون) فيرى أن أهم أهداف التربية هي وجوب إعادة تربية الإنسان بطريقة علمية، لأن التربية القائمة على العلم جديرة بأن تحسن ظروف الحياة المادية، وأن تسعد الناس وتعمل على رفاهتهم، وإذا استطاعت المدارس أن تنشر المعرفة أدى ذلك إلى حل المشكلات المحيرة للبشرية لأن المعرفة قوة، فإذا تحسنت معارف الناس تحسنت أحوالهم. و (جان جاك روسو) هو الذي نادى بأن هدف التربية هو تكوين إنسان كامل وأن على التربية أن تزيل كل شيء لتنمو الطبيعة الإنسانية وترقى. فالتربية وسيلة لإزالة كل شيء يعوِّق نمو الطفل ويؤثر فيه تأثيراً سيئاً.

وإذا نظرنا إلى أهداف التربية في البلاد الإسلامية من خلال أهدافها المعلنة نجدها تعمل على تهيئة الفرد للعمل الذي يكسب منه عيشه والمهنة التي يمتهنها في الحياة، والمجتمعات الإسلامية لا تؤمن بتربية لا تهيىء أبناءها للوظائف.

كما تهدف التربية إلى الاهتمام بالناحية الجسمية والأخلاقية وتهدف أيضاً إلى إيجاد المواطن الصالح أو ما يسمى (بحسن المواطنة).

وقد جعلت بعض البلاد العربية أهدافاً للتربية أهمها التحرر السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، ولا يتم ذلك إلا بتوفير سبل التعليم لكل فرد في الأمة. كما تهدف التربية إلى التقدم العلمي وبناء نهضة عربية على أساس من العلم والمعرفة والأخذ بالتكنولوجيا الحديثة للانتقال من عصر التأخر الذي تعيش فيه إلى عصر الصاروخ.

وتهدف التربية العربية أيضاً إلى خدمة القومية العربية وتنشئة المواطن الصالح الصحيح الذكي المؤمن ببلده والمستعد للتضحية في سبيل وطنه وإنسانيته.

وقد حدد ميثاق الوحدة الثقافية العربية الذي أقره وزراء التربية والتعليم العرب في بغداد في مايو سنة ١٩٦٤، ثم أقرته جامعة الدول

العربية أهداف التربية والتعليم في الدول العربية فيما يلي:

(يكون هدف التربية والتعليم تنشئة جيل عربي واع مستنير يؤمن بالله مخلص للوطن العربي، يثق بنفسه وبأمته ويدرك رسالتها القومية والإنسانية، ومتمسك بمبادىء الحق والخير والجمال، ويستهدف المثل العليا الإنسانية في السلوك الفردي والجماعي. جيل يهيىء لأفراده أن تنمو شخصياتهم بجوانبها كافة، ويملكوا إرادة النضال المشترك وأسباب القوة والعمل الإيجابي، متسلحين بالعلم والخلق كي يسهموا في تطوير المجتمع العربي والسير به قدماً في معارج التطور والرقي في تثبيت مكانة الأمة العربية المجيدة وتأمين حقها في الحرية والأمن والحياة الكريمة).

وبالرغم من مضي سنوات عديدة على هذه الأهداف العربية فلا زالت الأمية في تزايد، والحريات كلها مهضومة، والأمة متخلفة متأخرة، والتعصب الإقليمي في ازدياد، والمواطنة معدومة في أضيق نطاقها.

وتختلف التربية الإسلامية في أهدافها عما سبق، وقد تتفق مع كثير مما سبق ولكنها تتميز عن أنواع التربية الأخرى بأن أهدافها ثابتة لا تتغير بتغير المجتمعات أو الأزمنة أو الأمكنة. والسبب في ذلك بسيط هي أنها أهداف إلٓهية حددها الله سبحانه وتعالى لسعادة البشرية ما داموا على الأرض، فالتغير والتبدل قد يسري على الوسائل والطرق وليس على الأهداف، والتربية الإسلامية ليس هدفها وجود المواطن الصالح لأنها قد ارتفعت عن حدود المواطنة بالمعنى الإقليمي الضيق إلى مستوى أعلى من الأهداف التي تتمثل في إعداد الإنسان الصالح: (الإنسان على إطلاقه بمعناه الإنساني الشامل، الإنسان بجوهره الكامن في أعماقه، الإنسان من حيث هو إنسان لا من حيث هو مواطن من هذه البقعة من الأرض أو من ذلك المكان، وذلك معنى أشمل ولا شك من كل مفهوم للتربية عند غير المسلمين)[1].

(١) محمد قطب ـ مناهج التربية الإسلامية ص ١٤.

وهذا الإنسان الذي أصبح هدفاً للتربية في الإسلام هو الإنسان الذي تتمثل فيه ـ كما يقول الأستاذ محمد قطب ـ الخصائص التالية:

١ ـ التقوى ﴿ إنّ أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكم ﴾ [الحجرات: ١٣].
٢ ـ العبادة الخالصة: ﴿ وما خلقتُ الجِنَّ والإنسَ إلا لِيَعْبُدون ﴾ [الذاريات: ٥٦].
٣ ـ اتباع هدى الله: ﴿ فإما يَأتِيَنَّكم مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون ﴾ [البقرة: ٣٨].

فالتربية الإسلامية من أسمى أهدافها الأخلاق، وقد دارت آراء علماء المسلمين على هذا الهدف الأسمى الذي هو تهذيب الأخلاق وتقويمها، وتربية الأرواح، وبث الفضائل، وتعويد الآداب السامية، وإعداد الناشئة لحياة طاهرة كلها إخلاص وعبادة، ونستطيع لتوضيح الأمر أن نعدد أهداف التربية الإسلامية فيما يأتي:

أولاً: التربية الأخلاقية

الأعمال الإرادية التي تصدر عن الإنسان هي التي يطلق عليها كلمة الأخلاق، فالصدق والكذب والأمانة والخيانة والبخل والكرم دلالات على السلوك الأخلاقي للإنسان، والحكم على أعمال الفرد من ناحية الصواب والخطأ والحق والباطل والخير والشر هو موضوع التربية الأخلاقية.

ويمكننا تعريف مفهوم الأخلاق في نظر الإسلام بأنه (عبارة عن المبادىء والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني، التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه)[1].

ومن مفاهيمه أيضاً أن الأخلاق (نظام من العمل من أجل الحياة الخيرة وطريقة التعامل الإنساني مع الغير أياً كان هذا الغير ما دام كائناً حياً من حيث ما ينبغي أن يكون عليه هذا السلوك كسلوك إنساني خير تجاه الآخرين، وذلك بناءً على مكانته في الكون ومسؤولياته فيه التي يجب أن ينهض بها، وبناءً على ما وضع له خالقه من أهداف في هذه الحياة)[2].

وقد عرف الخلُق بأنه عادة الإرادة، أو هو تغلّب ميل من الميول على

---

(١) مقداد يالجن ـ التربية الأخلاقية الإسلامية ص ٧٥.

(٢) نفس المصدر ص ٧٦.

الإنسان باستمرار[1]، فالكريم من يغلب عليه جانب العطاء، بينما البخيل هو الذي يغلب عليه الميل إلى الإمساك، فالخُلق حالة نفسية غالبة على الإنسان وتنعكس في تصرفاته التي تسمى بالسلوك.

والتربية الأخلاقية تمثل الهدف الذي من أجله بعث الله الرسل، فالرسول ﷺ يقول: «إنما بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق» ويقول: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي» والله سبحانه وتعالى يصفه بقوله: ﴿ وإنك لَعَلى خلقٍ عظيمٍ ﴾ [القلم ٤] وحسن الخلق هو مقياس النجاح والإخفاق والقرب والبعد من الله سبحانه وتعالى ورسوله. ويقول الرسول ﷺ: «إن أحبَّكم إليّ وأقربَكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطِّئون أكنافاً الذين يَألفون ويُؤْلفون»[2].

وحديث الرسول ﷺ السابق يبين أن مهمة الرسالات السابقة والتي كانت رسالته خاتمتها إنما جاءت لتربية الأخلاق، ولذلك قال الرسول ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمّها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة، فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء»[3] وشخصية الرسول ﷺ هو المثل الأعلى في تجسيد الأخلاق عملاً سلوكياً دائماً فقد قال عنه أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً»[4] وقال عنه أيضاً: «ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط: أفّ ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟»[5] وعن عائشة أنها سمعت الرسول ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[6]

(١) أحمد أمين كتاب الأخلاق ص ٦٢.
(٢) رواه الترمذي في باب البر.
(٣) فتح الباري كتاب الجهاد الجزء السادس ص ٥٥٨.
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.
(٦) رواه أبو داود.

والحديث يدل على مدى ارتباط السلوك الأخلاقي بالعبادة بل اعتبار السلوك الأخلاقي من أرقى درجات العبادة ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه»[1] وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه ما ضرب شيئاً قط بيده، ولا امرأةً ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله تعالى.

والسلوك الأخلاقي في الإسلام يمثل روح الإسلام وحقيقته ونظامه، وتتميز الأخلاق الإسلامية عما عرفت البشرية في الماضي والحاضر بخاصتين تميزانها:

الأولى: أن الأخلاق الإسلامية وحي من الله سبحانه وتعالى والمسلم مطالب بتطبيقه والأخذ به ظاهراً وباطناً بحريته واختياره.

والثاني: أن الأخلاق الإسلامية طابعها إنساني لا تتقيد بحدود الزمان والمكان، وهي أخلاق صالحة للبشرية ما دامت على الأرض وأن طابعها الثبات وعدم التحول أو التبدل لأنها أيضاً إلّهية مستمرة، فيها صلاح العباد.

أهمية التربية الأخلاقية:

اهتمت الأديان كلها بالتربية الخلقية كهدف لبناء الأمم والحضارات كما اهتم الفلاسفة والعلماء قديماً وحديثاً باعتبار الأخلاق أسمى أهداف التربية والتعليم، والعلماء يختلفون في مفهوم الأخلاق، بين من يرون أنه مسلك الإنسان ونشاط الفرد واتجاهه نحو الآخرين، وبين من يرون الخلق عاملاً خارجياً يؤثر في السلوك، ومن يراه حالة أو هيئة للنفس تصدر الأفعال عنها تلقائياً.

---

(١) رواه مسلم.

وأهمية التربية الأخلاقية أنها: (تحقق للإنسان تقدمين أحدهما تقدم حضاري والآخر تقدم اجتماعي، وكلا التقدمين لا يمكن أن يتما إلا باتباع الطريقتين السابقتين: طريق المعرفة وطريق التربية، بالمعرفة تبنى الحضارة وتقدم للإنسان اكتشافات علمية وذهنية، والتربية تساعده على توحيد ذاته وبناء شخصية قوية تيسران له تحقيق الخيرات للإنسانية)[1] وهذا مبني على أساس أهمية الأخلاق وضرورتها لاستمرار الحياة الاجتماعية وتطورها وتقدم الحضارة.

والمقصود بالتربية الخلقية أيضاً تعويد الأطفال على التمسك والتدرب على العادات الاجتماعية التي يفرضها المجتمع على أعضائه، كما أن المقصود منها تدريب الناشئة على السلوك الحسن وتحبيبه إليهم وأخذهم بما يقوي إرادتهم وينمي شخصياتهم ويكملها ويجعلهم جديرين بالاشتراك في حياة الجماعة[2].

والأخلاق مجالها الحياة كلها وسلوك الإنسان كله وعلاقات الإنسان المختلفة بربه وبنفسه وبالناس بل وبالمخلوقات كلها، لأن السلوك الحسن إزاء هذه المجالات هو الذي يحقق للإنسان السعادة والرضا في الدنيا والآخرة. ولذلك يقول الرسول ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمرَه كلَّه له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن إصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له»[3].

والنظريات غير الإسلامية قد تربط بين الأخلاق والدوافع التي يسعى الإنسان بها إلى تحقيق اللذة والخير لنفسه، أي أن المنفعة الذاتية هي الباعث لعمل الخير، وفي هذا تقليل من قيمة الإنسان، وفي الحياة ما يخالف ذلك إذ أننا نجد كثيراً من الأعمال ليس دافعها حب الذات، وهذا

---

(١) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام. مقدار يالجن ص ٩٦.

(٢) محمد أمين المصري ـ لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها ص ٢١٤.

(٣) رواه مسلم.

هو الذي دعا الإسلام إليه حينما طالب المسلم بإضفاء الجانب الأخلاقي على كل سلوك يصدر منه ولو لم تكن له منفعة ذاتية في ذلك السلوك.

فالإسلام عندما يحدد آداباً معينة في الملبس والمأكل والجلوس والمشي والحديث ليس لأن له مصلحة مادية في ذلك بل لأن ذلك السلوك هو الذي يميز حياة الإنسان على حياة الحيوان، والمسلم مطالب بحسن الخلق في سلوكه الظاهري والباطني، فهو مطالب بالاستقامة والصدق والأمانة وحسن الظن والمحبة والعطف واللين والقناعة والرضا وقوة الإرادة والشجاعة والمروءة والتضحية في سبيل الحق.

والتاريخ الإسلامي حافل ببطولات كان مبعثها حب الخير للآخرين، وسيرة الرسول ﷺ كلها سلسلة من هذه المواقف الأخلاقية التي تحمّل في سبيلها أذى المشركين وغواية المكذبين وهو الذي يواجه عمّه بقوله: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» وقد اضطهد كثير من علماء الإسلام في سبيل الرأي ومناصرة الحق ومنهم الإمام أحمد بن حنبل والفيلسوف ابن رشد في القرن السادس الهجري والإمام ابن تيمية في القرنين السابع والثامن. والأمثلة كثيرة لا تنقطع في العصر الحديث.

فالتربية الأخلاقية هي التي تجعل الصفات الطيبة عادة في سلوك الإنسان وتبتعد به عن الصفات السيئة من حقد وحسد وبغض وازدراء، وبها يتجنب الإنسان الحمق والتهور والتكبر والصلف والخوف والجزع ودناءة النفس وقبول المهانة والذل والبخل والشره والوقاحة والجلافة والغلظة في معاملة الناس. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ ولَوْ كنتَ فَظّاً غليظَ القلبِ لانْفَضّوا مِن حولِكَ فَاعْفُ عنهم﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ويقول الرسول ﷺ: «البرّ حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس»[١] وبهذا التعريف للبر نفهم قول الله تعالى:

(١) رواه مسلم والترمذي في باب الزهد.

﴿ليسَ البِرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكم قِبَلَ المشرِقِ والمغربِ ولكنّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بالله واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيِّينَ وآتى المالَ على حُبِّه ذوي القُرْبَى واليتامَى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتَى الزكاةَ والمُوفونَ بعهدِهم إذا عاهَدوا والصابرينَ في البأساءِ والضرّاءِ وحِينَ البأسِ أولئكَ الذِينَ صَدَقوا وأولئكَ همُ المتقون﴾[3] [البقرة: ١٧٧].

والآية تبين مدى ارتباط الأخلاق والسلوك بالعقيدة، لأن البر هنا هو جماع الخير والفضائل وكل ما هو حسن في الحياة ومرغوب في السلوك (وليست غاية البر ـ وهو الخير جملة ـ هي تلك الشعائر الظاهرة فهي في ذاتها ـ مجردة عما يصاحبها في القلب من المشاعر وفي الحياة من السلوك ـ لا تحقق البر ولا تنشىء الخير. . إنما البر شعور وأعمال وسلوك وتصوّر ينشىء أثره في ضمير الفرد والجماعة وعمل ينشىء أثره في حياة الفرد والجماعة)[1].

إن الرسول عليه الصلاة والسلام يؤكد على حسن الخلق وقيمة التمسك به ومكانته عند الله سبحانه وتعالى فيقول: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله يبغض الفاحش البذيء»[2] وقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»[3] وروى عنه الترمذي قوله: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم»[4] وهذا الحديث يدل على مدى ارتباط الخلق بالإيمان الذي لخص في حديث الرسول ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان»[5] وهذه الشعب تمثل جماع الأخلاق التي يعمل الإسلام على تمسك الناس بها

(١) سيد قطب في ظلال القرآن م الأول ص ١٥٩ ج ٢١.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه الترمذي.

(٥) فتح الباري ج أول ص ٥١.

وتمثلها في حياتهم وسلوكهم اليومي.

ومن هنا نلاحظ أن مجالات الأخلاق تشمل الحياة كلها باعتبارها نمطاً للسلوك والعمل. فكل عمل يحقق البر والخير للفرد أو الجماعة بمقابل أو بغير مقابل يعتبر أخلاقاً.

وسائل التربية الأخلاقية:

هناك وسائل كثيرة يرى العلماء أنها تؤدي إلى تربية الأخلاق ويمكن أن نبين بعضها فيما يلي:

١ ـ **البيئة الاجتماعية**: التي يقوم التعامل بين أفرادها على السلوك الحسن وعلى حمل الأفراد وتعويدهم على الإخلاص والأمانة والمحبة والجد والنظام والتعاون والإخاء والاعتماد على النفس والمودة والاحترام والرحمة والشفقة، وبحيث تكون البيئة عاملاً موجهاً لسلوك الأفراد وميولهم وتعديل غرائزهم ونزعاتهم متضافرة في ذلك مع أوساط التربية الثلاثة. المنزل والمدرسة والمجتمع.

٢ ـ **الاتجاه العلمي**: في إبراز محاسن الأخلاق الفاضلة ومضار السلوك السيء، وربط الإحسان والسوء في الأخلاق بالنواحي الطبية والنفسية وعلم الاجتماع والفلسفة، لأن التحليل العلمي للأخلاق الفاضلة وما يترتب على الأخلاق السيئة من مضار للفرد والمجتمع والدولة عامل هام في بناء الأخلاق.

٣ ـ **الرفقة الحسنة**: فالفرد يتأثر بمن حوله كما يتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، ولذلك شبه الرسول ﷺ الجليس الصالح ببائع المسك والجليس السيء بنافخ الكير فكلاهما مؤثر في صاحبه، والإنسان بطبعه مقلد لأصدقائه في سلوكهم ومظهرهم وملبسهم، فمعاشرة الأبرار والشجعان تكسب الفرد طباعهم وسلوكهم.

٤ ـ **المنهج الدراسي**: وللمنهج وسيلته المباشرة وغير المباشرة في تربية

الأخلاق، فالدروس الخاصة بالتربية الخلقية التي تعلم الفضائل وتحض على العادات الطيبة والسلوك الحسن وسائل مباشرة، أما تهيئة الجو المدرسي الذي يتبادل فيه التلاميذ التجارب والخبرات الخيرة ويتدربون فيها عملياً على ممارسة سلوك الفضيلة والخير والحق في بيئة اجتماعية صالحة موجهة؛ فهذه هي الوسائل غير المباشرة وهي أكثر نفعاً وجدوى من تعليم الأخلاق نظرياً، لأن علم الأخلاق ودراسته شيء وممارسته في السلوك شيء آخر.

٥ - **دراسة سير الأنبياء والرسل والأبطال والنابغين** في ميادين العلم والمعرفة والشجاعة والحرب، وفي مقدمتهم سيرة سيد الخلق ﷺ باعتباره القدوة الأولى للبشرية، لأن دراسة هذه الشخصيات هي التي تبعث الروح في الناشئة وتجسد معاني التضحية والفداء في سبيل المثل العليا والمبادىء السامية.

٦ - **توحيد الجهود التربوية** المتمثلة في البيت والمدرسة والراديو والمسرح والتلفزيون والكتاب ومنظمات الشباب، فإذا كانت المدرسة تقوم بالتربية الخلقية، والبيت والمؤسسات الأخرى تقوم بدور الفساد والإفساد فلا يمكن للأخلاق أن توجد، وإن كانت المدرسة هي أخطر مؤسسات التربية أثراً في تربية الأخلاق، إلا أن الأسرة والبيت ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية أصبحت عوامل ذات نفوذ واسع وخطير مما يستدعي توحيد الجهود في سبيل تربية الأجيال على الأخلاق والسلوك الحسن.

ثانياً: إخلاص العبادة لله وحده

الله سبحانه وتعالى يحدد في كتابه الكريم أنه خلق الإنسان لمهمة، هذه المهمة هي خلافة الله في الأرض، ولوظيفة هي معرفة الله سبحانه وما يترتب على هذه المعرفة الحقة من عبادته وحده وعدم الإشراك به، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وإذْ قالَ رَبُّك للملائكةِ إني جاعلٌ في الأرضِ خليفةً قالوا: أتجعلُ فيها مَن يُفْسِدُ فيها ويسفكُ الدماءَ ونحنُ نسبِّحُ بحمدِكَ ونقدِّسُ لكَ قالَ: إني أعلمُ ما لا تَعلمونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] ويقول: ﴿ ثمَّ جَعَلْناكم خلائفَ في الأرضِ مِن بعدِهم لِنَنظرَ كيفَ تَعملونَ﴾ [يونس: ١٤] وعن وظيفته في الأرض يقول: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيَعْبُدونِ ما أريدُ منهم مِن رزقٍ وما أريدُ أن يُطعِمونِ﴾[الذاريات: ٥٦ - ٥٧]، وجاء في أثر قدسي قوله: «ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتُّك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء»[1] وقوله: «عبادي إني ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه، ولا لجلب منفعة ولا لدفع مضرة وإنما خلقتكم لتعبدوني طويلاً وتذكروني كثيراً وتسبِّحوني بكرةً وأصيلاً»[2] ويقول: ﴿ وَاعْبُدوا الله ولا تُشْرِكوا به شيئاً ﴾ [النساء: ٣٦] ﴿ يعبُدونني لا

(١) تفسير ابن كثير ص ٢٣٨ ج ١.
(٢) المصدر السابق.

يُشركونَ بي شيئاً ﴾ [النور: ٥٥] ﴿ فَمَن كانَ يَرْجُو لقاءَ رَبِّه فَلْيَعملْ عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادةِ رَبِّه أحداً ﴾ [الكهف: ١١٠].

فالعبادة في مظهرها العام هي الترجمة العملية لمشاعر الفرد نحو خالقه وخضوعه واستسلامه له. فإذا كانت العقيدة تمثل الناحية النظرية أو القلبية فإن العبادة تمثل الناحية التطبيقية والعملية في الصلة بالله، ففي قوة العقيدة وسلامتها قوة للعبادة لأنها صادرة من عقيدة ثابتة، والعبادة الصحيحة تتبادل التأثير مع العقيدة فتجعلها قوية راسخة موطدة الدعائم متينة الأسس.

وتهدف التربية إلى إخلاص العبادة لله لأن العبادة هي حق الله على عباده لأنه خلقهم لذلك، ففي حديث معاذ بن جبل يقول: (كنتُ رديفَ النبيِّ ﷺ على حمار فقال لي: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)[1].

ومقتضيات أحقية العبادة لله تعالى كثيرة ولكن أول هذه المقتضيات وأعلاها هو الامتثال لأمر الله والخضوع المطلق له وجعل العبادة أمراً مقصوداً لذاته لا لغيره، ثم هي بعد ذلك شكر للمنعم على نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى وللمحسن على إحسانه الذي لا ينقطع ولا يمتنع ﴿ الله الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وأنزلَ مِنَ السماءِ ماءً فأخرجَ بهِ مِنَ الثمراتِ رِزقاً لكم، وسَخّر لكمُ الفلكَ لِتجريَ في البحرِ بأمرِهِ، وسَخَّرَ لكمُ الأنهارَ، وسَخَّرَ لكمُ الشمسَ والقمرَ دائِبَيْنِ، وسَخَّرَ لكم الليلَ والنهارَ، وآتاكُم مِن كلِّ ما سألتُموهُ وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحصوها، إنَّ الإنسانَ لَظلومٌ كفّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣١ - ٣٤].

وقد يكون مقتضى العبادة هو الطمع في الجنة والخوف من النار، وهذه مرحلة أدنى من العبادة لله، إذ المرحلة العليا هي عبادته لأنه مستحق

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

للعبادة بذاته، ومع ذلك فلا مانع من أن يعبد رجاء الدخول في جنته واتقاء عذابه، إذ أن من صفات عباد الرحمن قولهم: ﴿ رَبَّنا اصْرِفْ عَنّا عذابَ جهنّمَ إنّ عذابَها كانَ غَراماً إنّها ساءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقاماً ﴾ [الفرقان: ٦٥ - ٦٦] والقرآن أكثر من وصف الجنة وما فيها من نعيم، والنار وما فيها من صور متعددة مختلفة مهولة للعذاب، وذلك كله ليعمل المسلم سعياً لدخول الجنة وتجنباً للنار، فقد روي عن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه أنه قال للرسول عليه الصلاة والسلام ليلة بيعة العقبة: (اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قال: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة». قالوا: ربح البيع. ولا نقيل ولا نستقيل)[1] إذن فهذه صفقة بين الله سبحانه وتعالى وبين عباده.

إن مفهوم العبادة شامل لمجالات الحياة كلها وليس قاصراً على أداء الشعائر التعبدية، والمفهوم الواسع للعبادة هي التي عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية الذي سئل عن العبادة فأجاب: (العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك؛ من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضى بقضائه والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك؛ من العبادة)[2].

---

(١) السيرة الحلبية.

(٢) العبودية ص ٣٨.

ولأن إخلاص العبادة لله كان سبباً لوجود الإنسان على الأرض فإن أول دعوة جاء بها الرسل كانت إخلاص العبادة لله وعدم الإشراك به ﴿ ولقد بَعَثْنا في كلِّ أُمَّةٍ رسولاً أنِ اعْبُدوا الله واجْتَنِبُوا الطاغـوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ويقول: ﴿ قلْ إني أُمِرْتُ أن أعبدَ الله مُخلصاً له الدِّينَ وأُمرتُ لأَنْ أكونَ أوَّلَ المسلِمِينَ. قلْ إني أخافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عذابَ يومٍ عظيمٍ. قُلِ اللهَ أعبُدُ مُخلِصاً له دِيني. فَاعبُدوا ما شِئتُم من دونِهِ ﴾ [الزمر: ١١ - ١٥].

إن هذه النظرة المتعمقة للعبادة والتي لا بد من توفر الناحيتين فيها وهما الخضوع التام والذل ثم الحب لمن تخضع له وتذل؛ هي المفهوم الذي يجب أن يعمَّق في نفوس الناشئة، ونحن نجد في عصرنا اصطلاحات شائعة تؤدي من خلال هذه النظرة إلى نقض شهادة المسلم كأن يعبر الرجل عن حبه لزوجه أو لغيرها بأنه يعبدها أو عن فنان أو ممثل أو رياضي بأنه معبود الجماهير، فالتعبير إلى جانب ما فيه من نقض للشهادة فهو لا ينطبق من الناحية الاصطلاحية إلا على الله سبحانه وحده، فالإنسان قد يحب امرأة أو شيئاً ولكنه لا يكون تام الخضوع والذلة والاستكانة له، لأن المرأة مثلاً لا تحب رجلاً فيه صفات الخضوع والذل لأنها لا تحس برجولته، كما أن المرء قد يكون خاضعاً ذليلاً لحاكم أو طاغية ولكنه لا يحبه، فتوفر هاتين الصفتين اللتين نطلق تعبير (العبادة) على اجتماعهما لا تتوفر إلا للخالق وحده وعن هذا يقول ابن تيمية: (والعبادة أصل معناها: الذلّ أيضاً. يقال طريق معبد، إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام. لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب: فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى، بغاية المحبة له. فإن آخر مراتب الحب: هو التتيم وأوله: العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ثم الصبابة، لانصباب القلب إليه، ثم الغرام، وهو الحب الملازم للقلب، ثم العشق، وآخرها: التتيم يقال: تيم الله أي عبدالله، فالمتيَّم المعبَّد لمحبوبه. ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، كما قد يحب الرجل ولده

وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله)[1].

والعبادة بهذا المفهوم الشامل لمجالات الحياة كلها وباعتبارها هدفاً للتربية الإسلامية تحتاج في تقديمها وتدريسها إلى وسائل وأساليب يمكنها أن تحقق الغاية المرجوة منها وهذه الوسائل كما حددها الدكتور يوسف القرضاوي تشمل:

١ ـ فقه العبادة لا علم العبادة، لأن الفقه يتجاوز الرؤوس والعقول التي يتعلق بها العلم إلى القلوب والنفوس، والرسول ﷺ جعل خير المسلم في التفقه في الدين لا في مجرد العلم بالدين «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» وقال تعالى: ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قومَهم إذا رَجَعوا إليهم ﴾ [التوبة: ١٢٢] وقال: ﴿ لهم قلوبٌ لا يَفقهونَ بها ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فالفقه شيء في القلوب والعقول، والعلم في العقول فقط (ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديماً وحديثاً قال تعالى: ﴿ لأَنتم أشدُّ رهبةً في صُدورِهم مِنَ الله ﴾ [الحشر: ١٣] فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق في قلة الفقه، فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم. وقال الحسن عن الفقهاء: إن الفقيه: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم، ولم يقل في جميع ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى)[2].

٢ ـ الرجوع إلى عهد البساطة عهد النبوة التي يقول فيها: «صَلُّوا كما

(١) العبودية ص ٤٤.
(٢) إحياء علوم الدين ص ٣٢ ـ ٣٣.

رأيتموني أصلّي» فالرسول كان يعلم أصحابه بمعلومات سهلة ميسرة عن الصلاة ورؤية واقعية له وهو يصلي من غير دراسة وتحليل وشرح للجزئيات، كما كان أصحابه ينفرون من التكلف والتعمق ويميلون إلى البساطة واليسر. وقد نبه الإمام الشاطبي إلى أن يكون تعليم أمور الشريعة لجمهور الناس بعيداً عن التعمق في الفلسفة، والميل وإلى تفسير الأشياء بظاهرها.

٣ ـ التيسير لا التزمت والوسوسة. وقد دعا الرسول ﷺ للتيسير وقال: «إنما بعثتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين» وقال لأبي موسى ومعاذ حين بعثهما لليمن: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا» وهو أمر فوق التبسيط لأن التبسيط يكون في التعليم والتيسير يتناول العمل والأداء، فلا بد من محاربة الوسوسة والتشديد في النفوس، واتباع هدي الرسول ﷺ وسنته وسيرة السلف، والأخذ بأيسر الأمور وعدم تكليف النفس ما لا تطيق في العبادات بتحكم الوسوسة والتشدد.

٤ ـ الرجوع إلى الكتاب والسنة دون التعصب لمذهب وإلزام الناس أن يتعبدوا بمذهب من المذاهب، ولا يقصد بهذا اتباع المذاهب حسب الأهواء ومن غير دليل ولا حجة، بل المقصود اتباع الدليل والأحكام التي قويت حجتها واطمأنت النفوس إليها ووافقت روح الإسلام وقواعده، وهو ما كان عليه السلف رضوان الله عليهم وفي هذا رفع للحرج عن الناس.

ثالثاً: نشر العلم والثقافة

المجتمعات الإنسانية كلها في الشرق والغرب تتخذ نشر الثقافة ونقلها بين الأجيال هدفاً أساسياً في نظامها التربوي، والإسلام أول ما دعا إلى جعل التعليم فريضة على المسلمين، والتعليم كما هو هدف فهو أيضاً وسيلة إلى عبادة الله على هدى وبصيرة ووسيلة لترقية الأخلاق وتهذيبها وتقويمها، وهو وسيلة لفهم الحقائق الاجتماعية والسياسية والروحية، فقد كانت الأمة المسلمة كلها أول الأمر في مدرسة واحدة هي مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام، التي كانت تعلّم وتثقّف وترسل الدعاة والمعلمين وتفتدي الأسرى إذا أسهموا في نشر التعليم، وتحثّ المتعلمين على القيام بواجب التعليم والتثقيف. وقد ذكرنا في حديثنا عن العلم والتعلم ما ورد في ذلك من القرآن والحديث والأثر.

وأهمية التعلم في التربية الإسلامية أن العمل الذي هو ترجمة لما في القلوب يتوقف عليه، فقد ذكر ابن مسعود أن جيل الصحابة الأول كانوا يتعلمون العشر من الآيات ثم لا يجاوزوهن حتى يعرفوا معانيهن ويعملوا بها، وعن طريق التعليم تتكون الاتجاهات المطلوبة من المسلم: من الإيمان بالغيبيات وإقامة الصلاة والإنفاق، وإذا تعمق اتجاه الإيمان بما جاء به الرسول، وكان ذلك عن قناعة وفهم؛ كانت الحصانة المطلوبة للمسلم من الزيغ والانحراف، فالتعلم والمعرفة أساس الإيمان واليقين ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وإذا قرأتَ القرآنَ جَعَلْنا بينَكَ وبينَ الذِينَ لا

يُؤمِنونَ بالآخرةِ حِجاباً مستوراً وجَعَلْنا على قلوبِهِم أكِنَّةً أنْ يفقهوهُ وفي آذانِهِم وَقْراً ﴾ [الإسراء: ٤٥ ـ ٤٦].

ولمكانة العلم وأهمية تعلّمه ترى أن علماء الفقه قد جعلوا لطالب العلم المتفرغ له والذي تعذر عليه الجمع بين الدراسة والعمل جعلوا له نصيباً في الزكاة بقدر ما يعينه على أداء مهمته، وذلك لأن طالب العلم ينتفع المسلمون بعلمه لأنه جمع بين حاجة نفسه وحاجة المجتمع إليه وواحدة من هاتين كافية لإعطائه من الزكاة، وقد اشترط البعض أن يكون هذا الطالب متفوقاً ينتفع المسلمون منه وإلا لم يستحق الأخذ من الزكاة ما دام قادراً على الكسب[1]. وهذا ما تسير عليه الدول في ابتعاث النجباء من أبنائها والإنفاق عليهم من مال الدولة، وهذا مفضل على العابد المنقطع للصلاة والصوم وغيرهما، فهو لا يستحق الأخذ من مال الزكاة ما دام قادراً على الكسب (لأنه مأمور بالعمل والمشي في مناكب الأرض ولا رهبانية في الإسلام)[2].

(١) سعيد حوى ـ الإسلام ص ١٥ ج أول.
(٢) المصدر نفسه.

رابعاً: العمل والحث عليه

إن احترام العمل والتشجيع على ممارسته من أهم أهداف التربية، فقد كان الرسول ﷺ يدفع أصحابه للعمل ويحثّهم عليه ويخبرهم بأن الله يثيب اليد العاملة ويحبّها، ولأن يأخذ المسلم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطَوه أو منعوه، بل جعل العمل عبادة تفوق أنواعاً من العبادات ويقول عليه الصلاة والسلام: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[1] وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قوله: «كان زكريا عليه السلام نجّاراً»[2] وقد أخبر الرسول ﷺ عن عمل الأنبياء وعمله، والعامل في نظر الإسلام خير من العابد الذي لا يعمل. وكان أصحاب الرسول ﷺ كذلك يكسبون أقواتهم من كدّهم وعملهم. ويقول أبو سليمان الداراني عن العمل والعبادة: (ليست العبادة في الإسلام أن تصف قدميك وغيرك يقوت لك ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبَّد).

وعن أهمية السعي في كسب الرزق ومحاربة البطالة يقول سيدنا عمر رضي الله عنه: (لا يقعد أحدكم عند طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة).

إن العمل في التربية الإسلامية عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله

(١) رواه البخاري في باب كسب الرجل وعمله بيده ج ٤ ص ٣٠٣.
(٢) صحيح مسلم.

الذي يحب اليد العاملة، مما يجعل التربية موجهة للطاقات نحو ارتياد آفاق الصناعة والتجارة والزراعة بمستوياتها الرفيعة وأساليبها المتطورة المتجددة، لأن الأمة الإسلامية تحتاج في نهضتها إلى البناء والإنتاج والعمل، والتدريب على العمل لا بد من ربطه ببناء وتربية العقول والأخلاق، لأن الخلق هو وسيلة الإجادة والإتقان وهو مقياس الضبط للعمل «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» إذ أن ثمار الأهداف السابقة احترام العمل وإتقانه، لارتباط ذلك بتقوى الله وخشيته ومراقبته وبالأمانة وتقدير المسؤولية، لذا فإن المنهج في التربية الإسلامية لا بد أن يتضمن إلى جانب الناحية النظرية برامج تكليفية في أيام من السنة أو أشهر الصيف لممارسة وتعلم مهن صناعية أو زراعية أو تجارية.

والإسلام لا يطالب العامل وحده بإتقان العمل ومراقبة الله فيه إنما يحث صاحب العمل شخصاً أو هيئة أو حكومة أن تتقي الله في العاملين لديها، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قوله: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره»[1] ويقول: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه»[2] بل يحدد الإسلام علاقات العمل ووضوح تلك العلاقات. وفي ذلك يقول ﷺ: «من استأجر أجيراً فليسمّ له أجرته» فالعمل لا يقوم على أمر مجهول.

والدولة الإسلامية مسؤولة عن إيجاد العمل لكل شخص قادر عليه إلا إذا كان عاجزاً فالدولة مسؤولة عنه، والدليل على ذلك أن الرسول ﷺ كان يسأل عن أصحابه وأعمالهم التي يتكسّبون منها، فقد رأى عابداً منقطعاً للعبادة فسأل عن الذي ينفق عليه وعلم أنه أخوه فقال: «إنه أعبد منه».

---

(١) رواه مسلم ـ سبل السلام ص ٨٠ ج ٣.

(٢) رواه ابن ماجه المصدر السابق.

خامساً: تربية روح المسؤولية والشورى

من أهم واجبات التربية في الإسلام إعداد المسلم للمشاركة في شؤون الأمة، إذ أن على المسلمين أن يختاروا من يمثلونهم في مجلس الشورى أو (البرلمان) بوازع من التقوى وتوخي مصلحة الإسلام والمسلمين ومراقبة الله سبحانه.

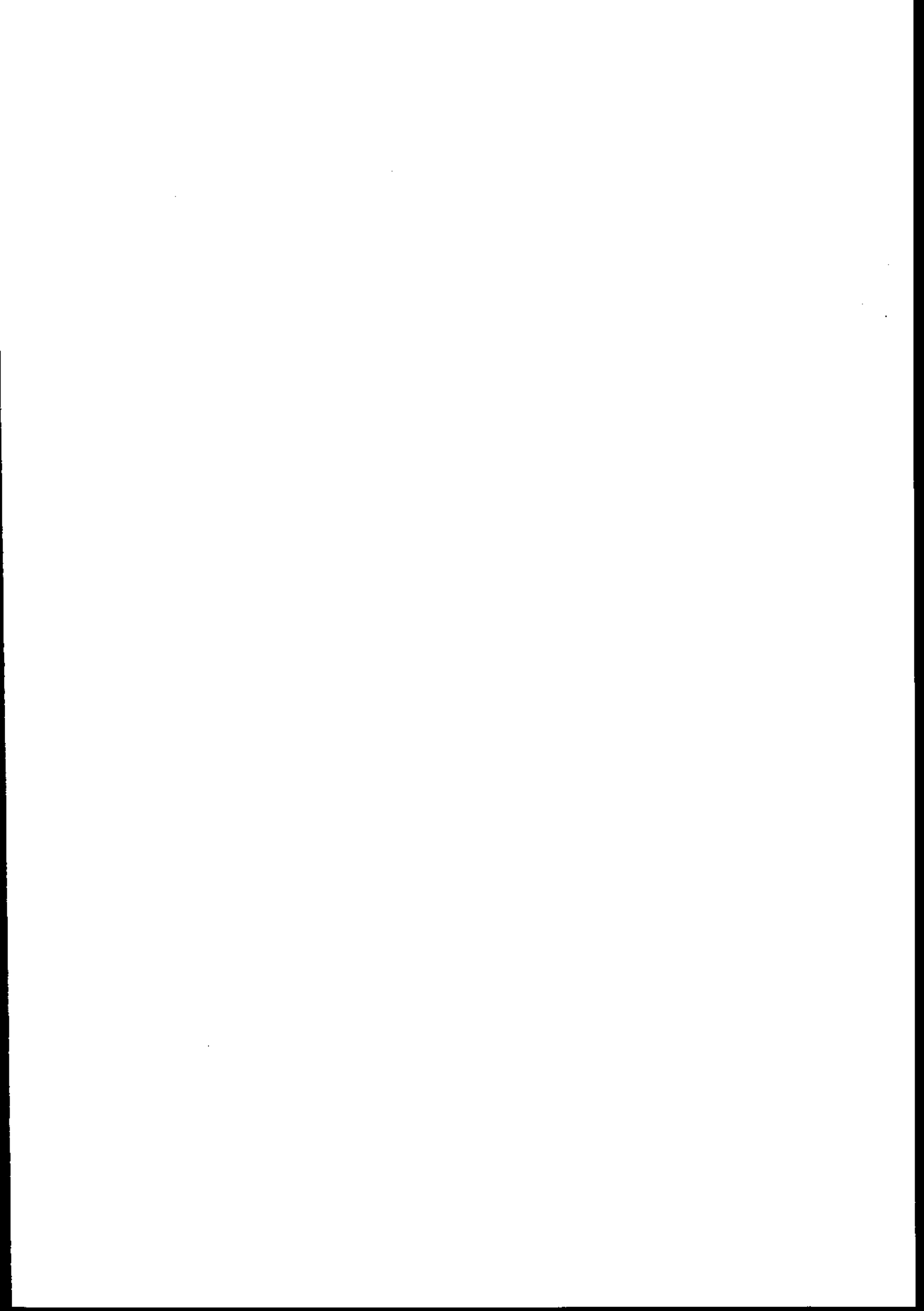
إن التربية في بلاد المسلمين تربي الناس على أساليب دكتاتورية في الحياة ومغلفة بوسائل القمع والإرهاب، وقد عجزت التربية السائدة عندهم عن القيام بدورها في تنشئة المسلمين على تحمل مسؤولياتهم وتقديرها لأن الأنظمة التربوية والسياسية لا توفر لهم ذلك، فالمعلم مقيد بنظم وأوامر مركزية تسلب منه حرية التصرف كمسلم في نطاق المنهج، وبالتالي تحمل المسؤولية، فينعكس ذلك على الطلاب الذين يتصرفون وفق أوامر عليهم تنفيذها، فلا يتربى فيهم روح الشعور بالمسؤولية والتقدير لها والأهلية لها وتحمل نتائج هذه المسؤولية، مع أن التربية تضع في قمة مهامها وواجباتها تعويد الطلاب على النظام والعمل اللذين يكون دافعهما الإحساس بالمسؤولية وهي تعني عند المسلم المسؤولية أمام الله أولاً ثم وليّ الأمر ثانياً، هذا إلى جانب الاهتمام برأي الآخرين ووجهة نظرهم المخالفة والإصغاء إليها ومناقشتها بالحكمة ورحابة الصدر لأن ذلك يؤدي إلى تصفية ما يترتب على اضطهاد الرأي الآخر من تشاحن وبغضاء.

فالتربية الإسلامية تعمل لسيادة روح الشورى والمسؤولية، وعلى أن يسود العلاقات جو من التقدير والاحترام والتعاون والإخاء. ولعل هذا

الهدف في المنهج الإسلامي قد طبق أول مرة في حياة المسلمين في غزوة أحد، فقد شاور الرسول ﷺ أصحابه في الخروج من المدينة أو البقاء فيها ولم يؤثّر عليهم بإبداء رأيه لهم، ونزل على رأيهم الذي لم يكن يراه، ولكنه أنفذ الشورى وكان في استطاعته ﷺ أن يجنب أصحابه ـ كما قال سيد قطب ـ تلك التجربة المريرة التي تعرضوا لها في أُحُد لو أنه قضى برأيه مستنداً إلى رؤياه الصادقة بعد أن رجع المسلمون عن رأيهم الذي ندموا عليه «ولكنه وهو يقدر النتائج كلها أنفذ الشورى وأنفذ ما استقرت عليه، ذلك كي تجابه الجماعة المسلمة نتائج التبعة الجماعية، وتتعلم كيف تتحمل تبعة الرأي وتبعة العمل، لأن هذا في تقديره ﷺ وفي تقدير المنهج الإسلامي الذي ينفذه؛ أهم من اتقاء الخسائر الجسيمة ومن تجنب الجماعة تلك التجربة المريرة، فتجنب الجماعة التجربة؛ معناها حرمانها الخبرة وحرمانها المعرفة وحرمانها التربية، ثـم يجـيء الأمر الإلٓهي له بالشورى بعد المعركة كذلك تثبيتاً للمبدأ في مواجهة نتائجه المريرة.

فالإسلام قد عمل في تربيته للصحابة على غرس الشعور بالمسؤولية والضبط الأخلاقي والاجتماعي فجعـل أيضاً من صفات النفاق خلف الوعد والكذب وخيانة الأمانة، وكلها ضوابط تربوية نابعة من الشعور بالمسؤولية، وتبرئة العلاقات الاجتماعية من كل خطر وزيف، فالمسلم الذي غرست فيه تلك الأحاسيس عن طريق التربية لا يرتشي ولا يأخذ أجراً على غير عمله، ولا يقصر في واجباته، ولا يتهرب من الزكاة أو الضرائب التي تفرضها الدولة المسلمة، ولا يخدع ولا يغش ولا يخون ولا يكذب.

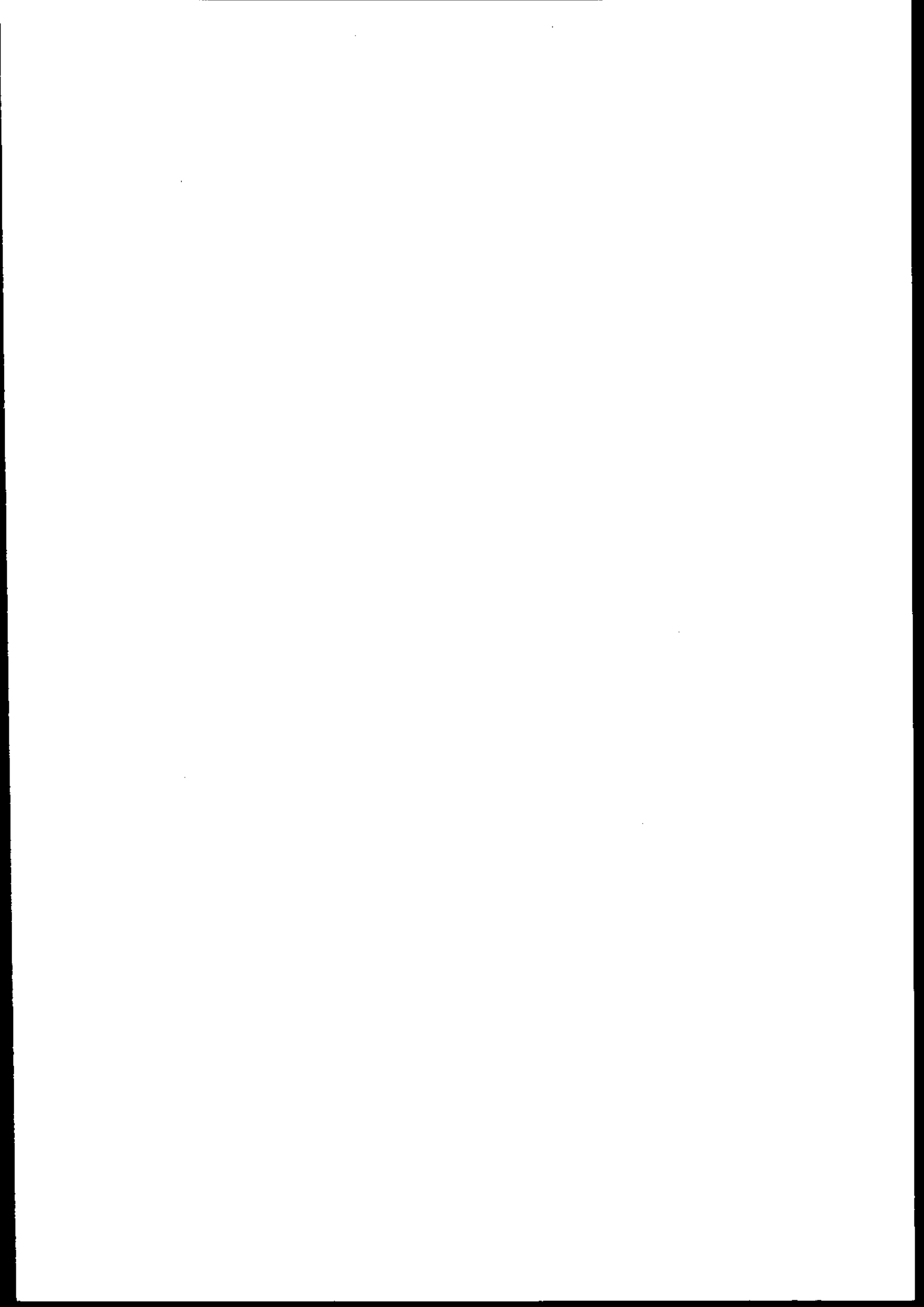
وبديهي أن أهدافاً كهذه لا تستطيع المدرسة وحدها تحقيقها بمعزل عن وسائل التربية خارج المدرسة وعلى رأسها الزعامة التي تقود الأمة المسلمة والتي تتمثل فيها ضرورة هذا الهدف وتنعكس في معاملاتها للأمة. فالقيادة المسلمة هي التي تحسن توجيه الأمة وتعليمها وتثقيفها لتحكم نفسها بالشورى على أساس من نزاهة القلب وطهارة الضمير وتقوى الله.



الفصل الخامس

جوانب التربية في الإسلام

١ ـ التَّربية الروحيَّة.
٢ ـ التَّربية الوجدانيَّة.
٣ ـ التَّربية العاطفيَّة.
٤ ـ التَّربية الجسميَّة والصحيَّة.
٥ ـ التَّربية العقليَّة والفكريَّة.
٦ ـ التَّربية المهنيَّة.



أولاً: التربية الروحية

ازدواجية الطبيعة الإنسانية في نظر الإسلام أمر ثابت، وهي المكونة من الناحية الروحية والناحية المادية، والتربية في الإسلام تهدف إلى إيجاد التوازن بين هاتين الناحيتين في الإنسان بحيث لا يطغى واحد على الآخر.. والله سبحانه وتعالى يذكر وجود الناحية المادية في الإنسان ممثلاً في خلقه في صورته المادية ثم نفخ الروح في هذه الصورة المادية الملموسة فيقول عن سيدنا آدم: ﴿ فإذا سَوَّيْتُه ونفختُ فيه مِن رُوحِي فَقَعُوا له سَاجِدِين﴾ [الحجر: ٢٩. صٓ: ٧٢]. والرسول ﷺ ذكر في حديثه المشهور عن خلق الإنسان البدايات المادية له والمتمثلة في النطفة ثم المضغة ثم العلقة ثم ينفخ فيه الروح، ولذلك كله نرى في تركيب الإنسان كثيراً من الصفات التي ترتبط بالناحية الروحية والمادية فيه، ولذلك كان اهتمام التربية الإسلامية بتربية الجوانب المختلفة للإنسان ومنها الناحية الروحية.

وقد ذكرنا أن التربية الروحية تتحقق بتوجيه الإنسان إلى الفطرة السليمة وعبادة الله ومراقبته وتربية روح المسؤولية والتقوى والخوف من الله فيه... فالمسلم ينشأ أول ما ينشأ على الإيمان بالله تعالى وما جاء به الرسول ﷺ والإيمان بالملائكة والكتب والرسل والقدر والقضاء واليوم الآخر والحساب والنار والجنة، وتعميق هذه الأمور في النفس يؤدي إلى: خشية الله ومراقبته، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، وحساسية ضميره ويقظة قلبه وخضوعه واستسلامه لله، والسيطرة على النفس والتحكم في نزعاتها ورغباتها. وقد كان الرسول ﷺ يدرب أصحابه على ذلك كله فيقول:

«ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1] كما أن الله سبحانه وتعالى مدح المسيطرين على أنفسهم الضابطين لنفوسهم ﴿ والكاظِمِينَ الغيظَ والعافِينَ عن الناسِ والله يحبُّ المحسنينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ويقول: ﴿ وأما مَن خافَ مقامَ ربِّه ونَهَى النفسَ عَنِ الهَوَى فإن الجنةَ هيَ المأوى ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

إن الإسلام تميز عن الديانة المسيحية في أنه لا يحتقر الدنيا ولا يهين الجسد، كما يختلف عن اليهودية في أنه لا يهتم بالروح وينسى الحياة الأخرى، فهو دين يدعو إلى تحقيق التوازن بين مطالب الروح وحاجات الجسد والتوفيق بين العمل والسعي في الحياة الدنيا والعمل والسعي للحياة الآخرة. فهو مستعمر لهذه الأرض ساع في مناكبها لا يأتيه رزقه من السماء وهو قابع في الدَّير، وإنما يسعى له ويبحث عنه ويكدّ في سبيله وقد يأخذ منه عمله نهاره كله، والإسلام يعتبر ذلك السعي عبادة يؤجره الله عليه، وليس العمل في سبيل الرزق هو كل همّه، وإنما المسلم إنسان ذاكر لله متّق له يعيش في إحساس دائم بأنه معه مراقب ومعين، لأنه إذا نسي ربه وغفل عن ذكره نسيه الله فاختلط عليه أمر الحياة والرزق وتملكته الحيرة وأصبح مضطرباً متخبطاً، لا يعرف للرشد طريقاً ولا للهداية سبيلاً.

وفي القرآن صور من هذا التوازن بين ذكر الله والسعي للدنيا منها قول الله تعالى: ﴿ يا أيّها الذينَ آمَنوا إذا نُودِيَ للصلاةِ مِن يومِ الجمعةِ فَاسْعَوْا إلى ذكرِ الله وَذَرُوا البيعَ ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تَعلمونَ، فإذا قُضيَتِ الصلاةُ فَانْتَشِرُوا في الأرضِ وَابْتَغُوا مِن فضلِ الله وَاذْكُرُوا الله كثيراً لعلّكم تُفلحونَ ﴾ [الجمعة: ٩ ـ ١٠].

فالإسلام يربي المسلم على الربط بين ذكر الله وعبادته والسعي لمصالحه في هذه الحياة على أن تكون هذه المصالح نفسها عوناً على ذكر الله وجانب الله فيها مرعي، وعلى أن لا تكون مصالح الدنيا سبباً في إغفال

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

ما يزكي الروح ويسمو بها ويطهرها، من أداء الصلاة وإيتاء الزكاة، والرجال الذين رباهم الإسلام هم الذين وصفهم القرآن بأنهم: ﴿ رجالٌ لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بَيْعٌ عَن ذكرِ الله وإقام الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ يَخافونَ يوماً تتقلّبُ فيهِ القلوبُ والأبصارُ لِيَجْزِيَهُمُ الله أحسنَ ما عَمِلوا وَيَزِيدَهم مِن فَضْلِهِ والله يَرزقُ مَنْ يشاءُ بغيرِ حسابٍ ﴾ [النور: ٣٧ - ٣٨].

إن التكوين الروحي للإنسان قد ميز الإنسان بدوافع معينة كان لزاماً على التربية الاهتمام بها وتعميقها وتوجيهها في مسارها الصحيح، فنزعة التدين نزعة فطرية في الإنسان اعترف بوجودها كثير من العلماء القدامى والمحدثين وقد رأوا الإيمانَ من طبيعة الإنسان، فإذا لم يقدم للإنسان في تربيته العقيدة الصحيحة التي يركز إيمانه حولها تحول إلى عقيدة فاسدة وعبادة مغلوطة. كما أرجع البعض حاسة التدين في الإنسان إلى إفراز في الغدة الدرقية يسير في الأوعية الدموية. فالتدين أمر ثابت في أعماق الإنسان، وواجب التربية هو التوجيه للوجهة الصحيحة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدين حَنِيفاً فطرةَ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ الله ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون﴾ [الروم: ٣٠].

وهذه النزعة الفطرية في الإنسان هي التي تدفعه إلى البحث عن الخالق والاستعانة به وتقديسه وعبادته، مما يجعل نفسه مطمئنة وروحه منشرحة. وهذا العنصر الخاص هو الذي ميز الإنسان عن الحيوان وارتقى به في عالم الروح، وجعل له صفة من صفات الملائكة، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يسبحون الله ليلاً ونهاراً وهم يحفون بالعرش. وهذه الدرجة من التسامي الروحي هو الذي عبر عنه الحديث القدسي ووضح أن الإنسان يمكن أن يصل إليه بطريق العبادة والصلة الدائمة بالله سبحانه: «ما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره التي ينظر بها ويده التي يبطش بها».

والجانب الروحي إذا وُجد كان مصدر المعرفة والتأمل عند الإنسان. فالإسلام يوجِّه في تربية الروح إلى التأمل في آيات الله في الكون ومعرفة ما وراء هذه الآيات من حقائق باهرة وإبداع وخلق، وكلها دلالات على مدى هذه القدرة ودقة الصنع، والتأمل لا بد أن يشمل الكون كله وإعادة النظر فيما هو مألوف من مظاهره مثل تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر وحياة الطبيعة وحياة النبات والحيوان والحشرات والتكوين المعقد المعجز للإنسان. لأن التأمل في هذه الجوانب يؤدي إلى إرهاف الشعور وإيقاظ الحس وصحوة النفس الدائمة وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ إنّ اللهَ فالقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخرجُ الحَيَّ مِنَ الميِّتِ وَمُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحَيِّ ذلكمُ اللهُ فأنَّى تُؤْفَكونَ، فالقُ الإصباح وَجَعَلَ الليلَ سَكَناً والشمسَ والقمرَ حُسْباناً ذلكَ تقديرُ العزيزِ العليم وهو الذي جعلَ لكمُ النجومَ لِتَهتدوا بها في ظلماتِ البَرِّ والبحرِ قد فَصَّلْنا الآياتِ لقومٍ يَعلمونَ وهو الذي أنشأكم مِن نفسٍ واحدةٍ فَمُسْتَقَرٌّ ومستودعٌ قد فصَّلْنا الآياتِ لقومٍ يَفقهونَ، وهو الذي أنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأخرجْنا به نباتَ كلِّ شيءٍ فأخرجْنا منه خَضِراً نُخرجُ منه حَبّاً مُتَراكِباً ومِنَ النخلِ مِن طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وجناتٍ مِن أعنابٍ والزيتونَ والرمّانَ مُشْتَبِهاً وغيرَ متشابِهٍ انْظُروا إلى ثَمَرِهِ إذا أثمرَ وَيَنْعِهِ إن في ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون ﴾ [الأنعام: ٩٥ - ٩٩].

والقرآن مليء بمثل هذه الآيات التي تدعو إلى السمو الروحي عن طريق التأمل والتفكر، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في سورة النحل والمدثر والطارق وفاطر والأنبياء والرعد وإبراهيم ومريم والكهف وآل عمران والبقرة والغاشية والزمر والتكوير وغيرها.

ومن الجوانب التي تهتم بها التربية الروحية في الإسلام إبراز تلك الحاسة الفطرية في الإنسان، والتي تجعله يميز بين الأفعال الحسنة والأفعال القبيحة. وقد عبر العلماء عن هذه الحاسة بأنها قوة باطنية إدراكية يتميز بها الإنسان عن الحيوان، فيدرك جوانب الخير والشر في عمل ما.

وقد عبر الرسول ﷺ عن هذه الحاسة بقوله: «الإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطّلع عليه الناس» إذاً هناك إحساس غريزي في الإنسان يدرك بواسطته الأفعال الحسنة فيستحسنها والقبيحة فيستقبحها، والضابط لذلك كله هو القلب «استفتِ قلبَك» والقرآن يوضح ذلك في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ ونفسٍ وما سَوّاها فألهمَها فجورَها وتقواها قد أفلحَ مَن زكّاها وقد خابَ مَن دسّاها ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠] وعن تلك الآية يقول سعيد بن جبير: ألهمها الخيرَ والشرَّ.

إن التربية الإسلامية تعرِّف الإنسان بالغرائز الفطرية الكامنة فيه، ولا تتغاضى عن الصراع الداخلي الذي يحس به الإنسان نتيجة تصارع الجانبين المادي والروحي فيه. ومعرفة الإنسان لذلك ووضوح الرؤية أمامه تجعله قادراً على التحكم في تلك النزعات وتوجيهها، فهي نزعات شيطانية أحياناً وملائكية أحياناً أخرى، وقد بينها الرسول ﷺ في الحديث الذي يقول فيه: «إن للشيطان لمة يا بن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاز بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاز بالخير وتصديق بالحق»[1]..

فالإنسان فيه الاستعداد أن يكون شيطاناً رجيماً وأن يكون ملاكاً طاهراً. وواجب التربية تغليب جانب الخير في الإنسان والعمل على أن يسيطر على شهوات النفس ونوازعها، وأن يزكي نفسه ويهذبها لأن تزكية النفوس من أسباب إرسال الرسل. والإنسان قادر على كبح جماح غرائزه ونهي نفسه عن هواها وبخلها وشحها. والرسول ﷺ يطلب من الإنسان أن يسمو على الغرائز التي تتحكم في السلوك اليومي للبشر وتوجه هذا السلوك في حالة الغفلة فيقول: «لا تَباغضوا ولا تَحاسدوا ولا تَدابروا وكونوا عباد الله إخواناً».

---

(١) رواه الترمذي.

ثانياً: التربية الوجدانية

في الإنسان قوة داخلية تدفعه إلى الخير وأخرى إلى الشر، كما أن هناك قوة ثانية تحذره وتصده إذا اتجه إلى الشر، كما أنها تأمره بفعل الخير والواجب، فإذا ما عمل بالشر أحس بالندم والحسرة، وإذا ما عمل بالخير أحس بالفرح والسرور. فهذه القوة الداخلية الآمرة بالخير والناهية عن الشر هي التي يسمونها (الوجدان)، وهذه القوة الداخلية تسبق الفعل إما بالتحريض عليه إن كان خيراً أو التحذير منه إن كان شراً، ثم تقارن العمل أو الفعل بالتشجيع على الخير والتخويف من الشر، ثم تلاحقه بالارتياح والسرور أو الألم وتأنيب الضمير[1]. وقد فرق بعضهم بين الوجدان والعاطفة بأن الوجدان ضوء كاشف لجنبات الطريق القويم وقائد حكيم وهو حاسة غريزية أخلاقية، والعاطفة طاقة دافعة مكتسبة أخلاقية إلى جانب أنها وسائل للتربية الوجدانية.

والوجدان في التربية الإسلامية مقترن بكلمة (القلب) التي وردت كثيراً في القرآن الكريم فالقلب هو محل الإيمان والكفر والنفاق والتقوى والاطمئنان والخوف والخشوع، فالله سبحانه يقول عن المنافقين: ﴿ في قلوبِهم مرضٌ فزادَهم اللهُ مرضاً ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يَكذبونَ ﴾ [البقرة: ١٠] وقد فسر المرض بأنه الشك ينتاب القلوب، وفي آية أخرى

(١) راجع الأخلاق ـ أحمد أمين ص ٦٨.

﴿فأمّا الذينَ آمَنوا فزادَتهم إيماناً وَهُم يَستبشرونَ، وأما الذِينَ في قلوبِهم مرضٌ فزادَتهم رِجْساً إلى رِجْسِهم﴾ [التوبة: ١٢٥] ولأن القلب هو مكان الإيمان فإن الله يختم على قلوب الكافرين ﴿ ختمَ اللهُ على قلوبِهم وعلى سَمْعِهم وعلى أبصارِهم غشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ [البقرة: ٧] فالتمادي في الباطل وإنكار الحق جعل الله يختم على تلك القلوب ﴿ فلمّا زَاغُوا أزاغَ اللهُ قلوبَهم ﴾ [الصف: ٥] ﴿ فإن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ على قلبك ﴾ [الشورى: ٢٤] ﴿ وختمَ على سمعِه وقلبِه ﴾ [الجاثية: ٢٣] والقلب هو مكان الاطمئنان ﴿ الذِينَ آمَنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكرِ اللهِ ألا بذكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] ﴿ قالوا نريدُ أن نأكلَ منها وتطمئنَّ قلوبُنا ﴾ [المائدة: ١١٣] ﴿ إلا مَن أُكْرِهَ وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمانِ ﴾ [النحل: ١٠٦]. ﴿ قال أوَ لَمْ تؤمنْ قالَ بَلَى ولَكنْ لِيَطمئنَّ قلبي ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

والقلب هو مكان الخشوع والتقوى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلذِينَ آمَنوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكرِ اللهِ وما نزلَ مِن الحقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] ﴿ أولئكَ الذينَ امتحنَ اللهُ قلوبَهم للتقوى ﴾ [الحجرات: ٣] وكما أنه مكان الخشوع فهو مكان القسوة ﴿ ولا يَكونوا كالذينَ أوتوا الكتابَ مِن قبلُ فطالَ عليهمُ الأمدُ فَقَسَتْ قلوبُهم ﴾ [الحديد: ١٦] ﴿ فَبِما نَقْضِهم ميثاقَهم لَعَنّاهُم وجعلْنا قلوبَهم قاسيةً يُحَرِّفون الكَلِم عَن مَوَاضِعِه ﴾ [المائدة: ١٣].

ولأن القلب هو الوجدان فإن الرسول ﷺ يقول: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1].

وهذا الحديث يدل على أن الوجدان ملكة في الإنسان يمكن تنميته وتهذيبه وتقويته بالتربية ويمكن قتله بالإهمال، فإذا فعل الإنسان معصية أحس بتأنيب وألم، فإذا كرره كان الإحساس بالذنب والألم أقل، فإذا ما أصبحت المعصية عادة في حياته فقد ذلك الإحساس بالألم وتأنيب الضمير

(١) رواه البخاري.

والشعور بالذنب، لأنه قتل قلبه ووجدانه. وعن هذا يقول الرسول ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه فإن زاد زادت فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه ﴿ كلا بَلْ رَانَ على قلوبِهم ما كانوا يَكسِبون ﴾ [المطففين: ١٤]»[1].

وسائل التربية الوجدانية:

قبل الوسائل التي سنتحدث عنها يجب أن نحدد درجات الوجدان الذي يختلف باختلاف الناس الذين يمكن تصنيفهم في أنماط ثلاثة:

أولاً : الذين يقومون بالواجبات الدينية أو الاجتماعية أو الأسرية أو الوطنية بدافع من الخوف من الناس لا الإحساس بالواجب أو المسؤولية الإلّهية والاجتماعية، وقد وصف الله هذا النوع كثيراً في القرآن ﴿ فلا تَخْشَوُا الناسَ وَاخْشَـوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ والذينَ آمَنوا وما يخدَعونَ إلا أنفسَهم وما يَشعرونَ ﴾ [البقرة: ٩] وهذا النوع لا يتورع عن فعل أي شيء ما لم يجد رقيباً من الناس، أما رقابة الله فلا اعتبار لها عندهم.

ثانياً : نوع يحس بأهمية عمل الواجب سراً أو جهراً من غير رقيب أو حافز إلا رقابة الله، ومثل هذا لا يغش ولا يخدع ولا يخون ولا يكذب.

ثالثاً : نوع يتبع ما يراه حقاً سواء أكان موافقاً للناس أم مخالفاً، متمشياً مع القوانين الاجتماعية البشرية أم لا، وهؤلاء لا يخافون في الحق لومة لائم فقد تقف الأمة كلها أمامه فلا يجزع ولا يلين، وهذه مرتبة الأنبياء والعظماء من أنصار الحق، وكان الرسول ﷺ مضرب المثل في ذلك حينما وقفت قريش كلها ضده ثم عشيرته وقال قولته المعروفة: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر

---

(١) رواه ابن ماجه.

في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» والقرآن يقص علينا قصصاً كثيرة ومواقف متعددة مثل قصة سيدنا إبراهيم مع قومه وقصة أصحاب موسى مع فرعون ﴿ قالَ ءَآمَنْتُم لهُ قبلَ أنْ آذَنَ لكم إنه لَكبيرُكمُ الذي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فلأقَطِّعَنَّ أيْدِيَكم وأرجُلَكم مِن خلافٍ ولأُصَلِّبَنّكم في جذوعِ النخلِ ولَتعلمُنّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى، قالوا لن نؤثرَك على ما جاءَنا مِنَ البيناتِ والذي فطرَنا فَاقْضِ ما أنتَ قاضٍ إنما تقضي هذه الحياةَ الدنيا ﴾ [طه: ٧١ ـ ٧٢].

ولإحياء الوجدان الإنساني وجعله في حالة صحوة فإن التربية الإسلامية تبعد المسلم عن كل أمر يضعف هذا الوجدان ويقتله، وأول الأمور: البعد عن المعاصي لأن المعصية تمرض القلب ويزيده الله مرضاً على مرضه، وقد ذكرنا حديث النكتة السوداء في القلوب. ولا بد من ربط القلوب بذكر الله وتقواه والخشوع له وسؤال الله مقلِّب القلوب أن يثبِّتها على الإيمان. لأن المراقبة الدائمة لله ومحاسبة النفس على وساوسها وإيماءاتها تجعل الوجدان حياً، ولا بد أن يعيش القلب في أجواء صحية فلا يفكر إلا في الخير ولا يوسوس إلا بالحسنى لأن الخواطر السيئة تأتي من المنابع السيئة وتعوُّد القلب عليها يحسِّن له الرذائل والشهوات.

والتعود على الفضائل من وسائل التربية الوجدانية وتعلق إرادة الإنسان بأمر حسن هو الذي يسمى بالفضيلة. وقد عرف أفلاطون الفضيلة بأنها ليست مجرد عمل الحق لأن الحق قد يأتي عن أساس باطل بل هي العمل الخيِّر الذي يصدر عن علم بما هو الحق[1].

وأهم الفضائل التي يجب التعود عليها هي فضيلة الصدق لأن الأفراد والمجتمعات إنما يكون بناؤها على أساس من الصدق، فلوقامت الحياة

(١) أحمد أمين ـ الأخلاق ص ١٩٥.

على الكذب لانهارت، ولو عم الكذب في أمة كانت أمة فاسدة منحطة. ولذلك جعل الإسلام الكذب خصلة من خصال المنافق، فالرسول ﷺ يقول: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن؛ كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1]. كما روي عن عبدالله بن مسعود أن الرسول ﷺ قال: «إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

وقد حذر الرسول عليه الصلاة والسلام من تعويد الأطفال الكذب وذلك باكتشاف الطفل ذلك في والديه عن طريق المزاح أو اللهو أو التسلية أو غير ذلك مما يكتب كذبة عليه، ومن الكذب الملق والرياء بمدح شخص بما ليس فيه وما لا تعتقد رجاء المنفعة أو الرضا وإدخال السرور كوصف الرؤساء والأعيان والملوك بما ليس فيهم.. وكما أخبر الرسول ﷺ أن تحري الكذب يؤدي إلى أن يكتب المرء عند الله كذاباً؛ فإن تحري الصدق يؤدي إلى كتابته من الصادقين في بداية الحديث السابق: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً». والقرآن يثني على الصادقين والصادقات في سورة الأحزاب وفي التوبة ﴿ يا أيُّها الذِينَ آمَنوا اتَّقُوا الله وكونوا معَ الصادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لكانَ خيراً لهم ﴾ [محمد: ٢١].

ومن الفضائل أيضاً العفاف والصلة فقد أخبر أبو سفيان صخر بن حرب هرقلَ في حواره معه عما يأمرهم به النبي ﷺ قائلاً: (ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة) ومن الفضائل الممارسة تقوى الله ومراقبته والشجاعة وضبط النفس وغيرها.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

ثالثاً: التربية العاطفية

سبق أن ذكرنا أن الوجدان حاسة غريزية أخلاقية في حين أن العاطفة طاقة دافعة مكتسبة وأنها وسيلة للتربية الوجدانية، والعاطفة تختلف أيضاً عن الانفعال لأن الانفعال حالة تغير مفاجىء للجسم كله يسببه مثير أو منبه، ولا تلبث هذه الحالة أن تزول بزوال المثير والمسبب كالسرور والفرح والغضب والسخط وغيرها.

ولأن العواطف مكتسبة فهي تلعب دوراً كبيراً في حياة الناس، وهي مصدر كثير من الدوافع والجهود[1] (ولما كان أمر تكوينها يخضع خضوعاً تاماً للبيئة التي تحيط بالطفل وتشمل تلك البيئة المنزل والمدرسة والشارع والجامع والجيران والمسرح والسينما وكل من يتعامل معهم الطفل؛ فمن المهم إذن أن نعتني كل العناية بإصلاح هذه البيئة وإعدادها إعداداً طيباً يكون له أثره الصالح في الأفراد الذين يعيشون فيها ويتأثرون بها)[2].

وأول ما يدعو إليه الإسلام في التربية العاطفية توجيه عاطفة الإنسان نحو ربه ومحبة الله ورسوله، لأن هذا الحب يُخضع المرءَ لأوامر الله واجتناب نواهيه وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قلْ إن كنتم تحبّونَ اللهَ فاتَّبِعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغفرْ لكم ذنوبَكم﴾ [آل عمران: ٣١] وهذه المحبة

---

(١) د/ مصطفى فهمي ـ الصحة النفسية ص ٣٤٨.

(٢) نفس المصدر ص ٣٤٩.

تتولد عنها اتجاهات سلوكية تتمثل في الصفات الأساسية الواجب الإيمان بها في كل رسول وهي: الصدق وانتفاء صفة الكذب، والأمانة أمانة القيام بحق التكليف، والفطانة ورجاحة العقل، وأمانة الحجة، والتبليغ بمضمون الرسالة إلى الناس، وهذا هو القيام بحق الاقتداء بالرسول ﷺ ثم محبته. وتمثُّل الصفات السابقة فيه من صدق وأمانة وفطانة، وتبليغ للدعوة[1].

والرسول ﷺ يقول مبيناً عاطفة الحب لله وحب الناس نتيجة لحب الله ورسوله وفي الله ورسوله: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[2].

وتكون التربية العاطفية أيضاً بالتركيز على الثناء والحمد والدفع للفضائل، وتصوير الرذائل في صورتها القبيحة المنفرة مثال التنفير من الغيبة ﴿ أيحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخِيه مَيْتاً؟ فكرهتُموه ﴾ [الحجرات: ١٢] ومثل وصية لقمان لابنه ﴿ ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للناسِ ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحاً إن اللهَ لا يحبُّ كلَّ مُختالٍ فخورٍ، واقْصِدْ في مَشْيِكَ وَاغْضُضْ من صَوْتِكَ إنّ أنكرَ الأصواتِ لَصوتُ الحميرِ ﴾ [لقمان: ١٩].

وكما أن هذه الصورة القبيحة للرذائل وسائل منفِّرة؛ فإن الصور الجميلة التي ذكرها الله للجنة وأهلها وسائل محببة للفضائل.

كما أن القرآن استعمل الترغيب والترهيب في تكوين الناحية العاطفية واستعمل أيضاً الصور القصصية المعمقة للإيمان مثال على ذلك المبدأ والحب والإيثار والصبر والابتلاء ممثلة ذلك في قصص الأنبياء ومواقفهم ابتلائهم في الدنيا، وكلها وسائل تربوية للأخذ بها أهمية في تكوين الاتجاهات الخيرة نحو الفضيلة والاتجاهات المبعدة عن الرذيلة.

---

(١) راجع سعيد حوى ـ جند الله ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
(٢) رواه الشيخان.

رابعاً: التربية الجسمية والصحية

يقول الأستاذ محمد قطب: (حين نتحدث عن الجسم في مجال التربية فليس المقصود هو عضلاته وحواسه ووشائجه فحسب. وإنما نقصد كذلك الطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم، والمتمثلة في مشاعر النفس، طاقة الدوافع الفطرية والنزوعات والانفعالات، طاقة الحياة الحسية على أوسع نطاق)[1].

ومع إقرارنا بهذا الرأي إلا أننا سنتحدث عن توجيهات الإسلام في مجال تربية الجسم مجرداً على انعكاس تصرفات الحواس على الكيان النفسي والتفاعل المشترك بين النفس والجسم والتأثيرات المتبادلة بينهما.

فالإسلام يضع على عاتق الأب تهيئة المسكن الصالح والغذاء النافع والكساء الجيد مما يحفظ الأبناء ويهيىء لهم تنشئة جسمانية صحية جيدة، ولا يكون ذلك إلا إذا أنفق الأب على أبنائه ووسّع عليهم مما آتاه الله. فالرسول ﷺ يجعل الدينار الذي ينفقه الرجل على أهله أعظم أجراً من دينار أنفق في سبيل الله أو على مسكين أو في عتق رقبـة، ولذلك يحذر الرسول ﷺ من الإهمال والتقصير في الإنفاق فيقول: «كفى بالمرء إثماً أن يضيِّع من يَقوت»[2] وفي رواية مسلم في صحيحه بمعناه «كفى بالمرء إثماً

(١) منهج التربية الإسلامية ص ١٢٦.

(٢) رواه أبو داود.

أن يحبس عمن يملك قوته»[1].. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَعلى المولودِ لهُ رزقُهُنّ وكِسْوَتُهُنّ بالمعروفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ويقول ﷺ: «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»[2].

وإلى جانب ذلك يراعى في التربية الجسمية اتباع القواعد الصحية في الأكل والنوم والشرب وقد بينها الرسول ﷺ في أحاديثه وأولها التيامن في كل أمر لقول عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يعجبه التيامن في شأنه كله: في طهوره، وترجله وتنعله»[3] ويتبع ذلك في الوضوء والغسل والتيمم ودخول المسجد وتقليم الأظافر ولبس الثوب والنعل والسراويل والأخذ والعطاء والشرب والمصافحة وغيرها.

ومن القواعد الصحية أيضاً: التسمية في أول الطعام والحمد في آخره وذكر اسم الله عند دخول البيت لقوله ﷺ لعمر بن أبي سلمة: «سمِّ الله وكلْ بيمينك وكل مما يليك»[4] وقوله فيما روته عائشة: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل بسم الله أوله وآخره»[5] والرسول ﷺ يحذِّر من الإسراف في الأكل والشرب فيقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[5]. والحديث منسوب في الجامع الصحيح للترمذي الجزء الرابع؛ للمقدام بن معد يكرب. ...

ومن توجيهات الرسول ﷺ في هذا المجال: ألا يعيب المرء طعاماً

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.
(٥) رواه أبو داود والترمذي.

وإن كرهه، وأن يمدحه إذا دعي إليه، وأن يأكل من جانب القصعة ولا يأكل من وسطها، وأن لا يأكل متكئاً، وأن يأكل بثلاث أصابع. أما في آداب الشرب: فيمنع التنفس في الشراب ويستحب التنفس خارجه ثلاثاً، وأن يعطي الأيمن فالأيمن، ويكره الشرب من فم القربة ويقاس عليه الشرب من فم الزجاجة أو ما يحفظ الماء في الثلاجة، ويكره النفخ في الشراب، وتفضيل الشرب قاعداً وتحريم استعمال أواني الذهب والفضة في الأكل والشرب والطهارة وغيرهما.

ومن توجيهاته عليه الصلاة والسلام في اللباس: استحباب اللون الأبيض مع جواز غيره، والتحذير من جر الثياب تكبراً وخيلاء وبطراً، واستحباب التوسط فيه لأن الله لا ينظر يوم القيامة لمن جرر رداءه خيلاء وتفاخراً..

ومن هديه ﷺ في النوم: أن ينام المرء على شقه الأيمن داعياً الله تعالى بما أثر عن رسوله ﷺ، وأن لا يضطجع على بطنه لأن الله يبغض ذلك كما أخبر عليه الصلاة والسلام، كما يستحب أن يتوضأ قبل النوم وضوءه للصلاة فقد روى البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن ثم قال: «اللهم أسلمتُ نفسي إليك، ووجّهتُ وجهي إليك، وفوّضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ ونبيك الذي أرسلتَ»[1].

ومن توجيهات الرسول عليه الصلاة والسلام الصحية: المحافظة على نظافة المظهر، وإعطاء البدن حقه من الراحة والطعام والنظافة «إن لبَدَنك عليك حقاً» وأن لا يحرم نفسه من حاجتها المادية في الحياة ومن الزينة التي حللها الله والطيبات من الرزق، ولذلك نجد العبادات في

(١) رواه البخاري في باب النوم على الشق الأيمن.

الإسلام تقوم في ظاهرها على الجسد، فالوضوء تطهير ونظافة خارجية لها مدلولها النفسي، وكذلك الصيام والزكاة والحج، وعلى المسلم أيضاً الاهتمام بالنظافة عامة لأن العبادات مرتبطة بها، وعليه الاهتمام بها في جوانب معينة كالطهارة من الحدث والخبث، وما يتعلق بأذى الناس كالسواك الذي يقول عنه الرسول: «إنه مطهرة للفم مرضاة للرب»، والذي كان يبدأ به الرسول ﷺ إذا دخل بيته ويكثر من تنبيه أصحابه عليه، وقال فيه فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «لولا أن أشُقّ على أمتي ـ أو على الناس ـ لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»[1] وما رواه حذيفة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من النوم يشوص (أي يدلك) فاه بالسواك»[2].

ومن هديه ﷺ الأمر بالوقاية من الأمراض المعدية، وعدم تعريض الأنفس للهلاك، وأخذ المصل الواقي من كل مرض، وعزل المريض عن غيره، ففي حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها»[3]. وعليه تقاس الأمراض المعدية كلها، كما أن المريض لا بد من أن يتداوى لما ورد من أحاديث في ذلك منها سؤال بعض الأعراب لرسول الله ﷺ إذ قالوا: «يا رسول الله أنتداوى؟ قال: نعم يا عباد الله تداوَوا فإن الله عزّ وجلّ لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد، قالوا: ما هو؟ قال: الهرم»[4].

ولا بد في تربية الجسم من الاهتمام بممارسة الرياضة البدنية والألعاب التي تُعِدُّ الناس للقيام بواجبات دعوتهم في الحياة، إذ أن الدعوة الإسلامية دعوة جهاد وكفاح، ولا بد من تربية الناس لما يتطلبه دورهم في

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه أحمد في سنده والنسائي.

الحياة من حمل للرسالة وجهاد في سبيلها وإزالة للعوائق أمامها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ كُنتم خيرَ أمّةٍ أُخرجَت للناسِ تأمرونَ بالمعروفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ وتُؤمِنونَ باللهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولا يكون ذلك إلا بالإعداد الجسدي والحربي ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استطعتُم مِن قوةٍ ومِن رِباطِ الخيلِ تُرْهِبونَ بهِ عدوَّ اللهِ وعدوَّكم ﴾ [الأنفال: ٦٠].. وأول شيء يعده الإسلام هو القوة البشرية القادرة على القتال والجهاد وتغيير الواقع الجاهلي المخالف لله إلى منهج الله وطريقه المستقيم، ولذلك أمر الرسول ﷺ بتعليم السباحة والرمي وركوب الخيل، وتقاس عليها أنواع الرياضة البدنية المستحدثة التي يمكن أن تربي أجساد الشباب وتزيدها قوة ومتانة شريطة مراعاة التعاليم الإسلامية من حيث الوقت واللباس والبيئة التي تتحكم في التربية الرياضية، فالرسول ﷺ يقول: «ألا إن القوةَ الرميُ. ألا إن القوةَ الرميُ. ألا إن القوةَ الرميُ»[1].. ويقول: «كل شيء ليس من ذكر الله فهو لهو أو سهو إلا أربع خصال: مشي الرجل بين الغرضين - أي للرمي - وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، وتعليمه السباحة»[2].

وقد سابق الرسول ﷺ عائشة فسبقته في الأولى وسبقها في الثانية كما سابق بناقته القصواء، وقد ذكرت عائشة أنها كانت ترى الحبشة يلعبون في المسجد بحرابهم والرسول ﷺ يقول لهم: «دونكم يا بني أرفدة» وطلب من سيدنا عمر أن يتركهم حين أراد منعهم.

وتقتضي هذه التربيةُ الجسدية القائمة على القوة والإعداد للحياة والحرب - وكلاهما يحتاج إلى القوة - أن ينشّأ الشباب على الرجولة والخشونة لا على الميوعة والدعة، ويقتضي ذلك ترجمة عملية في رعاية الشباب ومناهج الدراسة ومعسكرات التدريب والرحلات التي تعد الشباب وتبعدهم عن أجواء الدعة والراحة والتنعم، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «إياكم

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الطبراني.

والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين»[1] والغزالي يقول عن الصبي: «وينبغي أن يمنع من النوم نهاراً فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلاً، وأن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه، ولا يسمن بدنه فلا يصبر على التنعم بل يعوَّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم) ويقول: (ويعود الصبي في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل) ويقول: (ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه في المطعم والمشرب والتنعم في الملبس والتجمل في الأثاث والمسكن، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله ويميل إلى الاكتفاء في جميع ذلك)[2].

وليس معنى هذا تحريم الزينة على المسلم، فقد أباح الإسلام من الزينة الزينة التي لا تجعله متشبهاً بالكفار أو التي تستعبده وتسترقه، وقد حرم الإسلام أموراً واضحة كلبس الذهب والحرير للرجال، وإطالة اللباس خيلاء، والتشبه بأبناء الكافرين إعجاباً، ولبس الرجال ملابس للنساء والعكس، أما الثياب الجيدة الممتازة ففي لبسها إظهار لنعمة الله على العبد، فقد روى الأحوص عن أبيه قوله: «أتيت النبي ﷺ وعليّ ثوب دون فقال لي: ألك مال؟ قلت: نعم. قال: من أي المال؟ قلت من كل المال قد أعطاني الله تعالى من الإبل والبقر والغنم والرقيق قال: فإذا آتاك الله مالاً فليرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته»[3].

وروي عن سعيد بن المسيب عن رسول الله ﷺ قوله: «إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا ـ أراه قال ـ أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود»[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد.
(٢) إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٧٣.
(٣) رواه النسائي.
(٤) رواه أبو داود.

وهذا يدل على أن كثيراً من مظاهر عدم النظافة والاهتمام باللباس ادعاءً للزهد في الدنيا؛ ليس مما يدعو إليه الإسلام، ويجب ألا نمارس كثيراً من العادات غير الصحيحة والمظاهر غير اللائقة في اللباس والسلوك ثم ننسبها إلى الإسلام، لأن الإسلام دين الفطرة، والفطرة مع النظافة والذوق والسلوك الحسن والمظهر الجميل، فقد كان الرسول ﷺ يطلب من أصحابه أن يحسنوا لباسهم ويصلحوا رحالهم حتى يكونوا كشامة في أعين الناس.

إن الاهتمام بالتربية الجسمية والصحية لا بد أن يسيرا في توازن واتفاق مع جوانب التربية الأخرى، لأنها كلها في النهاية متداخلة مع بعضها متبادلة التأثير. والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

خامساً: التربية العقلية والفكرية

سبق أن تناولنا نظرة الإسلام للعلم والتعليم والعلماء، وقد وضّحنا أن الإسلام جعل من أهداف التربية نشر العلم والثقافة والمعرفة، وقد جاء الإسلام يحث الناس على التعليم، فارتفع المستوى العقلي لأمة العرب فعرفوا عن طريق القرآن الكثير من أحوال الأمم الماضية من خلال قصص الأنبياء وموقف أممهم منهم، ثم انتشرت بينهم حركة تشريعية كبرى نتيجة تعاليم الإسلام المتعلقة بتنظيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، كما دعا الإسلام المسلمين إلى إعمال عقولهم في النظر في ملكوت الله في السموات والأرض والإنسان، فالله سبحانه يقول: ﴿ فَلْينظرِ الإنسانُ إلى طعامِهِ أنا صَبَبْنا الماءَ صَبّاً ثم شَقَقْنا الأرضَ شَقّاً فأنْبَتْنا فِيها حَبّاً وعِنَباً وقَضْباً وزيتوناً ونخلاً وحدائقَ غُلْباً وفاكِهةً وأبّاً، متاعاً لكم ولأنعامِكم ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢] ويقول: ﴿ إن في خَلْقِ السماوات والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ الذِينَ يَذكرونَ الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبِهم ويتفكّرونَ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ رَبَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانَكَ فَقِنا عذابَ النارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

وغاية التفكير في خلق الله هو توجيه العقل البشري إلى ما يجب أن يتجه إليه من إيمانه بالله خالق الكون بالحق، لأن التدبر في آيات الله يؤدي إلى ذكر الله وعبادته القائمة على المعرفة والإدراك الواعي وربط المعرفة بأداء متطلباتها في واقع الحياة، وهو ذكر الله في كل الحالات، وقد وجه

القرآن لدراسة النبات والجماد والحيوان لأن دراستها ومعرفتها تؤدي إلى معرفة الله والخشية منه وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أنزلَ مِنَ السماءِ ماءً فأخرَجْنا بهِ ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها وَمِنَ الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلفٌ ألوانُها وغَرابيبُ سودٌ، وَمِن الناس والدوابِّ والأنعامِ مختلفٌ ألوانُه كذلكَ، إنما يَخْشَى اللهَ مِن عبادِهِ العلماءُ إن اللهَ عزيزٌ غفورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨].

وقد دعا الإسلام في مجال التربية العقلية إلى تحرير العقل من رواسب الماضي وعدم تعطيله بالتسليم بالمقلدات الموروثة حديثة كانت أم قديمة ﴿ وقالوا بَلْ نَتَّبِعُ ما ألفَيْنا عليهِ آباءَنا أوَ لَوْ كانَ آباؤُهم لا يَعقلونَ شيئاً ولا يَهتدونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].. وتحرير العقل من عيب التقليد يقتضي اعتماده على اليقين والتثبت لا على الحدس والظن والتخمين، لأن مسؤولية الجوارح عظيمة وبالتالي مسؤوليات صاحبها ﴿ ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ بهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ كُلُّ أولئكَ كانَ عنه مَسؤولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦].. ﴿ إن يَتّبِعونَ إلا الظنَّ وإنَّ الظنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شيئاً ﴾ [النجم: ٢٨].. ومن جنسٍ اتباع الظن اتباع الهوى الذي يؤدي إلى الضلال والانحراف ﴿ وَمَنْ أضلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغيرِ هُدىً مِنَ اللهِ ﴾ [القصص: ٥٠] لأن مخالفة الهوى تؤدي إلى العلم والمعرفة والإيمان: ﴿ وأما مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفسَ عَن الهَوَى فإنَّ الجنةَ هيَ المأوى ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].. ومن اتباع الهوى والظن: عدم طلب الدليل في كل أمر لاتباعهم الهوى والظن، والمؤمنون مطالبون بطلب الدليل والتثبت في كل شأن ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنوا إنْ جاءَكم فاسِقٌ بِنَبأٍ فَتَبَيَّنُوا أن تُصِيبوا قوماً بجهالةٍ فَتُصبِحوا على ما فعلتُم نادِمين ﴾ [الحجرات: ٦]..

فالإسلام يهدف إلى جعل التفكير العلمي أساس كل شيء في الحياة، لذلك يختم القرآن كثيراً من التوجيهات في مجال التشريع والعبادة وشؤون الحياة المختلفة بالدعوة إلى إعمال العقل والتفكير والتدبر، والذين

يتخذون المنهج العلمي أساساً لتفكيرهم هم أولـو الألباب لأن هذا المنهج هو الذي يؤدي إلى التذكر لله والتقوى وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ إن في ذلكَ لَذِكْرَى لأولي الألبابِ ﴾ [الزمر: ٢١] ﴿ إنّما يَتَذَكّرُ أُولـو الألبابِ ﴾ [الرعد: ١٩] ﴿ وَلَكُم في القِصاصِ حياةٌ يا أُولي الألبابِ لعلّكم تَتّقونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].. والآيات التي تنتهي بقوله تعالى: (لعلـكم تعقلون ـ تتفكرون ـ تعلمون ـ لقوم يعلمون).. كثيرة، وقد ورد ذكر أولي الألباب ست عشرة مرة في القرآن الكريم.

والإسلام يدعو قدر الإمكان إلى الحد من الأخذ بالتفكير الفردي ويحبذ التفكير الجماعي، لأن التفكير الفردي قد يؤدي إلى هلاك الجماعة ولو كانوا قلة من الأفراد مثل ما ذكر الرسول ﷺ في حديث السفينة والتفكير الفردي لقلة أرادت أن تخرق في جانبها ودعوة الجماعة إلى الأخذ بيدهم حتى لا يهلكوا جميعاً، فالأمة كلها مطالبة باليقظة والوعي الكامل ﴿ وَاتَّقُوا فِتنةً لا تُصِيبَنَّ الذِينَ ظلموا منكم خاصّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥] فالمسلمون وهم يمثلون جسداً واحداً وفكراً واحداً ويحملون دعوة واحدة من مصدر واحد مطالبون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلاهما عمل يتطلب النضج والوعي والتعقل والحكمة والموعظة الحسنة.

ويتطلب الإعداد الفكري والعقلي للأمة وَضْع يدها على تجارب الأمم السابقة وما حل بها، حتى تأخذ الأمة العاقلة اليقظة والعبرة وتستفيد من الدرس. والقرآن يعطينا نماذج من تعطيل التفكير العقلي الذي أدى إلى هلاك الأمم، ومن مظاهر هذا التعطيل: التكذيب بما جاء به الأنبياء لأن التفكير السليم في تصديقهم لا تكذيبهم ﴿ قل سِيروا في الأرضِ ثم انْظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذِّبين﴾ [الأنعام: ١١].. وعاقبة المكذبين والدعوة إلى النظر في شأنهم كثيرة في القرآن.

ومن مظاهر تعطيل إعمال العقل: الظلم في الأرض، فالله قد لعن الظالمين لأنهم يصدون عن سبيل الله، والصدّ عن سبيل الله تعطيل للعقل

في اتخاذ الطريق المستقيم ويقول تعالى: ﴿ ولقد أهلَكْنا القرونَ مِن قبلِكم لمّا ظَلَموا ﴾ [يونس: ١٣] لأن تعطيل العقل أدى إلى الظلم الذي كان من نتيجته عدم الإيمان بما جاءت به الرسل، ولذلك جعل القرآن الشرك على لسان سيدنا لقمان من الظلم العظيم.

ويبين القرآن أن الأمم قد تبلغ درجة من الرقي العقلي المادي وتعمر الأرض بآثار فكرها ولكنها تعطل عقلها في جانب الله وتظلم نفسها فيصيبها الدمار ﴿ أوَ لَمْ يَسيروا في الأرضِ فَيَنظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذينَ مِن قبلِهم؟ كانوا أشدَّ منهم قوةً وأثاروا الأرضَ وعَمَروها أكثرَ مِمّا عَمَروها وجاءَتْهم رُسُلُهم بالبيناتِ فما كانَ اللهُ لِيظلِمَهم ولكنْ كانوا أنفسَهم يَظلمون ﴾ [الروم: ٩].

واستعمال العقل والتفكير العلمي كما ذكرنا وسيلة لمعرفة الله وعبادته واتخاذ الطريق القويم، وذلك ما عبّر عنه القرآن في بعض المواضع (بالحكمة) ﴿ ولقد آتَيْنا لُقمانَ الحكمةَ ﴾ [لقمان: ١٢] أي الفهم والعلم والتعبير كما يقول ابن كثير وهي بمعنى التفقه في الدين ونفاذ البصيرة وسلامة الرأي وحسن التصرف والتقدير ومراعاة مقتضى الحال ﴿ ادْعُ إلى سبيلِ رَبِّكَ بالحكمةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] وحديث رسول الله ﷺ: «لا حسدَ إلا في اثنتَين. .» ثانيتهما «رجل آتاهُ اللهُ الحكمةَ فهو يقضِي بها ويعلِّمها». ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا مِن قبلُ لَفِي ضلالٍ مُبين ﴾ [الجمعة: ٢]. ﴿ يُؤتِي الحكمةَ مَنْ يشاءُ وَمَن يؤتَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً وما يَذَّكَّرُ إلا أولو الألبابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ويحدثنا القرآن أن الانحراف عن التفكير العقلي السليم يؤدي إلى فساد الفطرة والبعد عن الله مع وجود التقدم المادي والعمران البشري ﴿ يَعلمونَ ظاهراً مِن الحياةِ الدنيا وهم عن الآخرةِ هم غافِلون. أوَ لَمْ يَتفكّروا في أنفسِهم ما خلقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ وما بَيْنَهما إلا بالحقِّ وأجلٍ مُسَمّى، وإن كثيراً من الناسِ بلقاءِ رَبِّهم لَكافرون﴾ [الروم: ٧ ـ ٨].

إن التربية العقلية للأمة تقتضي أن يكون الإسلام هو نظام الحياة، لأن الإسلام هو التجربة الوحيدة في الحياة التي تحترم العقل ولا تخالفه، وفي مجال المقارنة بين الإسلام والنظم المعاصرة وما في الإسلام من احترام للعقل وموافقة له وما في النظم المعاصرة من مخالفة للعقل، يقول الأستاذ سعيد حوى: (إن أنظمة الحكم اليوم في العالم تدعي العلمانية ولكنك تجد العلم والواقع مختلفين.

أ - العلم يقرر ضرر الخمر والدخان والزنا والواقع إباحته في كل نظم العالم.

ب - الأكاذيب تنتشر في أجهزة الإعلام، والسياسة تعتمد على الكذب، وعلم النفس والاجتماع يسخَّران لذلك، فماذا بقي من عقل الإنسان واحترامه؟.

ج - العقل يُساء إليه إما بفرض نوع من الفكر لا يقبل النقد والبحث، كما في المجتمعات الاشتراكية، حيث التفكير جريمة. وإما بإطلاق اللسان دون تعقل أو قيد كما في المجتمعات الرأسمالية التي يخضع فيها الفكر للموت والشهوانية والشطط)[1].

إن التربية الفكرية تقتضي ربط الإنسان منذ صغره بالفكرة التي يعيش لها والمبادىء التي يجاهد في سبيلها، فالطفل المسلم لا بد أن يربّى على منهج الإسلام وفكره وأن يقدَّم له التصور الإسلامي الصحيح للحياة والتشريع والحكم والاقتصاد والسياسة، وأن وجوده في الحياة متوقف على العمل لله والدعوة إليه وسيادة كلمته في الأرض، وأن الحياة مليئة بالمبادىء والأفكار الباطلة التي يضحي الناس من أجلها والحصانة الفكرية ضد تلك الأفكار واجبة بمعرفتها ودراستها والتعمق فيها لكشف باطلها ودحض حججها، وعلى رأس تلك الأفكار الشيوعية الملحدة، والصليبية

---

(١) راجع سعيد حوى - الإسلام ص ٨ ج ثاني.

الحاقدة، واليهودية بخططها وأفكارها وأهدافها البعيدة والقريبة والاحتلال بأشكاله وأقنعته، والماسونية بسمومها ودعاواها الإنسانية، والدعوات التي لبست ثياب الدين كالقاديانية والبهائية وغيرهما؛ كل هذه الأفكار وتعلّمها جزء من التربية العقلية يجب على الدولة والآباء والمربين القيام به ليتميز الشباب المسلم عن غيره بدعوته وفكره ورسالته، وهذا يقتضي إعادة النظر في كثير مما يتعلمه أبناء المسلمين وأهمها إعادة كتابة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بما قدمته للبشرية من عطاء لا زال مستمراً، وسر هذا التاريخ الذي غيّر مجرى الأمور في العالم والحضارة التي نقلت البشرية من عهود الظلام والجهل والتخلف إلى عصر العلم والنور والتقدم بفضل رسالة محمد ﷺ وتعاليم القرآن ونظامه.

سادساً: التربية المهنية التخصصية

سبق أن تحدثنا عن العمل كهدف من أهداف التربية الإسلامية باعتبار المجتمع المسلم مجتمع كفاية وعدل، واجب الدولة فيه أن تؤمن لكل مسلم حاجاته الضرورية ومطالبه الأساسية في الحياة من مسكن ومأوى وزوجة تعصمه وعمل يوفر له مطالب المطعم والملبس.

ولذلك رأى الإسلام في التخصص في كل علم من علوم الحياة فرض كفاية، خاصة العلوم التي يعتمد عليها في أمور الحياة كالطب والهندسة والحساب وعلوم القرآن والحديث والآثار والأخبار وأصول الصناعة والزراعة وغيرها، فإذا لم يوجد الاختصاصيون في كل علم من هذه العلوم الإسلامية أو المدنية أَثِمَ المسلمون جميعاً، والعالم الإسلامي في حاجة إلى الاختصاصيين في مجالات الصناعة بأنواعها المختلفة والزراعة بطرقها وأساليبها الحديثة والطب بتخصصاته المتعددة الدقيقة والصيدلة وعلوم الطيران والبحرية والبترول والمعادن وصناعة المواد الغذائية والنسيج وغيرها من الصناعات التي تقوم المدنية عليها.

والرسول ﷺ يدعو إلى عدم الاعتماد في الصناعة على غير المسلمين إذ يقول قبل إسلام الفُرس: كان الإنسان يقاتل بقوس فارسيّة: ألا قاتل بقوس عربية أو كما قال رسول الله ﷺ، والله سبحانه وتعالى يبين أنه سخر للإنسان ما في السماوات والأرض وأنشأه من الأرض واستعمره فيها وأسبغ

على الناس نعمه ظاهرة وباطنة، وما على الناس إلا أن يستخرجوا ما في الأرض من طاقات وكنوز يعمرون بها الأرض ويسهلون بها الحياة. ولذلك يطالب الرسول ﷺ بوضع ضمانات للعمل والعمال تقوم هذه الضمانات على الأخلاق وتقوى الله كإتقان العمل وتقوى الله فيه، لأن من أخذ أجراً حوسب على العمل، وأن على المسلمين إعمار الأرض حتى تقوم الساعة «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» ويقول: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرعها».

ولذلك كان علماء التربية في الإسلام يدعون إلى تعليم الطفل القرآن وعلوم الدين ثم توجيهه إلى الصناعة التي يريدها ويصلح لها حسب ما لديه من استعدادات وميول، فيقول ابن سينا: (ليست كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه.. ولذلك ينبغي لمدبِّر الصبي إذا رام اختيار صناعة؛ أن يزن أولاً طبع الصبي ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك) ويقول: (إذا فرغ الصبي من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نُظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته فيوجه لطريقه، فإن أراد الكتابة أضاف إلى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم وما أشبه وطور في الحساب ودخل به الديوان وعني بخطه، وإن أريد أخرى أخذ به فيها) فالصناعة هنا تشمل كل أنواع العمل التي يمارسها الإنسان من كتابه ومحاسبة وطب وتعليم وعمل يدوي وغير ذلك. والله سبحانه وتعالى يبين نعمة الصناعة وتعلمها للإنسان، الصناعة بمعناها الفني فيقول عن سيدنا داود عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبوسٍ لكم لِتُحْصِنَكُم مِن بَأْسِكم فهل أنتم شاكرون ﴾ [الأنبياء: ٨٠] ويقول: ﴿ ولقد آتَيْنا داودَ مِنّا فَضْلاً يا جبالُ أَوِّبِي معه والطيرَ وأَلَنّا له الحديدَ أنِ اعْمَلْ سابغاتٍ وَقَدِّرْ في السَّرْدِ واعْمَلوا صالحاً إني بما تعملونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١١] وقد كان سيدنا داود قد سأل الله (أن يعلمه عملاً يستغني به ويغني به عياله فألان الله عزّ وجلّ له

الحديد وعلّمه صنعة الدروع فعمل الدروع وهو أول من عملها)[1].

إن الإسلام يشجع الأفراد للاستفادة من إمكاناتهم المادية وقدراتهم العملية في بناء الحضارة وعمارة الأرض على أساس من التعاون على البر والتقوى ونبذ للحسد والتباغض والضعف والكسل والاعتماد على الآخرين في مجال الكسب «لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول»[2].

إن التقدم الحضاري المادي والروحي يتمثل في مدى التقدم الصناعي الذي يُبنى أساساً على التقدم العلمي والصناعي والزراعي وعلى مدى تعاون أفراد الأمة في نقل تجاربهم وخبراتهم إلى غيرهم فقد سأل أبو ذر الغفاري النبي ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق»[3].

والعمل التجاري جانب مهم في الحياة الاقتصادية للأمة ولذلك اهتم الإسلام بالعلاقات المالية كثيراً، لأن مجال الانحراف وتحكم الهوى والشح والأثرة فيه كبير، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ لا تأكُلوا أموالَكُم بينكم بالباطلِ ﴾ [النساء: ٢٩] وحرّم الربا في آيات كثيرة وحرم أنواع التعامل المختلفة به ﴿ الذِينَ يأكلونَ الرِّبَا لا يَقومونَ إلا كما يَقومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطانُ مِنَ المَسِّ ذلكَ بأنّهم قالوا إنّما البيعُ مثلُ الرِّبا وأحَلَّ اللهُ البيعَ وحرَّمَ الرِّبا﴾ [البقرة: ٢٧٥] كما منع الاحتكار والتناجش وبيع الرجل على أخيه، ودعا إلى السهولة والسماحة في البيع والشراء والأمانة والصدق، وكلها ضوابط لهذا العمل حيث إن النشاط الاقتصادي يمثل جانباً من الحياة المهنية، لذلك لا بد أن يكون التخطيط الاقتصادي شاملاً لميادين التعليم والصحة والسياسة وغيرها، والتربية والتعليم ضروريان في

(١) ابن كثير ص ٥٣٥ ج ثالث.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري.

التصنيع لأنهما وسيلة تحضير الكوادر المهنية وتعليمها ووسيلة تحضير الاختصاصيين في مجال الصناعة والزراعة والتجارة.

إن التربية المهنية للفرد هي التي تحقق له التوافق مع مجتمعه باعتباره إنساناً منتجاً عاملاً ناجحاً وتحقق له السعادة باعتباره شخصاً نافعاً لمجتمعه وأسرته.

إن الإسلام يربي الناس على العمل واحترامه والسعي في الرزق باعتبار العمل عبادة مرتبطة بإيمان المسلم، يتقي فيه الله ويخشاه. فهو إن كان يؤدي تكاليف العبادة وكأن الله يراه؛ فإنه في أداء العمل الذي يؤجر عليه مراقب لله مخلص في أدائه لقوله ﷺ فيما رواه البيهقي: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[1] والإتقان يقتضي تعلم نوع العمل الذي يعمله والمهنة التي يمتهنها لأنه محاسب على الأجر وعلى العمل الذي أخذ الأجر عليه.

وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بما أنعم على الرسـل من تعلم الصناعات وتسخير مواد الحياة لهم، فقد قال عن سيدنا داود ﴿ وعَلّمناه صنعةَ لَبوسٍ لكم لِتُحْصنَكُم مِن بأسِكم فهل أنتم شاكرون ﴾ [الأنبياء: ٨٠] ويقول أيضاً: ﴿ وأَلَنّا لهُ الحديدَ أنِ اعملْ سابغاتٍ وقَدِّرْ في السَّرْدِ واعْمَلوا صالحاً ﴾ [سبأ: ١٠ - ١١] فقد ألهمه الله صناعة الدروع بالطريقة التي تكون سهلة الاستعمال، مرنة، نافعة في الحروب ليكون جزاء التعلم من الإنسان شكر الله على نعمة الصنعة والتعلم، وهو من العلم الذي آتاه الله داود وسليمان فشكرا له على تفضيلهما على كثير من خلقه، وكذلك كان دأب ذي القرنين الذي أقام سدّاً في وجه يأجوج ومأجوج وقال: ﴿ آتوني زُبُرَ الحديدِ حتى إذا سَاوَى بينَ الصَدَفَيْنِ قالَ انفُخوا حتى إذا جعَلَه ناراً قالَ آتوني أُفْرِغْ عليه قِطْراً. فما اسْطاعوا أَن يَظهَروه وما استَطاعوا له نَقْباً ﴾ [الكهف: ٩٦ - ٩٧].

(١) البيهقي - شعب الإيمان.

وهو يقابل هذه النعمة بردها إلى صاحبها ومن علمه إياها ﴿ هذا رحمةٌ مِن رَبِّي فإذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكّاءَ وكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴾ [الكهف: ٩٨] فالتربية المهنية هي وسيلة المؤمن إلى إصلاح الأرض وتعميرها وبقاء الحياة واستمرارها، وقد كان سيدنا نوح يصنع الفلك بأمر الله ﴿ وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْينا ولا تُخاطِبْني في الذِينَ ظَلَموا إنّهم مُغْرَقونَ وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وكُلّما مَرَّ عليه مَلأٌ مِن قَوْمِهِ سَخِروا منه ﴾ [هود: ٣٧ ـ ٣٨].

وقد رعى كثير من الأنبياء صلوات الله عليهم الغنمَ ومنهم خاتم المرسلين الذي كان يرعى الغنم لأهل مكة، كما سبقه إلى ذلك سيدنا موسى فيما روى القرآن قصته مع نبي الله شعيب ﴿ قالَ إني أريدُ أنْ أُنْكِحَكَ إحدَى ابنتَيَّ هاتَيْنِ على أن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فإنْ أتمَمْتَ عَشْراً فَمِن عِنْدِكَ وما أريدُ أن أشُقَّ عليكَ سَتَجِدُنِي إن شاءَ اللهُ مِن الصالِحِينَ قالَ ذلكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أيَّما الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ فلا عُدوانَ عليّ واللهُ على ما نقولُ وكيلٌ ﴾ [القصص: ٢٧ ـ ٢٨].

وقد تمرّس الرسول ﷺ على التجارة منذ صغره حيث سافر مع عمه أبي طالب وهو في الثانية عشرة، ثم عمل مع السيدة خديجة في تجارتها مع غلامها ميسرة، مما دفعها لطلب الزواج منه مما رأت من أمانته ونجاحه في عمله. وقد بيّن الرسول ﷺ منزلة التاجر الأمين الصادق حيث يكون مع النبيين والشهداء والصالحين وحذر من اليمين الفاجرة التي تخل بآداب المهنة وتقلل الثقة وتنفق السلعة وتمحق الكسب.

إن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن الحياة سعي وعمل وكدْح ومجاهدة في سبيل الرزق الذي به يعمر الإنسان الأرض ويثري الحياة، وأنه لا راحة من العمل ولا تعطل إلا وقت صلاة الجمعة ﴿ يا أيها الذِينَ آمَنوا إذا نُودِيَ للصلاةِ مِن يومِ الجمعةِ فَاسْعَوْا إلى ذكرِ الله وَذَرُوا البَيْعَ ذلكم خَيْرٌ لكم إن كنتم تَعلمونَ. فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِروا في الأرضِ وَابْتَغُوا مِن فضلِ

اللهِ واذكُروا اللهَ كثيراً لعلّكم تُفْلِحونَ ﴾ [الجمعة: ٩ ـ ١٠] والرسول ﷺ يقول: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[١] وروي عن سيدنا عمر أنه وجد جماعة لا يعملون فسألهم فأجابوا بأنهم متوكلون فضربهم بسوطه وبيّن لهم: (إن المتوكل هو الذي يلقي الحب في الأرض ثم يتوكل على الله) وقال لهم: (لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة). وعمر هو الذي يقول: (إنه رب الرجل فيعجبه فيسأل إن كانت له صنعة فإذا قالوا لا. سقط الرجل من عينيه) فالمسلم يستمد مكانته عند الله والناس من مهنته التي يتقنها سواء أكانت صناعة أو زراعة أو عملاً كتابياً أو فكرياً أو غير ذلك من المهن التي يتعلمها الناس ويتقنونها.

وقد أدرك علماء المسلمين تفاوت قدرات الناس في تعلم المهن والصناعات باختلاف ميولهم وقدراتهم العقلية والجسمية واستعداداتهم الخاصة فابن سينا يوضح ذلك ويقول: (ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه، وإنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ما كان أحد غفلاً من الأدب، وعارياً من الصناعة. وإذن لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات، وربما نافر طباع الإنسان جميع الآداب والصناعات فلم يعلق منها بشيء، ولذلك ينبغي لمدبر الصبي إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولاً طبع الصبي، ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه فيختار له الصناعات بحسب ذلك)[٢] فواجب المربي إذن أن يلبي للطالب رغبته وميله فيما يتعلق بالصناعة التي يريدها أو المهنة التي يريد التخصص فيها ما دام ذلك مناسباً لاستعداده وقدراته واتجاهه وميله وعطائه وإبداعه، لأن كلاً ميسر لما خلق له بفطرته ودرجة ذكائه وطاقته.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) نقلاً عن الأبراشي ـ «التربية الإسلامية وفلاسفتها» ص ١٩٧.

إن التربية المهنية لا بد أن تكون جزءاً هاماً في المنهج الدراسي تلبي التربية من خلالها حاجة المجتمع إلى المتخصصين والفنيين والأيدي العاملة المتعلمة، ولذلك رأى ابن خلدون في مقدمته أن العلوم والصنائع تزدهر بكمال العمران الحضاري فحيث يكثر العمران وتعظم الحضارة تتقدم العلوم والصناعات.

الإسلام يحض على العمل والسعي في طلب الرزق وينفر من كل مظاهر الكسل والتواكل والبطالة، ولا يمكن للمجتمع المسلم أن يحقق تلك النصوص في واقع الحياة ما لم يتيسر لأفراده أن يتعلموا الحرف والمهن التي تمكنهم من الحياة الكريمة وتبعدهم عن ذل الحاجة والسؤال وتجعلهم أناساً لهم اعتبارهم في المجتمع ومكانتهم فيه، إلى جانب ربط ذلك بالعبادة لأن العمل عبادة في الإسلام فقد جلس أصحاب رسول الله ﷺ ينظرون إلى شاب يسرع في عمله فقالوا: (لو كان شبابه وجلده في سبيل الله!) فقال لهم الرسول ﷺ: «لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفّها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليعيشهم ويكفيهم فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخراً أو تكاثراً فهو في سبيل الشيطان».

وقد تحدث الفقهاء عن مستحقي الزكاة فجعلوا ضمن الفقراء صاحب الحرفة المحتاج إلى آلة حرفته يعطى ما يحقق له الكفاية ويضمن له وسيلة رزقه سواء أكان خياطاً أو نجاراً أو قصّاباً أو مزارعاً وغيرها مما يمكن أن يقاس عليهم في عصرنا، بل جعلوا لمن لا يحسن صنعة ولا تجارة أن يأخذ من المال ما يشتري به عقاراً يؤجره ويستغل منه كفايته. وقد روي عن الإمام أحمد إجازته أن يأخذ الفقير تمام كفايته دائماً بمتجر أو آلة صناعة على ما أقره سيدنا عمر رضي الله عنه (إذا أعطيتم فأغنوا)[1].

والإسلام يوجب علينا أن نأخذ بأسباب الحضارة والتقدم، ولا يتحقق

(١) راجع سعيد حوى - الإسلام ص ١٢٠ - ١٢٢ ج الأول.

ذلك ما لم يتوفر في الدولة أصحاب الكفايات في كل فن وعمل، فإذا كان الفقهاء قد عدوا العلوم التي لا يستغنى عنها في قوام أمور الدنيا من فروض الكفاية ومنها الطب والحساب والنحو والفقه وعلوم القرآن وعلم الرجال وأصول الصناعات والفلاحة؛ فإن تأخر المسلمين الحضاري المادي في عصرنا يرتفع بهذه العلوم إلى فروض العين، لحاجة المسلمين إلى متخصصين فيها وفي علوم اقتضتها متغيرات الحياة الحديثة وحاجة العمران ودواعي القوة التي أمر الله بالاستعداد بها مثل علوم البترول والمعادن والتصنيع الزراعي وعلوم الذرة والطيران والصناعات الحربية والبحرية وعلوم الفضاء وغيرها.

إن واجب الدولة أن توجه الناس إلى تعلم مهن مختلفة في برامجها التعليمية، كما أن على الآباء أن يوجهوا أبناءهم لذلك، وكثير من الدول المتقدمة صناعياً تجعل التعليم المهني جزءاً من التعليم العام، حتى إذا أظهر طالب كفايته في حرفة معينة وُجِّه إليها مبكراً ليبدع فيها ويطور ويجدد، فالدولة المسلمة أحق بذلك. كما أن على الأفراد أن يتعلموا من الحرف والصناعات ما يجعلهم صامدين أمام ضغط الظروف وتقلبات الحياة وقيود الوظائف الحكومية، حتى لا يضطر الناس في سبيل رزقهم أن يسكتوا على الباطل أو يتخلوا عن واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل زمان ومكان.

إن التربية المهنية في البلاد الإسلامية بعامة والعربية بخاصة تقوم على أسس خاطئة تجعل التفوق في ميدان الصناعة قاصراً على أصحاب الدرجات الدنيا في التعليم، فالطلاب الذين يحصلون على أقل النتائج أو الراسبون هم الذين يوجَّهون توجيهاً مهنياً في حين أن متوسطي النجاح يوجهون للدراسات الإنسانية مما يجعل المفاهيم المغلوطة في احتقار العمل المهني سائدة ومستمرة في المجتمعات، وصحيح أن يوجه أصحاب المجاميع العالية إلى التخصصات العالية أيضاً؛ ولكن التوجيه المهني بعامة

لا يخضع للدرجات وإنما يخضع للدراسات الخاصة والإمكانات الشخصية. وإن واجب المدرسة أن توجه الطلاب لذلك كما ذكر ابن سينا في أن كل صناعة لا تناسب الصبي، وأن على مدبر الصبي أن يختار له الصناعة بعد أن يزن طبعه ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه، ثم يختار له الصناعة حسب ذلك. وهذا الرأي لابن سينا هو الذي أخذت به جمعية الموجهين الفرنسية في تعريف التوجيه المهني بأن الهدف منه (مساعدة العائلة على توجيه الطفل نحو نوع من الفاعلية المهنية تناسب ـ أكثر ما يمكن ـ مجموعة كفاءاته ومستوى هذه الكفاءات وأهم ميوله، مع اعتبار حالة العائلة وحالة سوء العمل)[١] كما يعرف فونتين التوجيه المهني بقوله: (هدف التوجيه المهني نصح الطفل وقت ترك المدرسة الابتدائية بعمل يوافق ميوله الخاصة واهتماماته السائدة ومعرفة قدراته الجسدية والعقلية وذلك كله من خلال اعتبار حالة العائلة من جهة وسوق العمل من جهة أخرى)[٢].

إن التربية المهنية في البلاد الإسلامية تحتاج إلى تغيير في نظرة المجتمعات للعمل المهني، وإزالة الرواسب الاستعمارية في تمجيد الوظيفة الحكومية والتركيز على التعليم الأكاديمي، وإعادة النظر في المدارس والمعاهد المهنية برفع مستوى أساتذتها وطلابها ومناهجها، وجعل التعليم المهني جزءاً من منهج التعليم العام حتى يمكن لكل طالب دراسة المبادىء الأولية للمهن.

إن تمييز هذا العصر بالمنافسة الصناعية والتفوق المهني والتخصص الدقيق والتطور الصناعي والزراعي والتجاري يقتضي الأخذ بالتخطيط الاقتصادي والتصنيع العلمي، وجعل التعليم المهني قادراً على تخريج المهنيين والفنيين والمهندسين والعمال المهرة على أساس من تعاليم الإسلام ومثله وقيمه العملية والمهنية والتربوية.

(١ ـ ٢) نقلاً عن د. فاخر عاقل ـ معالم التربية ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

من أخلاقيات العمل في الإسلام:

كثيراً ما يتحدث الناس عن قوانين العمل وأخلاقيات المهن. وقد سبق الإسلام إلى الحديث عن تلك الأخلاقيات باعتبارها من الأمور التي جربها البشر على الأرض ويمكن لهم في كل زمان ومكان أن يبنوا علاقات العمل عليها. ويمكن أن نحدد بعض هذه القوانين فيما يلي:

١ ـ الأمانة والقوة:

وقد بيّن الإسلام ذلك في قصة سيدنا موسى مع ابنتي شعيب حيث قالت إحداهما: ﴿ يا أبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إنّ خيرَ مَنِ اسْتأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾ [القصص: ٢٦] حيث قال لها أبوها وما علمك بذلك؟ قالت له إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي: (كوني من ورائي فإذا اختلف عليّ الطريق فاخذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه)[1].

والصفتان مرتبطتان بالإيمان بالله ومراقبته والخشية منه وهما سبب النجاح وزيادة الإنتاج، حيث يتحلى الأجير برعاية حق العمل فيكون يقظ الضمير حريصاً على مصالح الناس وممتلكات الأمة وقيمة الوقت فلا يؤجل عمل يومه لغده، وهو يبتغي من الله الأجر على أمانته.

٢ ـ الحفظ والخبرة:

وقد وضح القرآن ذلك في قصة سيدنا يوسف مع ملك مصر حيث أراد أن يستخلصه لنفسه بعد ثبوت براءته فقال له: ﴿ اجْعَلْنِي على خزائِنِ الأرض إني حفيظٌ عليمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥] فهو يرى أنه خير من يصلح لصيانة أموال مصر وحفظها في سنوات الجدب المقبلة، وأنه بخبرته قادر على تغيير الأمور ومعرفة الدخائل وتوقعات المستقبل، وما يحتاج الأمر من سياسة وتدبير وضبط لأمور المحاصيل والزراعة، وليس للمسلم أن يطلب ولاية حيث ذكر الرسول ﷺ قوله: «إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً

(١) تفسير ابن كثير ص ٣٩٦ المجلد الثالث.

سأله»، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فلا تُزَكُّوا أنفسَكم ﴾ [النجم: ٣٢] ومع أن هذا قرر في عهد الرسول ﷺ وربما لم يكن في عهد سيدنا يوسف إلا أننا نستأنس برأي الشهيد سيد قطب حيث يقول تعليقاً على هذه الاعتراضات: (إنه لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس، وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية. كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكماً مطاعاً لا خادماً في وضع جاهلي، وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر في أيام حكمه. وقد توارى العزيز وتوارى الملك تماماً)[1] وعلى هذا فيمكن طلب الولاية في الأوضاع الحاضرة إذا تحققت الشروط السابقة في قصة يوسف ولعل تحققها في المجتمعات الإسلامية بصورتها الحالية من المستحيلات حيث يبعد الدعاة أصحاب الخبرة والأمانة والعلم لخطورتهم على الأوضاع وعدم خضوعهم للأوضاع القائمة.

أما أصحاب الكفايات والخبرة فيمكن تقديمهم في مجال العمل والخدمة العامة حتى يستفيد المجتمع بخبراتهم وعلمهم وكفايتهم.

٣ ـ الإخلاص:

وهو أساس القبول للعمل كله في الإسلام سواء أكان مرتبطاً بالعبادات أو أعمال الدنيا، وقد وضح الرسول ﷺ ذلك في مجال العمل فقال: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[2] ولا يتقن عمله إلا مخلص تقي مؤمن بالله يخشى عقابه ويؤمل في أجره. فالمؤمن المخلص يعمل لكسب رزقه وإرضاء ربه، فيتقن عمله ويرعى حق الله والناس والدولة فيه، لأنه موقن أن الله يرى عمله وأنه سيرد إليه فيجزيه على

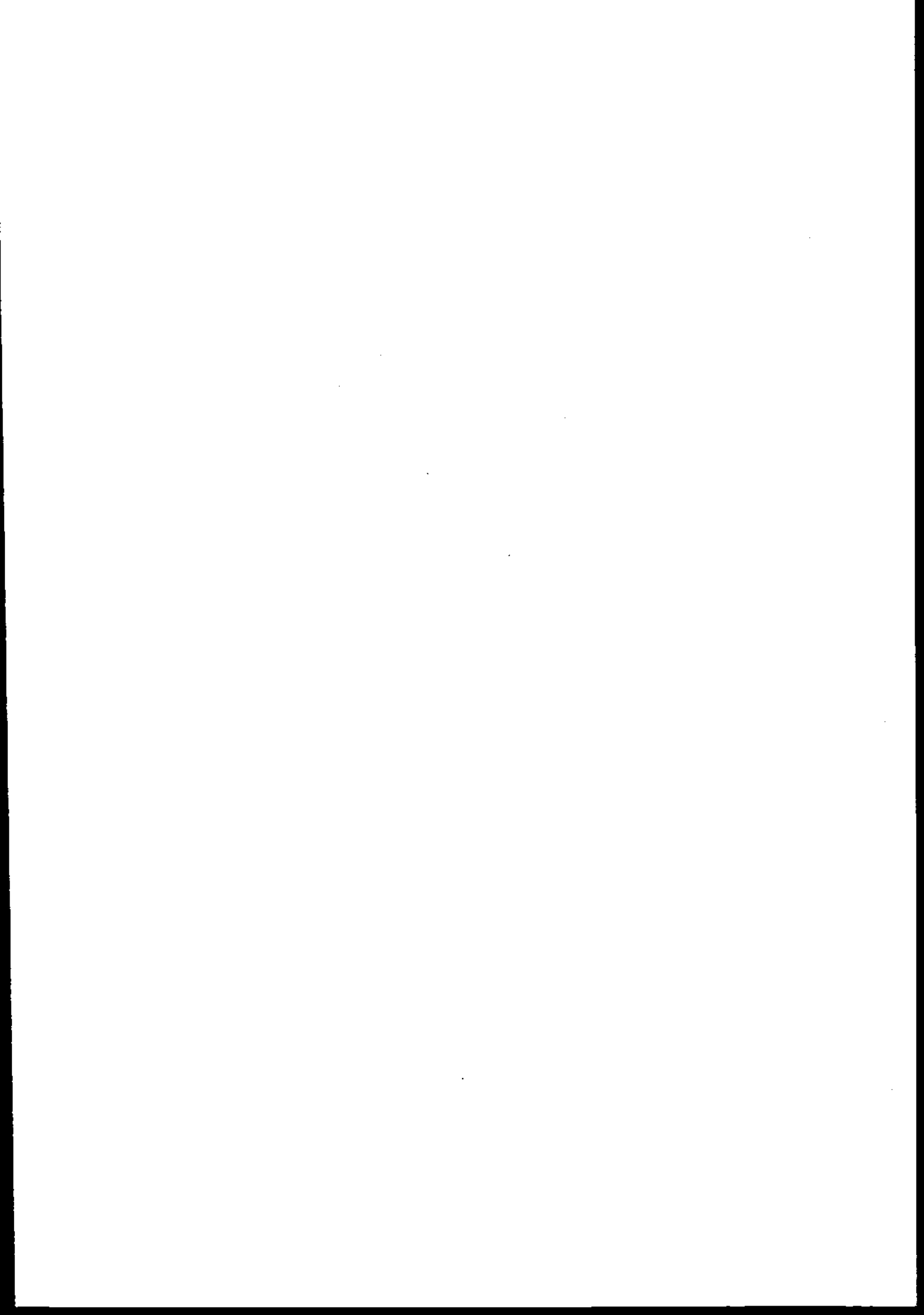
(١) في ظلال القرآن ص ٢٠١٣ المجلد الرابع.

(٢) البيهقي ـ شعب الإيمان.

الإحسان إحساناً وعلى السوء سوءاً، فواجب المسلم أن يخلص نيته لله في كل عمل يقوم به ليكون مأجوراً عند الله.

٤ ـ الإحسان:

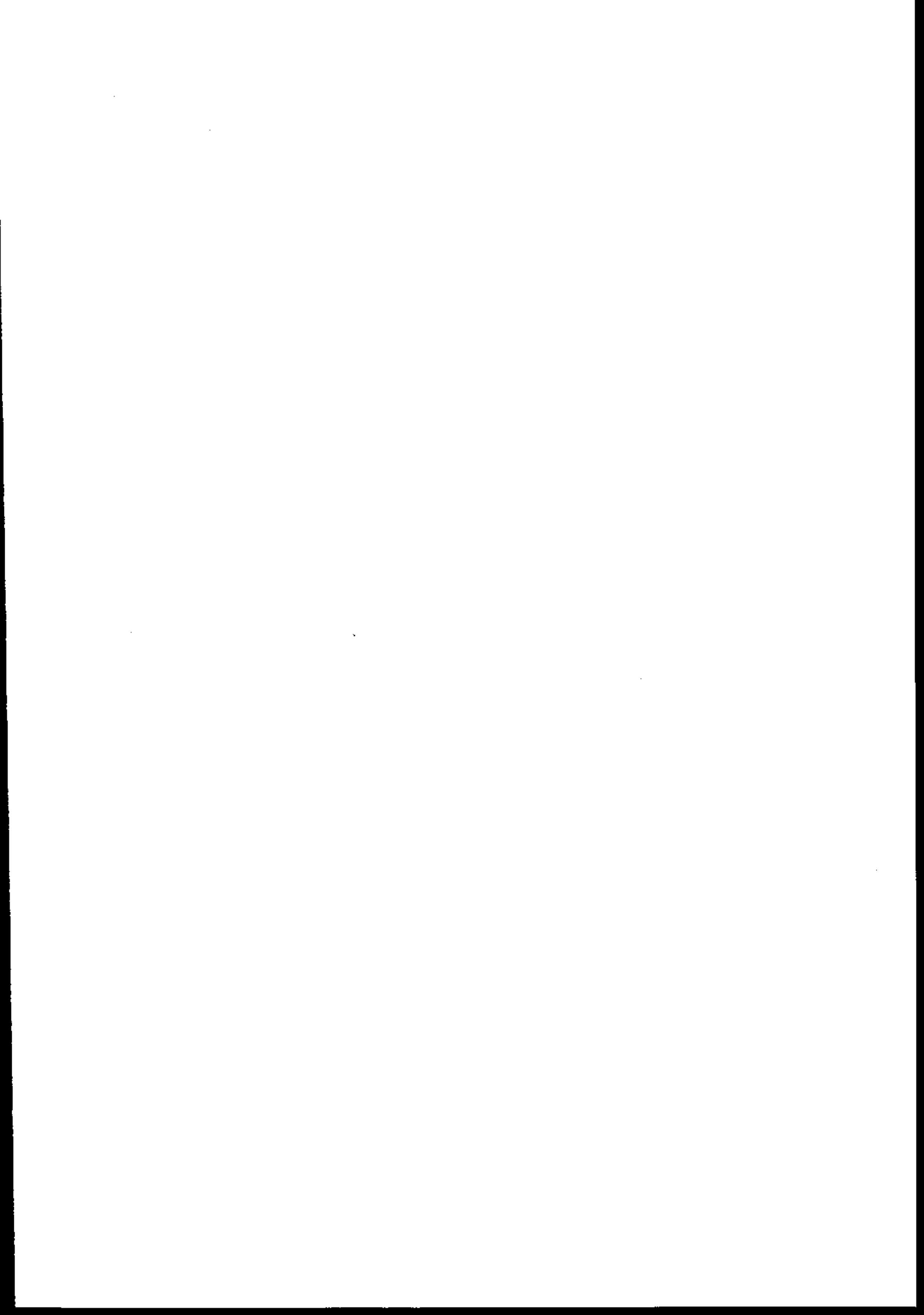
يقول الرسول ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» والعمل من هذه المجالات التي يتقي المسلم فيها ربه ويتقن عمله ويحسن أداءه حتى يكون عمله مقبولاً عند الله وعند الناس، فإذا كان الإحسان في العبادة الإحساس بأن الله يرى العبد وهو يعبده كأنه يراه؛ فإن تحقيق هذا في مجال العمل هو قمة الإجادة والإتقان أو هذا هو الذي يصنعه المسلم وهو يؤدي عمله أو يعبد ربه أو يعامل إخوانه أو يربي أبناءه إلخ.



الفصل السّادس

التربية الإسلامية ومَرَاحل النمو

١ ـ مرحلة ما قبل الولادة
٢ ـ مرحلة الطفولة الأولى.
٣ ـ مرحلة الطفولة الثانية.
٤ ـ مرحلة البلوغ (المراهقة).
التربية الجنسية.
٥ ـ مرحلة الرُّشد.



التربية الإسلامية ومراحل النمو

قسم علماء التربية الحياة الزمنية إلى مستويات تختلف باختلاف مراحل نمو الإنسان، باعتبار التربية عملية ملازمة للإنسان في نموه الطبيعي ونمو استعداداته وميوله وقدراته، ومع الاختلاف البسيط في هذه التقسيمات، إلا أننا يمكن أن نأخذ بالتقسيم التالي:

١ ـ مرحلة ما قبل الولادة.

٢ ـ مرحلة الطفولة الأولى.

٣ ـ مرحلة الطفولة الثانية.

٤ ـ مرحلة البلوغ (المراهقة).

٥ ـ مرحلة الرشد.

أولاً: مرحلة ما قبل الولادة

حضّ الإسلام على الزواج باعتباره حاجة فطرية للإنسان فطره الله عليها وهيأه لها ووجهه إليها ليقوم بواجبه في الحياة من المحافظة على النوع الإنساني وتكاثر هذا النوع وزيادته، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الناسُ اتّقوا ربَّكم الذي خلقكم من نفس واحدةٍ وخلقَ منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ [النساء: ١].

وقد وضع الإسلام ضوابط لاختيار الزوج حتى يختار كل منهما الشريك الأصلح لأداء هذه المهمة في الحياة، فالرجل مطالب باختيار المرأة ذات الدين التي تفهم واجباتها الشرعية في البيت والحياة، والتي يقوم سلوكها على أساس السلوك الإسلامي والآداب الإسلامية، وإذا لم يكن الدين بمعناه الواسع هو أساس الاختيار لم يكن البناء قائماً على أسس سليمة، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه، بارك الله له فيها وبارك لها فيه»[1].. كما يقول: «ولا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة خرماء

(١) رواه الطبراني.

سوداء ذات دين أفضل»[1]. . فذات الدين هي التي تقوم بحق الله وحق الزوج وحق الأمة في تربية الجيل المؤمن بالله السائر على هديه.

كما أن على الزوج أن تختار زوجها ممن تتوفر فيه الشروط المناسبة لها وأهمها الدين والخلق حتى يمكنه أن يقوم بواجبه، واجب الرعاية والقوامة والتربية «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[2] واشتراط الدين والأخلاق أمر مهم حتى تعيش الأسر في أجواء شريفة مؤمنة، وفي كنف رجال صالحين يتقون الله في نسائهم وأولادهم، وحتى تتحقق السعادة في ظل البيت المؤمن وتنشأ الأجيال مؤمنة بالله متحملة للمسؤوليات ناقلة للصفات الطيبة من الأبوين الطيبين، ولذلك حذر الرسول ﷺ من التهاون في الاختيار وترك الصفات الإسلامية المطلوبة من أصالة وصلاح وشرف فقال: «إياكم وخضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء»[3]. .

وقد أثبت العلماء أن الصفات الخَلقية والخُلقية تنتقل عن طريق الوراثة كما تنتقل الصفات المادية، وإلى هذا أشار القرآن الكريم في استنكار المستنكرين لمريم حيث قالوا: ﴿يا أُختَ هارونَ ما كانَ أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ [مريم: ٢٨]. وقد رأى بعض علماء النفس والتربية أن الإصابة بمرض الزهري أو وجود أي نوع من العيوب الوراثية العقلية بين الزوجين يؤدي إلى إنجاب أطفال يحملون المرض نفسه، كما أن الأطفال الذين يولدون لأبوين يدمنان السكر والمخدرات بأنواعها خاصة في ساعات التلقيح كثيراً ما يصابون بأمراض عقلية وعصبية قلَّ أن يشفوا منها، لأن الأبوين لا يورثان الصفات الجسمية فقط بل الصفات النفسية.

---

(١) سنن ابن ماجه ج ١ كتاب النكاح.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) رواه الدارقطني.

ولذلك يرى بعض العلماء أن الرجال المتفائلين ينجبون أولاداً متحررين من العادات القبيحة والخوف والأوهام، أما الحمقى والموهومون والسكارى فينجبون أولاداً عصبيي المزاج مصابين بمركب نقص، يعانون من العقد والإحساس بالضعف. وعن ذلك يقول كريس مورسون: (إن الجينات جزء من خلايا الوراثة. غير أن خلايا الوراثة لا تشترك في التكون العام للجسم، ولكنها منعزلة ولا تسهم في أي وجه من وجوه النشاط الأقل أهمية التي تقوم بها الكائنات الحية، إن هذه الخلايا تحفظ الشبه الكامل للنوع، ويبدو أنها لا تتأثر بمسلك الوالدين إلا أن سوء الخلق، أو المرض، أو الحوادث، قد تمدها بمواد جد فقيرة لتشتغل بها. إن الوالدين القويين، قد ينسلان أطفالاً أقوياء، ولكن ذلك لأنه كان هناك أسلاف أقوياء، وإن الوالدين قد يمنحان طفلهما مبدأ طبيعياً ليعيش فيه، أو قد يهبانه مباءة لا تصلح مكاناً لنفس خالدة).

إن الأبوة والأمومة هما أعظم تبعة تقع عل عاتق الإنسان والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وأنكِحُوا الأيامَى منكم والصالِحِينَ مِن عبادِكم وإمائِكم﴾ [النور: ٣٢]. والرسول ﷺ يطلب اختيار وانتقاء الزوج من النساء فيقول: «تخيّروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء»[1] وقد سئل سيدنا عمر رضي الله عنه عن حق الولد على أبيه فأجاب (أن ينتقي أمه، ويحسن اسمه ويعلمه القرآن).

إنّ نشأة الأجيال على الطهارة والعفة والاستقامة تعتمد على الصفات التي يتوارثها الأبناء خلقية أو جسمية أو عقلية، وقد حثت الأحاديث النبوية على تحسين النسل بتفضيل المرأة البعيدة أو التي لا صلة قربى تربطها بالرجل حرصاً على انتفاء العيوب الوراثية التي يحملها الزوجان إلى الأبناء، وقد أثبتت التجارب العلمية في اختبارات الذكاء صحة هذه النظرية التي تنادي بالتغرب في الزواج حتى لا يأتي نسل ذوي

(١) رواه ابن ماجه والدارقطني.

القرابة ضعفاء الجسم والخلق أو بغير ذلك من العيوب الوراثية.

ولأن تربية الأبناء تبدأ قبل الولادة كما قلنا، فإن الأمر لا ينتهي باختيار كل من الزوجين الصحيحين لبعضهما بل لا بد من تعهد الجنين فترة الحمل بتعهد الأم نفسها وإبعادها عما يسبب لها الضعف والقلق النفسي وإحسان معاشرتها ومعاملاتها، لأن الحالة الصحية والنفسية للحامل تؤثر كثيراً على الجنين. ولذلك يرى الدكتور (ألكسيس كاريل): (إن للحمل قواعد يجب أن تتعلمها النساء في مدارس خاصة لذلك من حيث السلوك الذي يجب اتباعه أثناء الحمل، والنواحي الغذائية التي تهتم بها، والمخاطر التي يمكن أن يتعرض لها المولود أثناء الحمل والرضاعة من جراء إسراف النساء في التدخين وشرب القهوة والمسكرات والمخدرات)[1].

فالتربية قبل الولادة هي التي يطلبها الإسلام في زوجة صالحة وامرأة منجبة خالية من الأمراض والعيوب وزوج يتميز بالاستقامة وحسن الرعاية والإنفاق وحسن المعاملة وحسن التربية، لأنه مسؤول عنها أمام الله سبحانه وتعالى بنص حديث الرسول ﷺ «إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أو ضيّع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»[2].

وقد ثبت مما تقدم أن العامل الوراثي له أثر كبير في مستقبل الطفل وتربيته، فكانت أهمية مراعاة هذه الجوانب في اختيار كل من الزوجين للآخر، كما أن العوامل البيئية لا نستطيع إغفالها أو التقليل من دورها، وعلى رأس هذه العوامل الناحية الغذائية للأم من حيث كمه وكيفه، لأن الأم التي تعاني من نقص غذائي قد تلد طفلاً يعاني نقصاً جسمانياً أو عقلياً أو اضطراباً نفسياً حاداً، كما أن المرض الذي يصيب الأم عامل هام في

(١) تأملات في سلوك الإنسان ص ١١٠.
(٢) رواه البخاري ومسلم في الإمارة والترمذي في الجهاد.

التأثير على نمو الجنين هذا بالإضافة لعامل الإفراط في تناول المكيفات كالتدخين وشرب الخمر والمخدرات، وكلها تعوق نمو الجنين في بطن أمه، ثم تؤثر في مستقبل حياته الصحية والنفسية والعقلية، ولذلك كله لا بد من الاهتمام بالمرأة الحامل نفسياً واجتماعياً وغذائياً حتى يتهيأ للطفل الذي يراد تربيته الظروف المساعدة لإيجاد بيئة صالحة للنمو.

ثانياً: الطفولة الأولى

تبدأ هذه المرحلة في الغالب من فترة الولادة إلى ست سنوات أو سبع كما يرى كثير من علماء التربية والنفس. وإن كانت هناك تقسيمات أخرى.. وقد اهتم الإسلام بالطفل من حيث تربيته على أسس معينة منذ ولادته وتبدأ بالتهنئة والبشارة بالمولود ذكراً كان أو أنثى، وفي القرآن ما يشير إلى ذلك كما في قصة زكريا ﴿فنادَتْه الملائكةُ وهوَ قائمٌ يُصَلِّي في المحرابِ أنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بكلمةٍ من اللهِ وسَيِّداً وحَصُوراً ونَبِيّاً مِنَ الصَّالِحينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]. وقوله ﴿يا زكريّا إنا نُبَشِّرُكَ بغلامٍ اسمه يحيَى، لم نجعلْ له من قبلُ سَمِيّاً﴾ [مريم: ٧].

ويمكن أن تكون التهنئة مادية بتقديم الهدايا وغيرها، كما يستحب له الأذان في الأذن اليمنى والإقامة في اليسرى حتى يكون الأذان والإقامة من أول ما يسمع الطفل، كما أن في ذلك رمزاً إلى المهمة التي جاء بها إلى الوجود وهي عبادة الله وتلبية النداء إلى العبادة، وقد فعل ذلك الرسول ﷺ للحسن بن علي.

كما يستحب تحنيكه وحلق رأسه يوم سابعه والتصدق بوزنه فضة أو ذهباً على الفقراء وكلها قد فعلها سيد الخلق ﷺ، بل إن الإسلام يحدد نوع الاسم الذي يستحسن تسمية المولود به لما للاسم من دلالة على المسمى فإذا كان الاسم جميلاً متفائلاً ذا دلالة طيبة سرَّ به صاحبه، وإن كان قبيحاً متشائماً كان مثار سخرية واستهزاء بصاحبه، ولهذه الدلالة

النفسية للأسماء على أصحابها غيّر الرسول ﷺ أسماء كثير من أصحابه أمثال حَزْن وحَرْب وغيرهما إلى سَهْل وسِلم وغيرهما، والرسول ﷺ يقول: «إنكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم»(١).

كما دعا الإسلام أن لا يسمى بأسماء الله كالملك والوهاب والصمد وغير ذلك، ولا الأسماء الدالة على تعظيم غير الله أو المعبودة غيره كعبد يغوث وعبد العزى وعبد الرسول وعبد النبي وغيرها. ويدخل في هذا ما نراه في بلاد العرب ممن يسمون أبناءهم بأسماء لينين وخروتشوف وقاقارين وغاندي وأتاتورك، أو من يسمون بأسماء النصارى واليهود مثل جوزيف وألين ومارية وغيرها، أو التسميات المائعة التي يسمى بها كثير من الأولاد والبنات.

ويحض الإسلام على اختيار أسماء الأنبياء وما يدل على العبادة للّه فقد روي عن الرسول ﷺ قوله: «تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمٰن وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرّة»(٢).

والرضاعة تمثل جانباً مهماً في حياة الطفل المستقبلية، ولذلك جعلها الإسلام من وظيفة المرأة وحدّد لها مدة ﴿والوالداتُ يُرْضِعْنَ أولادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَن أرادَ أنْ يُتِمّ الرَّضاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن للرضاعة أثراً كبيراً في تربية المولود وأخلاقياته، فالمرأة السيئة الخلق الكثيرة الانفعال تؤثر في المولود، وقد اشترط كثير من علماء المسلمين اختيار المرضع للطفل لأن اللبن يعدي، كما رأوا أن تكون المرضع صالحة تأكل من الحلال، لأن الرضاع وظيفة خاصة بالمرأة، فلا يجب استبدال الرضاع الطبيعي بالصناعي لأن اللبن

(١) رواه أبو داود.
(٢) رواه أبو داود والنسائي.

الصناعي لا يعطي الأطفال القيمة الغذائية الكاملة التي يحتاجون إليها ولأن له تأثيراً على العواطف والطباع.

أما بالنسبة للحضانة وهي التي تستمر إلى السابعة فإن الأم هي التي تقوم بها لأنها مهيأة بعواطفها ورقتها وحنانها ورحمتها للقيام بذلك الدور، فالطفل السويّ هو الذي ينشأ في حضن والديه متمتعاً بدفء عواطفهما ورحمتهما، بعيداً عن الاضطرابات النفسية والعصبية والنقص في النمو وغير ذلك من الأمراض التي يمكن أن يصاب بها الطفل الفاقد لوالديه أو لأمه، فالظروف التي ينشأ فيها الأطفال هي التي تؤثر في مستقبل حياتهم ونموهم فقد أثبتت الدراسات النفسية أن كثيراً من الانحرافات التي تظهر في الكبار راجعة إلى موقف وظروف عاشها الشخص في طفولته، ولذلك يرى علماء النفس أن إحساس الطفل بالأمن والاستقرار والمحبة هو الذي يسهل له عملية التكيف والتوافق المطلوبين من كل عضو من أعضاء المجتمع، فإذا عاش الطفل في وسط عائلي يحيطه بالرعاية والحب ويشعره بمكانته في المنزل ويقدم له الكثير في سبيل إسعاده، أحس بالأمن والطمأنينة ونما نمواً طبيعياً خاصة إذا عاش في عائلة مستقرة متجانسة غنية بالقيم الاجتماعية الإسلامية، ثابتة في أساليب تعاملها مع الطفل لا يحس بالتناقض في معاملة والديه له.

ولأن الأسرة تمثل البيئة الاجتماعية الأولى التي ينشأ فيها الطفل اهتم الإسلام بنظام الأسرة وتنظيم العلاقات بين الرجل والمرأة وقيام هذه العلاقة على أساس من الرحمة والمودة والعطف والاحترام المتبادل، وأداء كل واحد لما عليه من حقوق نحو الآخر، وغض الطرف من الجانبين عن بعض نواحي النقص خاصة من الرجل، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[1].

إن حضانة الأم لطفلها من أهم العوامل المساعدة على تحقيق النمو

(١) رواه ابن ماجه والدارمي في باب النكاح.

الكامل له كما أنه العامل المهم في إحداث التكيف بين الطفل والمجتمع الذي يعيش فيه، أما إذا انشغلت المرأة عن حضانة أطفالها بالانشغال بالعمل خارج المنزل أو بالانفصال عن زوجها أو بالتعالي على الحضانة وترك الأمر للخادمة في البيت أو الحضانة الصناعية في المدارس والمؤسسات، إذا حدث ذلك الحرمان من الأمومة، أدى إلى التأخر في نواحي النمو المختلفة وتعرض الأطفال للاضطرابات النفسية في حياتهم المقبلة، وقد أجريت بحوث على عدد من الأطفال بلغوا ١٢٣ طفلاً أعمارهم بين عام وأربعة أعوام يعيشون في مؤسسات مختلفة، وقارنوا هذا العدد بأطفال مثلهم يعيشون مع أسرهم ولكنهم في الصباح يذهبون إلى دور الحضانة نسبة لانشغال الأمهات بالعمل فكانت النتيجة أن نمو الأطفال في المؤسسات يختلف عن النمو مع أسرهم لأن حرمان الطفل من أمه يعطل نموه جسمياً وذهنياً واجتماعياً، وأن القليل من عناية الأم قد تثمر[١]. أما إذا عاش الطفل كل وقته تحت حضانة أمه فإن نموه سيكون متكاملاً والدليل على ذلك رجوع كثير من الدول التي تعتمد على الحضانة الصناعية إلى تشجيع الحياة العائلية وتكريم الأمهات اللائي يتفرغن لتربية أطفالهن.

وفي هذه المرحلة يرى علماء التربية من المسلمين أمثال ابن سينا والغزالي أن الطفل يجب إبعاده عن الرذائل وقرناء السوء، وأن يبعد عن الكلام الفاحش واللغو واللعن والشتم ومن تعود على ذلك من الأطفال لأن أصل تأديب الصبي حفظه من قرناء السوء[٢].

(١) د/ مصطفى فهمي ـ الصحة النفسية ص ٩٢ ـ ٩٣.
(٢) الغزالي ـ احياء علوم الدين ج ٣ ص ٧٣.

ثالثاً: الطفولة الثانية

تبدأ هذه المرحلة من السابعة إلى الثانية عشرة وهي المرحلة التي يلتحق فيها الطفل بالمدرسة بعد أن تعلم القراءة والكتابة، وهي المرحلة التي تمكنه أن يتذكر ما يحدث أمام بصره وسمعه نتيجة لقوة ذاكرته وقدرته على الحفظ وتعلم اللغات فيها، ولذلك جعل الرسول ﷺ هذه المرحلة هي مرحلة أمر الطفل بالصلاة حيث يقول «مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرِّقوا بينهم في المضاجع»[1]، وفي هذه المرحلة يُعلَّم الطفل امتثال أوامر الله سبحانه واجتناب نواهيه ويُعرَّف بالحلال والحرام، ويوجَّه إلى حب رسول الله ﷺ وآل بيته عملاً بقوله ﷺ «أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب آل بيته وتلاوة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله»[2] كما أنه يلقَّن آداب الأكل والشرب كما فعل الرسول ﷺ مع عمر بن أبي سلمة الذي يقول: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام سَمِّ الله تعالى، وكل بيمينك، وكل مما يليك»[3].

وفي هذه المرحلة يتعرف الطفل على زملائه في المدرسة ويكوِّن مع بعضهم صداقات، وهو ما يسمى في علم النفس الحديث بشلة الرفاق، ولأن الحاجة إلى الأصدقاء والرفقاء من الأمور الطبيعية والمهمة، فقد

(١) رواه الحاكم وأبو داود عن عمرو بن العاص.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) متفق عليه.

اهتمت التربية الإسلامية بذلك، ودعت إلى أن يختار الأب لابنه الأصدقاء المؤمنين والجلساء الصالحين ليس بطريقة مباشرة وإنما باختيار أصدقائه هو ممن لهم مثل أبنائه، وتوطيد صلته بهم حتى تنشأ العلاقة بين الأطفال بحكم سنهم، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[1] ويقول: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل حامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، أو تشتري منه، أو تجد منه ريحاً طيباً، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك أو تجد منه ريحاً منتنة»[2] ويقول الرسول ﷺ مبيناً أن الفرد يقارن بخليله سيئاً كان أم حسناً «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[3] والقرآن يوضح أن أصدقاء الشر أعداء لبعضهم يوم القيامة وأن أصدقاء الخير والتقوى سعداء حتى في الآخرة ﴿الأخِلّاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. ويقول تعالى موضحاً أثر رفقة السوء على الإنسان وندمه على ذلك ﴿ويومَ يعضُّ الظالمُ على يَدَيْهِ يقولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ معَ الرسولِ سَبيلاً، يا ويلَتى لَيْتَني لَمْ أتَّخِذْ فُلاناً خليلاً لقد أضَلَّنِي عنِ الذكرِ بعدَ إذ جاءَنِي وكانَ الشيطانُ للإنسانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

وقد نبّه علماء التربية في الإسلام أمثال ابن سينا والغزالي وغيرهما إلى أهمية هذه الناحية في التربية وأثر اختيار الأصدقاء على مستقبل الأطفال وتوجيههم إلى الخير والشر، فابن سينا يرى أن الطفل يتأثر برفيقه ويكتسب منه كثيراً من العادات لما ركّب فيه من نزعة التقليد والمحاكاة فيقول: (وينبغي أن يكون مع الصبي في مكتبه صبية حسنة آدابهم مرضية عاداتهم فإن الصبي عن الصبي ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس)[4] أما الغزالي فيقول: (وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذِينَ آمَنوا قُوا أنفسَكم

(١) سنن أبو داود والترمذي.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه الترمذي.
(٤) نقلاً عن الأبراشي، التربية الإسلامية.

وأهليكم ناراً﴾ [التحريم: ٦]. ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فأن يصونه عن نار الآخرة أولى. وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوده التنعم ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر، فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال)[1] ويقول: (ويمنع الطفل من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والشتم ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسري لا محالة من قرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء)[2].

ومن أهم الحاجات التربوية في هذه المرحلة: غرس الإيمان بالله في نفس الطفل، وتبسيط مبادىء العقيدة، وتنشئته على الخوف من الله وإحساسه بأن الله مطّلع عليه مراقب لأعماله، وأن عليه أن يستعين بالله ويلجأ إليه ويدعوه ويطلب منه الهداية للخير، وعلى الوالد ألا يدع فرصة إلا واستفاد منها في ترسيخ المثل العليا واليقين في الله. ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة فقد روى ابن عباس قوله: «كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوكَ بشيء لم ينفعوكَ إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروكَ بشيء لم يضروكَ إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»[3].

ولا بد أيضاً من الاهتمام بالجانب العملي في العقيدة بتعليم الصبي أمور دينه، وحثه على المواظبة واعتياد المساجد، وتقوية صلته بأبناء حيه ممن يشهدون الصلاة في المساجد.

---

(١) الإحياء ج ٣. ٧٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه الترمذي عن عبد الله بن عباس وهناك رواية الترمذي.

رابعاً: مرحلة البلوغ (المراهقة)

مرحلة البلوغ من المراحل الطبيعية في النمو إذا سارت في مجراها الطبيعي، وهي المرحلة التي تسمى في علم النفس بمرحلة المراهقة، وهي التي تبدأ في حوالي الثانية عشرة من العمر، وتقابل في مراحل التعليم المرحلة المتوسطة والثانوية، (والمراهقة لفظ يطلق على المرحلة التي يقترب فيها الطفل، وهو الفرد غير الناضج انفعالياً وجسمانياً وعقلياً في عشر السنوات التالية من الحياة غاية النضج الانفعـالي والجسمي والعقلي. والمراهق هو فرد، ولد أو بنت في مرحلة بين الطفولة والرجولة، أي بين المرحلة التي يكون النضج فيها غير كامل وبين مرحلة النضج الكامل)[١].

وهذه المرحلة تبدأ في الغالب من الثالثة عشرة إلى حوالي الحادية والعشرين، وتختلف من فرد إلى آخر ومن مكان إلى مكان، وهي مرحلة نمو طويلة قد تمتد إلى عشر سنوات، كما أنها مـرحلة من الناحيـة الاجتماعية مرحلة تكليف وتحمل المسؤولية والواجبـات. فلذلك ربط الإسلام بين هذه المرحلة وبين القيام بالتكاليف الشرعية، ولم يخرج علماء الشريعة الإسلامية في تحديد سن المراهقة عن الفترة ما بين العاشرة والتاسعة عشرة، وهي التي حددوها بالاحتلام عملاً بحديث رفع القلم عن ثلاث منهم الصبي حتى يحتلم.

(١) د/ أحمد زكي صالح ـ علم النفس التربوي ص ٢١٣.

وترتبط هذه المرحلة بالتفكير في الزواج والحياة الأسرية، لذلك كان على المجتمع أن يهيىء أذهان الشباب للاتجاهات الصحيحة للزواج وللأفكار السليمة عنه، لأن الزواج يكمل النمو النفسي للإنسان، ولذلك حض الرسول ﷺ الشباب على الزواج: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1].

ومن أهم الظواهر في هذه الفترة ظاهرة النمو العقلي الذي يقتضي التركيز على التربية الخلقية، والتي يأتي في قمتها توجيه البالغ إلى الإيمان بالله على أساس من القناعة والحجة حتى لا يتزعزع في مستقبله بما يتعرض له من وسائل التشكيك والتغيير، وقد علّمنا القرآن كيفية التدرج في ذلك من الحسي إلى المعنوي في آيات كثيرة تدعو إلى التفكير في السماء والنبات والليل والنهار والبحار والنجوم والجبال والأنهار الخ. . والتفكير في خلق الإنسان ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ من ماءٍ دافِقٍ يَخرجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والترائبِ إنه على رَجْعِهِ لَقادِرٌ يومَ تُبْلَى السرائرُ فمَا له مِن قوةٍ ولاَ ناصرٍ﴾ [الطارق: ٤ ـ ١٠]. والتفكير في السماء والأرض وما فيها، وتفكير الإنسان في طعامه كيف نبت وتشكّل وتنوّع لوناً ورائحة ومذاقاً وهو يُسقى بشيء واحد وهو الماء ويخرج من مكان واحد هو الأرض ويتغذى بعناصر ظاهرة هي الشمس والهواء وغيرهما.

والتفكير بهذا الأسلوب القرآني يفتح البصائر وينير العقول، ويدفع إلى الخشوع والخضوع لعظمة الله ومراقبته في السر والعلانية والإخلاص له والتوجه إليه بكل عمل، لأن الله لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصاً له وابتُغي به وجهه. . .

ولا بد من التركيز على العوامل المؤدية إلى الشعور الدائم بمراقبة الله عز وجل مثل تجنب الشهوات الباطلة والحسد والبغض إلا في الله

(١) رواه البخاري في الصوم والنكاح ـ ومسلم وأبو داود وابن ماجه والدارمي في النكاح.

والحقد والكذب والنميمة وما إلى ذلك من العوامل التي تبغض إليه الرذيلة وتحببه في الفضيلة.

ولأن المراهق يعيش مرحلة الإحساس بالذات فإنه يشعر بالخجل ويهتم بالبطولات، الأمر الذي يتطلب التركيز على دراسة جوانب البطولة في حياة الرسول ﷺ وسيرته ومغازيه وسيرة الصحابة والسلف رضوان الله عليهم، وفي ذلك يقول سعد بن أبي وقاص: (كنا نعلم أولادنا مغازي رسول الله ﷺ كما نعلمهم السورة من القرآن الكريم).

أما الخجل فظاهرة تحتاج إلى تغيير ليحلّ محلّه الحياء، لأن الخجل انكماش وسلبية وانطواء، والحياء التزام بالفضيلة وتجنب للرذيلة، ومظهر الإيمان، وسكينة للنفس وضبط للتصرفات وصحوة للضمير، وخجل من الله والنفس والناس.

وتقتضي التربية هنا تعليم النشء الحياء من النظر إلى المحرمات والاستماع إليها والقرب من المنكرات ونزاهة اللسان عن الفحش والبذاءة والخوض في الباطل، وفي ذلك يقول الغزالي: (فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهوراً أوائل الحياء، فإنه إن كان يحتشم ويستغني ويترك بعض الأفعال فليس ذاك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض، فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه)[1].

والتربية في هذه المرحلة تنتقل من مرحلة التقليد والمحاكاة إلى التوعية العقلية بالأسباب والقوانين المتعلقة بالتزام الفضيلة والبعد عن الرذيلة وصيانة اللسان والبطن والفرج من المحرمات خوفاً من الله وحياءً

---

(١) إحياء علوم الدين ج ٣. ٧٢.

منه، وعن ذلك يقول رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء قلنا: إنا نستحي من الله يا رسول الله ـ والحمد للّه ـ قال: ليس ذلك. . الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة، وآثر الآخرة على الأولى، فمن فعل ذلك؛ استحيا من الله حق الحياء»[1].

إن هذه الفترة تحتاج إلى سياسة حكيمة واحترام لمشاعر البالغ ورغبته في الاستقلال والإحساس بنفسه وشخصيته، وإقامة علاقة من الثقة والاحترام بينه وبين والده حتى يمكن توجيهه بما يساعده على النمو والنضج والاتزان.

التربية الجنسية:

من أهم الظواهر في هذه الفترة قلة اعتماد البالغ أو المراهق على والديه في سبيل تطلعه إلى الاستقلال بنفسه، إذ أنه يعتبر نفسه رجلاً وليس ذلك الطفل الذي يأتمر بأمر والديه في كل صغيرة وكبيرة، فهو قد أصبح ناضجاً يحتاج إلى تطوير علاقته مع الأصدقاء والمجتمع. والإسلام لم يهمل هذه الناحية من التربية، وأول المبادىء التي يرى الإسلام قيام حياة الفرد عليها هي: الاستقامة على قوانين الفطرة الطبيعية في الإنسان واتباع هذه القوانين وعدم الخروج عليها، وقوانين الفطرة تقتضي تربية الناس على حياة الطهارة والشرف والعفة والفضيلة والتقوى، وإن الخروج على هذه التربية والانحراف عنها إنما هو خروج على القوانين التي خلق الله عليها الكون والسموات والأرض والكائنات ومنها الإنسان ﴿قالَ رَبُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

فإذا تجاوز الإنسان الحدود التي وضعها الله له والقوانين التي أمره بالتزامها في الدنيا فإنه بسلوكه يظلم نفسه ويعرض نفسه لعقوبات تفرضها

---

(١) رواه الترمذي والإمام أحمد في مسنده.

عليه قوانين الله الطبيعية المودعة فيه، لأن من يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، ولذلك حرم الإسلام الزنا وكل علاقة غير شرعية، وحرم الوسائل والأبواب المؤدية إليه، فإن التربية الإسلامية القائمة على الإيمان الكامل والعقيدة الثابتة وعلى الطهر والبراءة والخوف من الله ومراقبته في السر والعلانية والعبودية المطلقة لله، فإنها تخلق العفة في النفوس وتحبب حياة الشرف والفضيلة والعفة، وهذه المراقبة الدائمة هي التي تجعل الشاب المسلم في موقف القوي أمام غواية الشيطان ونداء الشهوة، والله تعالى يقول: ﴿وإما يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللهِ إنه سميعٌ عليمٌ إن الذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهم طائفٌ مِنَ الشَّيطانِ تَذَكَّروا فإذا هم مُبْصِرونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠١].

ولا يكفي البقاء على حياة العفة ولذلك دعا الإسلام إلى الزواج باعتباره الوسيلة الطبيعية لمشكلة الجنس، وقد ذكرنا حديث الرسول ﷺ ودعوته للشباب أن يغض بصره ويحصن فرجه بالزواج، وإلا فعليه بالصوم لأن الصوم يقلل من حدة الشهوة ويزيد طاقة الإنسان الروحية، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «الغلام يُعق عنه يوم السابع ويسمّى ويُماط عنه الأذى فإذا بلغ ست سنين أُدِّب، وإذا بلغ تسع سنين عُزل عن فراشه، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضُرب على الصلاة والصوم، فإذا بلغ ست عشرة زوّجه أبوه، ثم أخذ بيده وقال: قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك، أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة»[1].

فالآباء مسؤولون عن تربية أبنائهم وتعليمهم وتزويجهم حصانة لهم، أو مساعدتهم على ذلك، فإذا لم يتيسر للشباب الزواج تحصّن بالتعالي على الغريزة والاستعفاف والتمسك بالفضائل وتصريف الطاقات في عبادة الله، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الذينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حتى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]. وليس ذلك الطلب للرجال فقط بل

(١) رواه ابن حبان.

للنساء أيضاً، وقد خصهن الله بعد تلك الآية العامة بآية خاصة إذ يقول: ﴿والقواعدُ مِنَ النساءِ اللاتي لا يَرجونَ نِكاحاً فليسَ عليهم جُناح أنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنّ غيرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزينَةٍ وأنْ يَسْتَعْفِفْنَ خيرٌ لهنّ﴾ [النور: ٦٠].

والمسلم الذي يتمسك بحياة العفة والشرف أمام الإغراء ولا يلين جعله الرسول ﷺ من الذين يظلهم الله بظله ولا ظل إلا ظله. وهو شاب دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين، وفي القرآن مثال لذلك المسلم الشاب في قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز التي راودته عن نفسه وهددته وتوعدته بالسجن والإذلال، ففضل السجن على معصية الله والتخلي عن العفة واستنجد بالله طالباً منه أن يقف معه في محنته ويصرف عنه كيدها، فاستجاب الله لدعائه لعلم الله بإخلاصه وصدق دعواه وطهارة نفسه ﴿كذلك لِنَصْرِفَ عنه السُّوءَ والفحشاءَ إنه مِن عِبادِنا المخلَصين﴾ [يوسف: ٢٤].

ولم تكتف التربية في الإسلام بذلك إنما سدت الأبواب التي يمكن أن تثير الشهوة وتؤدي إلى الفساد، ومنها غض البصر للرجال والنساء ﴿قُلْ للمؤمِنينَ يَغُضُّوا مِن أبصارِهم ويَحفظوا فُروجَهم ذلكَ أزكى لهم إن الله خبيرٌ بما يصنعونَ، وقلْ للمؤمناتِ يَغْضُضْنَ مِن أبصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُروجَهُنّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١]. وعلى النساء أيضاً ألا ينظرن إلى الرجال فقد روت أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة، فأقبل ابن أم مكتوم وذلك بعد أن أُمرنا بالحجاب فقال النبي ﷺ: احتجبا منه، فقلنا: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال النبي ﷺ: أفعمياوان أنتما، ألستما تبصرانه؟»[1].

ومنها تحريم خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية لأنه ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، وقد روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ قوله: «لا

(١) رواه الترمذي وأبو داود.

يَخلُوَن أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم» فقال له رجل، يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجّة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا؟ قال: «انطلق فحجّ مع امرأتك»[1].

ومن الاحتياطات التي اتخذها الإسلام لحفظ الرجال والنساء وحماية المجتمع مما يؤدي إلى الانحلال الأخلاقي والفوضى في العلاقات الجنسية: الأمر بالاحتشام، والنهي عن السفور والتبرج وإظهار المحاسن من النساء، لأن هذه الأشياء هي التي تثير الشباب وتحرك غرائز الرجال وتجعل كلًّا من الجنسين يبحث عن الآخر لإرضاء شهوته المثارة دائماً، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ولا يُبْدِينَ زينتَهن إلا ما ظهرَ منها وَلْيَضرِبْنَ بِخُمُـرِهِنّ على جُيوبِهِنّ ولا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنّ إلا لِبُعـولَتِهِنّ أو آبـائِهِنّ﴾ [النور: ٣١].

ولا يشك مسلم في حرمة ما نرى من لباس تلبسه النساء تبعاً لخطوط (المودة) ونزولاً لرغبة بيوت الأزياء العالمية، وكثير منها لا يستر شيئاً وقد يحدد كل شيء في جسم المرأة ويظهر مفاتنها، ثم تلبس مع ذلك (باروكة) تزيدها فتنة وإغراء ولا تتورع عن كشفه ما وجدت لذلك سبيلاً، وهن اللائي قصَدَهن الرسول ﷺ في حديثه الذي رواه أبو هريرة حيث يقول: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات رؤوسهنّ كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنـة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[2].

ومن تربية الإسلام في تحديد علاقات الرجال بالنساء: أمرُ الله بالسؤال من وراء حجاب طهارة للقلوب ﴿وإذا سألتُموهنّ مَتاعاً فاسْألوهُنّ مِن وراءِ حجابٍ ذٰلكم أطهرُ لِقُلوبِكم وقلوبِهِنّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

كما أمر المرأة ألا يكون في حديثها ما يدعو إلى الفتنة والإغراء والإثارة ﴿فلا تَخْضَعْنَ بالقولِ فَيطمعَ الذي في قلبِهِ مرضٌ وقُلْنَ قولاً معروفاً﴾ [الأحزاب: ٣٢].

كما أمر النساء بالقرار في البيوت إلا لحاجة، وعدم التبرج، والحشمة في اللباس والمشي ﴿وَقَرْنَ في بيوتِكن ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهليةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ومن تربية الإسلام في تنظيم العلاقات: وجوب استئذان الأطفال إذا بلغوا الحلم حتى ينشأ الجيل سليماً معافى محترماً لحرمة الحريات الشخصية للرجال والنساء ﴿يا أيها الذِينَ آمَنوا لِيَسْتَأْذِنْكم الذينَ ملكَتْ أيْمانُكم والذِينَ لم يبلُغوا الحُلمَ منكم ثلاثَ مرّاتٍ مِن قبلِ صلاةِ الفجرِ وحينَ تَضَعونَ ثيابَكم مِن الظهيرةِ ومِن بعدِ صلاةِ العِشاءِ ثلاثُ عَوْراتٍ لكم ليسَ عليكم ولا عليهم جُناحٌ بعدَهُنّ طوّافونَ عليكم بعضُكم على بعضٍ كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكُم الآياتِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ، وإذا بلغَ الأطفالُ منكمُ الحُلُمَ فَلْيَستَأذِنوا كما استأذَنَ الذِينَ من قبلِهم، كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكم آياتِهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ [النور: ٥٨ ـ ٥٩].

ومن تربية الإسلام في العلاقات الجنسية: تحريم الشذوذ في أنواعه المختلفة حتى لا يتجه إلى تفريغ طاقاتهم الجنسية في أوجه أخرى يظنونها غير محرمة، كما حرّم المظاهر الشاذة في تشبُّه الرجال بالنساء واسترجال النساء، فقد روى ابن عباس أن الرسول ﷺ لعن المتخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، كما لعن المتشبهين من الجنسين بالجنس المغاير لهما، سواء أكان هذا التشبه في الأصوات أو الحركات أو فعل شيء هو من خواص جنس دون آخر، كلبس بعض الرجال للباروكات وإطالة الأظافر والشعور ولبس الكعوب العالية، ووضع مساحيق الزينة واستعمال أدوات التجميل، ولبس السلاسل الذهبية على المعاصم والنحور، وتزجيج الحواجب، وأخذ الحقن التي تزيد نسبة هرمونات الأنوثة في الرجال حتى

لا يظهر الشعر في الشارب والذقن، وحتى يتكور الصدر ويبرز كالنساء، وكلبس الملابس الشفافة المبينة للعورة وغيرها، وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبس المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل»[1].

أما الشذوذ المتمثل في اللواط والسحاق بين النساء فإن الإسلام قد حرّم ذلك وأغلظ في العقوبة لما في هذين النوعين من إفساد خلقي كبير، ودلالة على تحلل الأمة وسوء خلقها وتحكم الشهوات فيها، وقد «لعن رسول الله ﷺ ثلاثاً من عمِل عملَ قوم لوط» كما بين الرسول ﷺ مدى خوفه على أمته من انتشار تلك الظاهرة فيها، والتي استنكرها القرآن الكريم في حكايته لقوم لوط ﴿ولوطاً إذ قالَ لِقومِهِ إنكم لَتأتونَ الفاحشةَ ما سَبَقَكم بها من أحد مِن العالَمين، أَئِنَّكم لَتأتونَ الرِّجالَ وتَقطعونَ السبيلَ وتَأتونَ في نادِيكُمُ المنكرَ فما كانَ جوابَ قومِهِ إلا أن قالوا ائْتِنا بعذابِ اللهِ إنْ كنتَ مِنَ الصادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ ـ ٢٩]. ويقول ﴿أَتَأتونَ الذُّكْرَانَ من العالَمينَ وَتَذَرونَ ما خَلَقَ رَبُّكم مِن أزواجِكم بَلْ أنتم قومٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦].

ومن مظاهر الشذوذ مزاولة كثير من الشباب للعادة السرية نتيجة لما يتعرض له الشباب من مثيرات للغرائز في مظاهر الفتنة من النساء في الشوارع والأمكنة العامة وأمام دور العلم والعبادة وما يقدم على أجهزة التلفاز من تمثيليات مثيرة وأغان مائعة ودعايات للبلاد والأزياء كلها تدعو إلى الفحش والرذيلة، زيادة على ما يعرض في المكتبات من مجلات فاضحة وقصص مثيرة وأفلام جنسية هابطة وأجهزة عرض رخيصة لهذه الأفلام، زيادة على الكتلوجات الجنسية التي تعرض الجنس ممارساً والصور التي تباع لذلك، أمام هذا الإغراء كله يتجه كثير من الشباب والرجال بعامة إلى مزاولة الزنا واللواط والاستنماء عن طريق اليد أو عن

---

(١) رواه مسلم.

طريق آخر مع ما في هذه العادة من تحطيم لشباب الأمة وقواها الجسدية والعقلية والنفسية، ومع ما فيها من آثار سيئة في مستقبل الشاب وعلاقته الزوجية ومع ما في ذلك من أضرار اقتصادية باهظة واجتماعية مخيفة، ولعل هذا هو المقصود مع غيره في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وراءَ ذلكَ فأولئكَ هُمُ العادُونَ﴾ [المعارج: ٣١]. وذلك بعد أن بين القرآن أن من صفات المؤمنين أنهم يحفظون فروجهم إلا على زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم.

إن حياة النقاء والطهر لا تكون إلا بتشجيع الآباء والدولة لشبابها بالزواج المبكر، فإذا كانت الدولة تنشيء بنوكاً عقارية لبناء المنازل من الطين والإسمنت عن طريق السلفيات المادية، فإن بناء الأسر والبيوت أولى من ذلك لتحصّن الدولة أبناءها وتعدّ جيوشها وتحمي حماها بشباب مؤمن طاهر نقي بدلاً من الشباب المخنث المائع المنهوك القوى من الانسياق وراء الشهوات والملذات، هذا بالإضافة إلى تشجيع الشباب على الصوم مرتين في الأسبوع ليسمو بروحه على غرائزه وليقوى إيمانه بعبادته، وإقامة مجتمع إسلامي نظيف يحكم العلاقةَ بين الرجال والنساء منهجُ الله وشريعته ونظامه من حيث المناهج الدراسية والمواد الإعلامية، وتزجية أوقات الفراغ بأنواع الرياضة الممارسة في أجواء صافية حتى يسود الأمن والاستقرار النفسي والجنسي بالتزام أوامر الله والخوف منه ومراقبته.

إن الإسلام لا يحتقر الطاقة الجنسية ولا يطالب بالابتعاد عنها لأن الرغبة الجنسية في الإنسان هي التي تؤدي إلى تعمير الأرض، وكثرة التوالد هي التي تؤدي إلى بقاء النوع واستمراره.. فلذلك اعتبر الرسول ﷺ العلاقة الجنسية بين الرجل وزوجته صدقة فقد قال عليه الصلاة والسلام: «وفي بُضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله إن أحدنا لَيأتي شهوته ثم يكون له عليها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وضعها في حلال فله عليها أجر»[1].

(١) رواه مسلم في الزكاة والدارمي وأحمد في مسنده.

وقد كان الرسول ﷺ صريحاً في معالجة كثير من الأمور المتعلقة بالجنس، والتي كان القرآن ينزل بها، فقد روى الإمام أحمد أن اليهود إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبيَّ عن ذلك فأنزل الله تعالى ﴿وَيَسألونَكَ عَن المَحِيض قُلْ هوَ أذىً فاعتزِلوا النساءَ في المحيض ولا تَقربوهُنّ حتى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ثم قال الرسول ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» وقد روى عكرمة عن بعض أزواج النبي ﷺ أنه إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً. وروي أن مسروقاً ركب إلى عائشة فقال: (إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أستحي فقالت: إنما أنا أمُّك وأنت ابني، فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت: له كل شيء إلا فرجَها)[1]. والأحاديث كثيرة في ذلك فليَرجع إليها من أحب. وقد روى أبو داود عن معاذ بن جبل قال سألت رسول الله ﷺ عما يحل من امرأة وهي حائض قال: «ما فوق الإزار والتعفف عن ذلك أفضل».

والإسلام يحدد مكان الجماع إبعاداً للمسلم عن ممارسة الشذوذ مع زوجته فيقول الله تعالى ﴿فإذا تَطَهَّرْنَ فَأْتوهُنّ مِن حيثُ أمرَكم اللهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] أي في الفرج وأكد ذلك بقوله ﴿نساؤُكم حَرْثٌ لكم فَأْتوا حَرْثَكم أنَّى شِئتُم وَقَدِّمُوا لأنفسِكم﴾ [البقرة: ٢٢٣] ومما ذكر عن سبب نزول هذه الآية ما روته أم سلمة من أن الأنصار كانـوا لا يَجْبون[2] نساءهم، وكانت اليهود تقول: إن من أجبى امرأته كان ولده أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار فجبوهن فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله ﷺ، فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ فخرجت، فسألته أم سلمة فقال: ادعي الأنصارية فدعتها، فتلا عليها هذه

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.
(٢) أجبى الرجل زوجه فأتاها في الفرج من الخلف.

الآية ﴿نساؤكم حَرْثٌ لكم فَأْتوا حَرْثَكم أنّى شِئتُم﴾ والحرث هو مكان الولد ولا يكون الولد إلا في الفرج! أما قوله ﴿وَقَدِّمُوا لِأنفُسِكم﴾ فيقصد به تسمية الله عند الجماع، فقد جاء في البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتيَ أهله قال: باسم الله الكريم جنِّبنا الشيطانَ وجنِّب الشيطانَ ما رزقتَنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد في ذلك لم يضرّه الشيطان أبداً»[1].

وقد رخص الله للمسلمين مجامعة النساء في ليل رمضان إذ كان المحلل في أول الإسلام الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء، فمن نام أو صلى العشاء حرم عليه ذلك كله، فوجد المسلمون مشقة في ذلك. وكان البعض يخونون أنفسهم[2]، فنزل قول الله تعالى ﴿أُحِلَّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكم هُنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لَهُنّ عَلِمَ اللهُ أنكم كنتم تَختانونَ أنفسَكم فتابَ عليكم وعفا عنكم فالآنَ باشِروهُنّ وابْتَغوا ما كتبَ اللهُ لكم﴾ [البقرة: ١٨٧].

إن الإسلام يعالج الأمور المتعلقة بالجنس صراحة وطهارة ونقاء وفي تنظيم وتحديد، لا يترك لها العنان فتكون سبباً في تدمير البشر والحضارات.

ولأن الإسلام يدعو الشباب الذي لم يتزوج إلى التسامي والعفة، فإن أسلوب الإقناع الفكري والمنطقي من الأمور التي عالج الرسول ﷺ بها مشكلة محاولة الانحراف والزنا، فقد جاء شاب إلى الرسول ﷺ وطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له بالزنا، فزجره الصحابة وأسكتوه إلا أن الرسول ﷺ أدناه منه في رفق ودون غضب وسأله: أتحبُّه لأمِّك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، وسأله أتحبه لابنتك؟ واستمر يسأله عن أخته وعمّته وخالته، ويخبره بأن الناس لا يرضونه لهم كما لا

(١) ابن كثير ص ٢٦١ ج١.
(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

يرضاه هو لأهله، ثم وضع الرسول ﷺ يده على قلب الشاب وسأل الله أن يغفر له ذنبه ويطهِّر قلبه ويحصِّن فرجه، فلم يلتفت الشاب إلى شيء بعدها.

فهذا نموذج من أسلوبه ﷺ في علاج مشاكل الشباب خاصة ما يتعلق بالجنس، فالشباب يوجَّه إلى بذل الجهد العقلي أو الروحي أو الجسدي في سبيل التسامي وتوجيه طاقاته إلى العمل النافع والاستغراق في عبادة الله والاهتمام بالرياضة البدنية.

والقرآن يبين لنا كثيراً من المواقف التي تسمو فيها النفس المتجهة إلى الله على نداء الجسد وسعار الشهوة، فسيدنا يوسف عليه السلام كما ذكرنا سابقاً مثال للشاب المؤمن الذي نشأ على تقوى الله ومراقبته، فصمد أمام إغراء ملكة جميلة وأذلّ كبرياءها وهي تدعوه لنفسها، وقد حسبت أن ذلك أمر يعجز كل الرجال عن رفضه، وإذا بيوسف ثابت شامخ ذاكر نهيَ الله وجميل العزيز عليه فيقول: ﴿مَعَاذَ اللهِ إنه رَبِّي أحسنَ مَثْوايَ إنه لا يُفلحُ الظالمونَ﴾ ولا ينسى الالتجاء إلى الله وطلب العون منه ﴿قالَ رَبِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مِمّا يَدعونَنِي إليه وإلا تَصْرِفْ عني كَيْدَهُنّ أَصْبُ إليهنَّ وأكنْ مِنَ الجاهلِينَ فاستجابَ له رَبُّه فَصَرَفَ عنه كَيْدَهُنّ إنه هوَ السميعُ العليمُ﴾ [يوسف: ٣٣ - ٣٤].

والشاب المؤمن الذي يرفض الفاحشة ويعف نفسه خوفاً من الله، من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

إن الإسلام لا يكبت الرغبات الجنسية كما يظن من لا يفرقون بين الكبت والضبط، لأن الإسلام يضبط الرغبات ويوجهها لتكون أداة بناء وتعمير لا أداة هدم وتخريب للمجتمع، فالطريق السوي لمشكلة الجنس هو الزواج، لأن من صفات المؤمنين أنهم يحافظون على فروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، لأن الجنس في الإسلام وسيلة متاع وسكن

ومودة ورحمة، به يحقق الإنسان غاية وجوده وهو انتشار النوع وتعمير الأرض وعبادة الله.

ولم يكن الجنس وحده الذي ضبطه الإسلام بل ضبط الدوافع الفطرية الكامنة في الإنسان كلها حتى يكون المجتمع المسلم مجتمعاً وسطاً متوازناً في حياته الروحية والجسدية.

خامساً: مرحلة الرشد

وهي التي تسمَّى بمرحلة النضوج أو وسط العمر، وتقع في الفترة ما بين الأربعين والستين، وفيها يكتمل نمو الإنسان وينضج عقله وتطمئن نفسه ويبلغ أشدّه.

وتربية الإسلام في هذه المرحلة أن يجدد التوبة وأن يرجع إلى الله ويعزم على ترك المعاصي، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ حتى إذا بلغَ أشُدّهُ وبلغَ أربعينَ سنةً قالَ رَبِّ أوْزِعْنِي أنْ أشكُرَ نعمتَكَ التي أنعمْتَ عليَّ وعلى والدَيَّ وأن أعملَ صالحاً ترضاهُ وأصلِحْ لي في ذُرِّيَّتِي إني تُبْتُ إليكَ وإني مِنَ المسلمِينَ أولئكَ الذينَ نَتَقَبَّلُ عنهم أحسنَ ما عمِلوا ونتجاوزُ عَن سَيِّئاتِهم في أصحابِ الجنةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الذي كانوا يُوعَدون﴾ [الأحقاف: ١٥ - ١٦]. وفي تفسير الآية يقول ابن كثير مشيراً إلى قوله تعالى ﴿حتى إذا بلغَ أشُدَّهُ﴾: (أي قوي وشبّ وارتجل وبلغ أربعين سنة أي تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه ويقال: إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين)[1].

وفي هذه المرحلة يكون المرء قد نضج أخلاقياً، الأمر الذي يقلل احتمال انحرافه بعد هذه السن فهو دائم الدعاء إلى الله أن يثبته ويقويه ويعصمه من الزلل، فقد روى أبو داود في سننه عن أبي مسعود رضي الله

(١) ابن كثير ج ٤ ص ١٥٧.

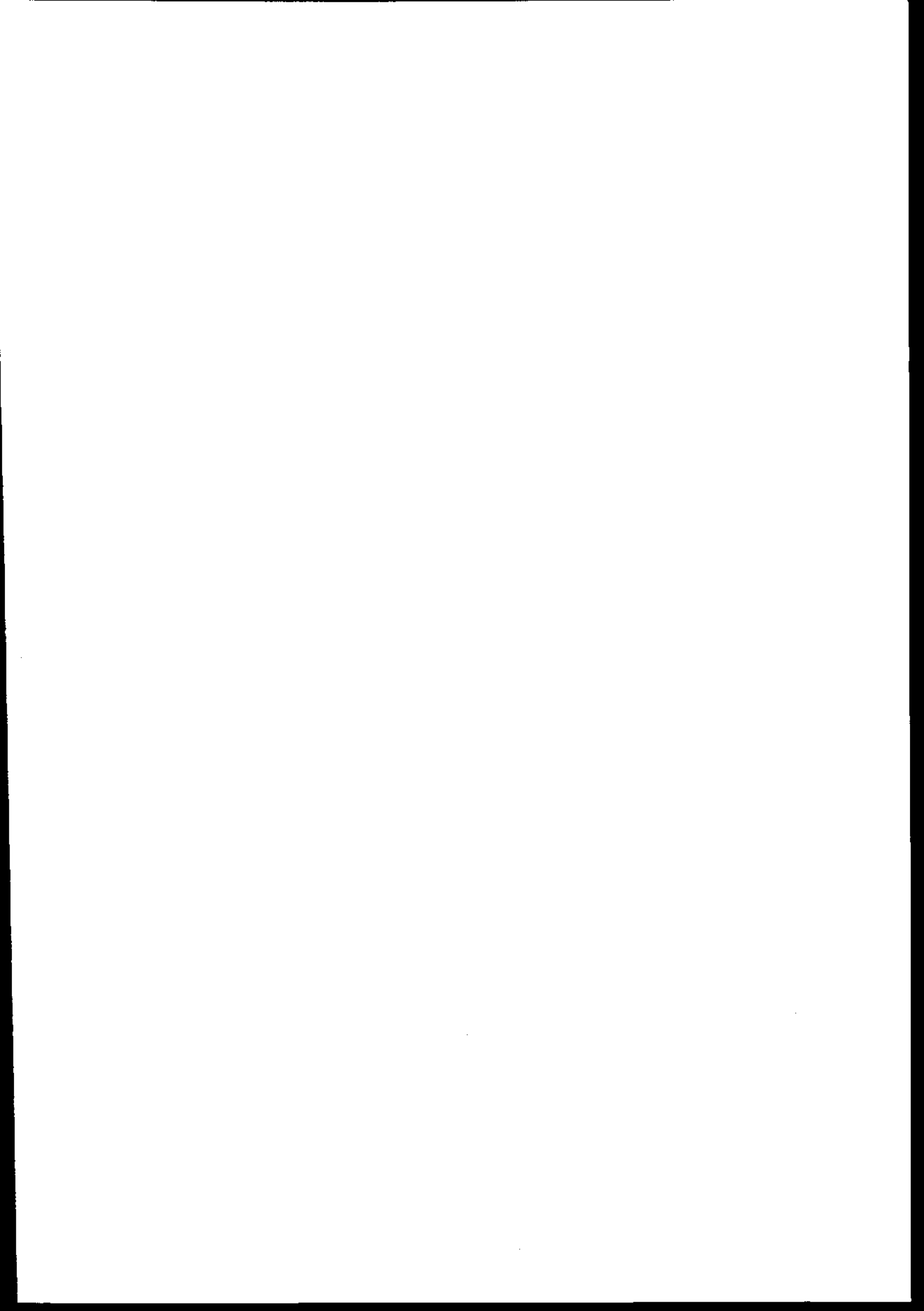
عنه أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد «اللهم ألِّف بين قلوبنا وأصلح ذات بَيْنِنا وَاهْدِنا سبلَ السلام ونجِّنا من الظلمات إلى النور، وجنِّبنا الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ، وباركْ لنا في أسماعِنا وأبصارِنا وقلوبِنا وأزواجِنا وذرياتِنا، وتبْ علينا إنك أنت التوابُ الرحيمُ، واجعلْنا شاكرينَ لنعمتِك مُثنِين بها عليكَ فاقبلْها وأتمَّها علينا»[1].

أما مرحلة الشيخوخة والتي تبدأ من الستين فهي مرحلة العطاء لا الأخذ، والاستعانة بالله وطلب العون، والانقطاع إلى عبادة الله والتضرع إليه. وهي المرحلة التي يلجأ إلى أهلها من قبلهم مستفسرين سائلين يطلبون التوجيه والعون، لأنهم أهل الذكر يحبهم الله ويغفر لهم ويشفعهم في أهلهم.

وهكذا نجد الإسلام قد تعهد الإنسان بالتربية والهداية والتوجيه في جميع مراحل حياته وإلى أن يفارق الدنيا ورسم له الطريق الواضح المستقيم الذي يعصمه من الزلل ويقوده إلى النجاة والجنة بعون الله وفضله.

---

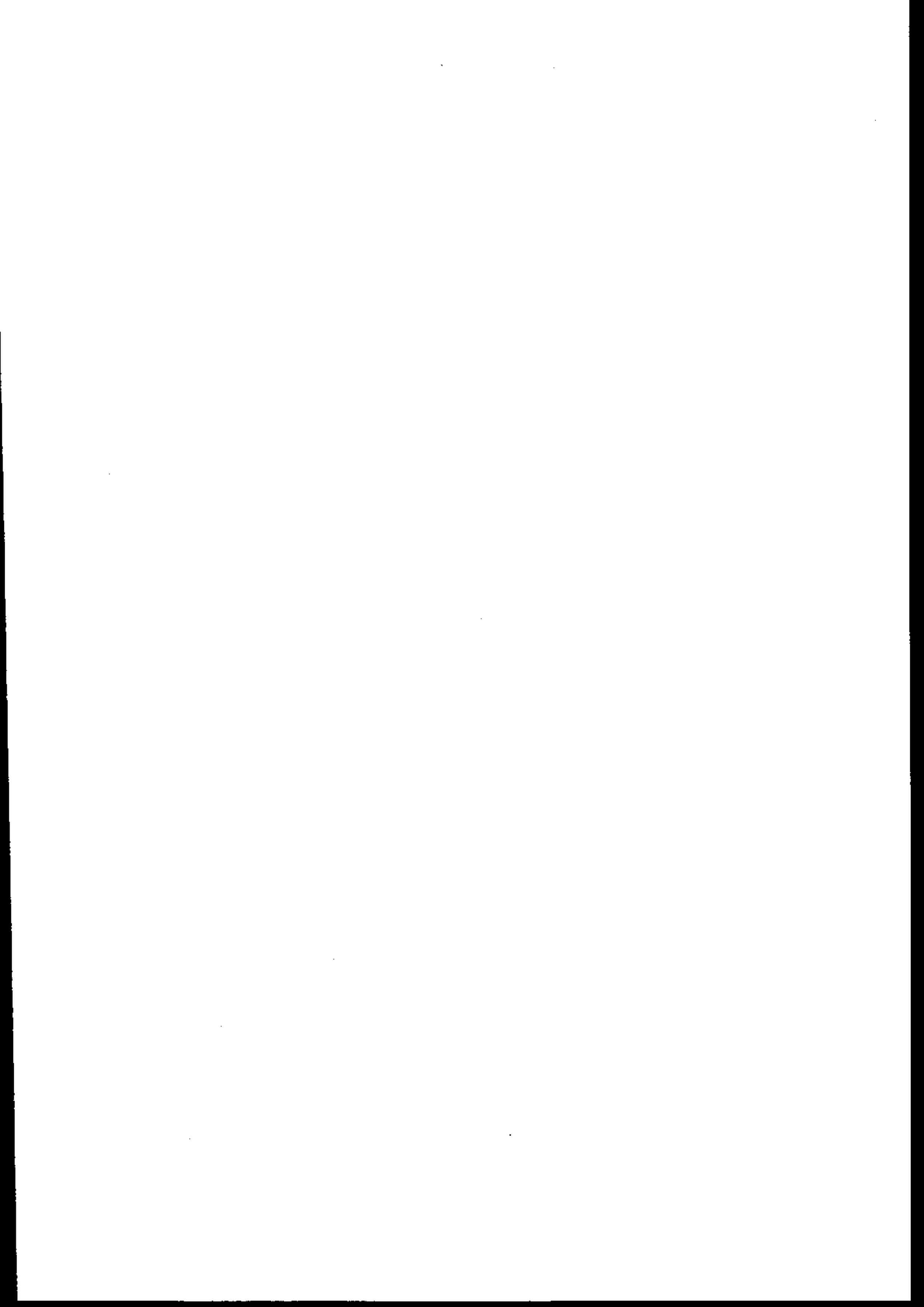
(١) ابن كثير ج ٤ ص ١٥٨.



الفصل السابع

بيئات التَّربية في الإسلام

١ ـ الأسرة .
٢ ـ المسجد .
٣ ـ المدرسة .
٤ ـ المجتمع .
٥ ـ الوراثة والبيئة .



بيئات التربية في الإسلام

يقصد بالبيئات الأمكنة التي تتم فيها العملية التربوية، لما لتلك البيئات من وظائف تربوية تقوم بها مع التركيز على الصفة التربوية لهذه البيئات، وتشمل هذه البيئات الأسرة والمسجد والمدرسة والمجتمع.

أولاً: الأسرة

تعتبر الأسرة المكونة من الأبوين أقدم مؤسسة اجتماعية للتربية عرفها الإنسان، إذ أنها كانت ولا تزال المؤسسة الوحيدة التي تعلِّم وتهذِّب الطفل وتنقل إليه عن طريق الأب خبرات الحياة ومهارتها المحدودة ومعارفها البسيطة، وكانت القبيلة هي التي تساعد الآباء في عملية التربية، وكثيراً ما كان الابن وارثاً لمهنة والده التي تعلمها ومارسها معه، ولا زالت الأسرة في المجتمعات المتخلفة هي مصادر التربية والمعرفة بالنسبة لأبنائها.

وقد أدى تطور الحياة البشرية واستقرار الإنسان وبناء المجتمعات المدنية والقروية وزيادة الخبرات الإنسانية وتعدد أنواع المعرفة البشرية إلى أن تشارك مؤسساتٌ أخرى الأسرةَ في واجب الرعاية والاهتمام والتربية والتوجيه، وتخلت الأسرة عن بعض ما كانت تقوم به بالرغم من أنها ظلت المؤسسة الأولى في حياة المجتمع الحديث أيضاً في التربية.

كانت الأسرة تقوم بواجب التربية من الناحية الصحية والجسمية، فيوفر الأبوان لطفلهما الطعام والشراب والكساء والمأوى، ثم تعليمه المهنة التي يعيش بها في المستقبل، وغالباً ما تكون مهنة الوالد، على حين تتعلم البنت أمور البيت، وقد تساعد في أعمال الزراعة مع أمها، ولكن تطور الحياة جعل الأسرة تسعى إلى تعليم أبنائها، وأصبحت المدرسة المؤسسة الثانية بعد الأسرة.

وقد سبق أن تحدثنا عن بعض المهام التربوية التي تقع على عاتق الأسرة المسلمة، وأهمها: إيجاد الأم الصالحة للأبناء ورعاية الأمهات، ثم اختيار الاسم الصالح للأبناء وتعهدهم بالرعاية والتربية الدينية والتوجيه إلى المثل العليا والتمسك بالفضائل وغيرها مما لا نود تكراره.

وأول الحاجات الضرورية التي يجب أن توفرها الأسرة هو حاجة الطفل إلى الحب والعطف والحنان، ولا يمكن توفر ذلك في أسرة لا تقوم أساساً على المودة كما يقول الله تعالى: ﴿ومن آياتِه أن خَلَقَ لكم مِنَ أنفسِكم أزواجاً لِتَسْكُنوا إليها وجعلَ بينكم مَودّةً ورحمةً﴾ [الروم: ٢١]. لأن هذه المودة بين الوالدين تنتقل إلى الأولاد فتسود المحبة جو العائلة، وقد أثبتت الدراسات النفسية أن الطفل إذا أحس بفقد العطف والحنان والرعاية ترجم ذلك في تصرفات يريد بها إثارة الانتباه واستدرار عطف والديه، ثم تنعكس هذه الآثار في مستقبل الطفل فيصبح قاسياً في سلوكه ساخطاً على المجتمع.

ولذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام أرحم الناس بالأطفال، وقد كان الرسول ﷺ نموذجاً لما يجب أن تكون عليه العلاقة الأسرية بين الأبناء والآباء، فقد كان يحنو على الحسن والحسين.. يمتطيان ظهره الشريف فيحبو بهما ويخاطبهما، وقد أطال الرسول ﷺ السجود مرة فسئل عن ذلك فقال: «إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجل حتى يقضي حاجته»[1]. وقد حدث أن كان عليه الصلاة والسلام يقبِّل الحسن وعنده أعرابي يتعجب من ذلك ويقول للرسول ﷺ إن لي عشرة أولاد ما قبَّلت أحداً منهم قطّ، فأجابه النبي ﷺ «من لا يَرحم لا يُرحم»[2] وفي رواية «أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك؟» وفي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ: «ليس منا من لم يَرحم صغيرَنا ويوقِّر كبيرَنا ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر»[3] وكان ﷺ

(١) رواه أبو داود.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه الترمذي.

رحيماً بالصبيان عامة، يسلِّم عليهم إن رآهم، ويتسابق معهم إن رآهم يتسابقون، ويلتقي بصبيان أسرته إذا عاد من سفر ويركِّب على ناقته من يلقاه منهم.

وهذا النوع من التربية للأطفال يؤدي إلى نتيجتين:

أولاهما: إشباع حاجة الطفل الغريزية للحب والعطف والحنان والرعاية.

وثانيتهما: انتقال هذه الصفات منه إلى الآخرين كباراً كانوا أم أطفالاً.

إن الإسلام عندما وضع على عاتق الأم أعظم مهام الحياة وهي التربية للأجيال وبناء الإنسان، كان ذلك من معرفة الإسلام بأن التربية الصحيحة لا تتوفر إلا في الأسرة التي تستطيع المرأة فيها أن تعطي وقتها لبيتها وزوجها وأطفالها وأن توفر لهم جميعاً المأوى الدافىء والجو المليء بمعاني العطف والمودة والرحمة.

إن المجتمعات الحديثة وقد خرجت فيها المرأة مع الرجل إلى العمل جعلت الأبوين منصرفَين عن العناية والرعاية لأطفالهما، لأنهما يعودان من العمل منهكَين متعبَين محتاجَين إلى الراحة الجسدية، مما يُفقد أبناءهما عواطف المحبة والرحمة والنظر في مشاكلهم التربوية والتعليمية، وحاجتهم إلى الحنان والرعاية، ومثل هذه الأسرة لا تُفقد أبناءها ما تقدم بل تجعلهم يتعلمون كثيراً من أنواع السلوك السيء والعادات الضارة من الشارع أو صحبة الأشرار أو الخدم في البيوت.

إن واجب الأسرة في الإسلام توجيه الأطفال إلى الصلاة وعبادة الله ﴿وَأْمُرْ أهلَكَ بالصلاةِ وَاصْطَبِر عليها﴾ [طه:١٣٢]. ومراقبة تنفيذ هذا الأمر، وأخذهم بشدة في سن العاشرة والتفريق بينهم في المضاجع، والاستئذان في الأوقات التي حددها القرآن، لأن الطفل لا بد أن ينشأ على السلوك الإسلامي، الذي يخضع النظام الأسري فيها لتعاليم الإسلام ونظمه في المأكل والملبس والسلوك وكل شأن من شؤون الحياة.

وعن دور الأسرة في تربية الأولاد يقول الغزالي: (اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها. والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة فإن عُوِّد الخيرَ وعُلِّمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة... وإن عُوِّد الشرَّ وأُهمل إهمال البهائم شقي وهلك..

وصيانته بأن يؤدِّبه ويهذِّبه ويعلِّمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء.. ومهما رأى فيه مخايل التمييز فإنه ينبغي أن يحسن مراقبته. وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء. وهذه هدية من الله تعالى إليه، وبشارة تدل على الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمَل، بل يُستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه.

وإن الصبي إذا أُهمل في بدء نشأته خرج في الأغلب رديء الأخلاق، كذاباً حسوداً، سروقاً، نماماً لحوحاً، ذا فضول وضحك وكيد ومجانة، وإنما يُحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ثم يُشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم ليغرس في نفسه حب الصالحين ويُحفظ من الأخبار التي فيها ذكر العشق وأهله..

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فإنه ينبغي أن يكرم عليه ويُجازى عليه بما يُفرِح ويُمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة ينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه. ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، وإن عاد ثانية ينبغي أن يُعاتَب سراً ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا فتفضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب النتائج ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن حافظاً هيبة الكلام معه، فلا يوبخه إلا أحياناً، والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح).

ويقول أيضاً (وينبغي أن يعوَّد ألا يبصق في مجلسه ولا يتمخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده، فإن ذلك دليل الكسل، ويعلَّم كيفية الجلوس، ويُمنع كثرة الكلام، ويُبيَّن له أن ذلك يدل على الوقاحة، ويمنع الحلف رأساً صادقاً كان أو كاذباً حتى لا يعتاد على ذلك من الصغر.

ويُمنع أن يبتدىء بالكلام، ويُعوَّد ألا يتكلم إلا جواباً وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً، وأن يقوم لمن فوقه، ويوسِّع له المكان، ويجلس بين يديه، ويُمنع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك. فإن ذلك يسري لا محالة من قرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء.. وينبغي أن يُعلَّم طاعة والديه ومعلِّمه ومؤدِّبه وكل من هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي، ومهما بلغ من التمييز، ألا يسامح في ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان)[١].

إن الأسرة التي تقوم بالواجبات التي سبق ذكرها والتي هي جماع لما يسمى الآن بالتربية الخلقية والجسمية والعقلية والاجتماعية، لهي أسرة مثالية قادرة على تخريج رجال نافعين لأنفسهم ولأمتهم، وقد بين الرسول ﷺ واجبات الأسرة نحو أبنائها فيما ذكرنا من الرحمة والشفقة والعطف عليهم، لأن تلك الأمور تعطي الأطفال الاطمئنان النفسي والثقة بالذات.. والنشأة السوية والاهتمام بالواجب. كما دعا الإسلام إلى التعويد على الصلاة باعتبارها عماد الدين، كما أن على الأسرة أن تملأ فراغ الأطفال باللعب وتعلّم فنون القتال وما يقوّي الأجسام والقراءة النافعة الموجهة وقفل أبواب الفساد والانحراف، وذلك بالتوجيه لهم إلى الصحبة الطيبة وإبعادهم عن رفاق السوء ومراقبتهم الدائمة من غير مضايقة لهم أو إشعارهم بذلك.

---

(١) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ١٧٢.

كما أن حسن معاملة الوالدين لبعضهما ولأولادهما هو خير طريقة لتربيتهم، لأن المعاملة القاسية والإحباط الدائم بالتوبيخ والضرب والإهانة والسخرية تؤدي إلى نتائج سيئة أهمها: فقدان الثقة بالنفس، وحب العزلة عن الناس، والخوف، وعدم تحمل أي مسؤولية في الحياة، والاعتماد على الغير، وربما الاتجاه نحو الجريمة والانحراف والشذوذ. ولذلك دعا الرسول ﷺ إلى الرحمة والرفق ولين الجانب وعذوبة الألفاظ والتوجيه الحسن والعقوبة المعقولة، فالرسول ﷺ يخبر بأن الراحمين يرحمهم الرحمٰن، وأن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على سواه ويقول: «إن أراد الله تعالى بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق، وإن الرفق لو كان خَلقاً لما رأى الناس خَلقاً أحسن منه، وإن العنف لو كان خَلقاً لما رأى الناس خلقاً أقبح منه».

وأهم واجبات التربية الأسرية أيضاً: التربية الإيمانية للطفل، وذلك بتوجيه عواطف الطفل نحو حب الله وحب رسوله وإخباره بأن الله يجب أن يكون أحب إليه من أمه وأبيه ونفسه التي بين جنبيه، وإلى جانب عاطفة الحب تكوِّن عاطفة الخوف من الله، لأن العاطفة الأولى تؤدي إلى طاعة الله والعمل بما أمر، والثانية تؤدي إلى البعد عن المعاصي قولية أو فعلية ظاهرة أو باطنة. والأطفال يستهويهم الحديث عن الله وحبه والجنة والنار ووسائل الوصول إليهما.

وعلى الآباء إشعار أبنائهم بأن حبهم للّه ينشأ من حاجتهم الدائمة إليه هم وآباؤهم، لأن كل شيء بيد الله؛ الإحياء والإماتة والشقاء والسعادة، والرزق والنعمة والهداية والضلال، وهذه الحاجة هي التي تجعلنا نحبه أولاً ونقوم بواجب الشكر ثانياً من اتباعٍ لما أمر واجتناب لما نهى.

ويمكن غرس هذه المعاني في الطفل ساعة وصوله إلى مرحلة الاستغناء عن أمه ونمو قواه الجسمية والعقلية بحيث يستطيع فهم التوجيهات القرآنية والنبوية في ذلك، وبحيث يستقر في قلبه أن مصدر كل

شيء في الوجود هو الله. وتوجيهه إلى بعض الأحاديث مثل الحديث القدسي «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» أو كما روي الحديث.

إن غرس الإيمان الحقيقي في نفوس الناشئة، والإيمان المطلق بالله بصفاته الثابتة له، وحبه والخضوع له والخوف منه والالتجاء إليه في كل أمر هو سر السعادة للأبناء والأسرة، خاصة إذا أثبتت العقيدة بالطرق التربوية السليمة التي تقوم على العاطفة والعقل والعلم والحكمة حتى يكون الإيمان هو مصدر السلوك وموجه الإنسان في الحياة، والرسول ﷺ يعلمنا التدرج في تربية الأولاد فيقول فيما رواه ابن عباس «افتحوا على صبيانكم أول كلمة بلا إله إلا الله» ثم أمْرهم بالصلاة في السابعة، ثم تأديبهم على حب النبي وآل بيته وتلاوة القرآن، وتعريفِهم بالحلال والحرام ممارسةً أمامهم وتلقيناً وتوجيهاً لهم بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ووعظاً بتوصيلهم إلى بعض الأمور كما كان يفعل الرسول ﷺ مع ابن عباس.

إن الأسرة هي البيئة الأولى التي يتعلم فيها الطفل، فإذا وجد الأبوين الصالحين اللذين يرعيان ويوجهان ويحسنان التربية، نشأ الأطفال نافعين لأنفسهم ولأمتهم ومطيعين لربهم منجين لأنفسهم وأهليهم من عقاب الله وسخطه.

ثانياً: المسجد

أخذت الكلمة من أصلها الاشتقاقي وهو السجود للّه سبحانه وتعالى فكان المكان الذي يخضع فيه الإنسان ويخشع للّه هو المسجد. ومسجد قباء هو أول مسجد في الإسلام أسس على التقوى من أول يوم، مما جعل المسجد على مر العصور رمزاً لحضارة الإسلام ومكان التربية والعبادة للمسلمين. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى المهام التربوية التعبدية للمسجد فقال: ﴿في بيوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيها اسمُهُ يُسَبِّحُ له فِيها بالغُدُوِّ والآصالِ رِجالٌ لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بَيْعٌ عَن ذِكرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ يَخافونَ يوماً تتقلّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ﴾ [النور: ٣٧].

وقد وردت لفظة مسجد بالمفرد والجمع ثمان وعشرين مرة في القرآن، كما وردت اللفظة كثيراً في السنة المطهرة مرتبطة بالبناء والتربية ورسالة المسجد.

فالمسجد في الإسلام من أهم الأسس التي تقوم عليها تربية الفرد وبناء المجتمع، ويمكننا أن نحدد المهام التربوية الوظيفية للمسجد من خلال القرآن والسنة فيما يلي:

١ ـ **المسجد مكان الصلاة والذكر والعبادة** ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التقوى مِن أوّلِ يومٍ أَحَقُّ أن تقومَ فيه﴾ [التوبة: ١٠٨] ﴿في بيوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فِيها اسمُهُ﴾ [النور: ٣٦]. ويقول ﴿ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ

بعضَهم ببعضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكَر فيها اسمُ اللهِ كثيراً﴾ [الحج: ٤٠].

والمسجد هو مكان العبادة الجماعية وصلاة الجماعة التي يحسن بالمسلم أن يحرص عليها ففي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره. وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط. فذلكم الرباط»[1].

والمسجد مكان الاعتكاف ﴿ولا تُباشِروهُنَّ وأنتم عاكِفونَ في المساجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

٢ ـ **المسجد مكان العلم والتعلم**، وأول ذلك دراسة القرآن الكريم، يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة «وما اجتمعَ قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»[2].

ويقول عليه الصلاة والسلام: «أفلا يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد يتعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»[3] وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله تعالى وقراءة القرآن». أو كما قال رسول الله ﷺ[4].

٣ ـ **المسجد مكان القضاء والحكم والشورى ومجمع للوزارات الإسلامية**، فقد كان المسجد هو مكان الحاكم، والمدرسة التي تربى فيها

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.

الرعيل الأول من الصحابة إيمانياً وروحياً وخلقياً واجتماعياً وتفاعلت أرواحهم ونفوسهم بتعاليم الرسول ﷺ وعطائه وقدوته. تعلموا فيه أمور الدين وعرفوا فيه الحلال والحرام كما تعلموا فيه علوم القرآن والسنّة والشرع واللغة وعلوم الحياة كلها. وتحققت فيه معاني الأخوة ممارسةً وواقعاً، وتعاونوا على البر والتقوى واطمأنت فيه قلوبهم بذكر الله وضربوا المثل النادر في التفاني والحب والإيثار والرحمة، واختاروا فيه الخلفاء بعد الرسول ﷺ وكل خليفة يلقي بيان سياسته وأسس حكمه فيه ابتداء بأبي بكر الصديق، وفيه تقاضى المتنازعون ففيه أصدرت الأحكام بإقامة حدود الله، وفيه قاضى كعب بن مالك رجلاً دَيناً كان له عليه في المسجد، فارتفعت أصواتهما فنادى رسول الله ﷺ قائلاً: «يا كعب ضع عن دينك هذا» فقال قد فعلت يا رسول الله فقال «قم فاقضه»[1].

وفي المسجد أقيمت بعض ألعاب الفروسية فقد روت عائشة عن الرسول ﷺ قولها «دعاني رسول الله والحبشة يلعبون بحرابهم في المسجد فقال: يا حميراء أتحبين أن تنظري إليهم؟ فقلت: نعم، فأقامني من ورائه فنظرت من وراء منكبيه» قالت عائشة قال رسول الله ﷺ «لِتعلمَ يهود أن في ديننا فسحة»[2].

وكان المسجد في عهد رسول الله ﷺ مكاناً لإيواء الفقراء والغرباء الذين عرفوا بأهل الصفة في المكان الذي خصص لهم، وكان فيه سبعون من الفقراء منهم أبو هريرة رضي الله عنه، وفيه حبس بعض الأسرى وفيه كان الجرحى يداوون، فقد روت عائشة فقالت: (أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق في الأكحل، فضرب رسول الله خيمة في المسجد ليعودوه من قريب)[3].

---

(١) فتح الباري ج ٥ ص ٧٣.
(٢) مسند الإمام أحمد.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

ومن المسجد كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه يدبرون شؤون الأمة والدولة والدعوة، ويرسلون السفراء ويجهزون الجيوش، ويضعون الاستراتيجيات ويخططون ويمارسون نظام الشورى، وإذا جدّ أمر واستدعى قراراً سريعاً ورأياً قاطعاً نودي (الصلاة جامعة)، فيجتمع الناس ويتشاورون. وفيه ينتخب العمال ويرسلون ويحاسبون وتوزع فيه أموال الزكاة والصدقات ويعقد فيه النكاح فالرسول ﷺ يقول: «أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه الدفوف»[1] ومنه تعطى الشهادة بالنجاح مع الله للمسلم إذ يقول الرسول ﷺ: «بشر المشّائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[2].

وبالتردد عليها يُشهد للرجل بالإيمان، فقد روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قوله: «إذا رأيتم الرجل يرتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»[3] وهذا تأكيد لقول الله تعالى ﴿ إنما يَعْمُرُ مساجدَ اللهِ مَن آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يَخْشَ إلا اللهَ فعسَى أولئكَ أن يكونوا مِن المهتدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

إن المسجد يمكن أن يؤدي دوره الأول في حياة المسلمين وتربية أبنائهم وتوجيههم في النواحي الروحية والأخلاقية والاجتماعية، حيث يُتعلم فيه ويُستمع إلى الموعظة النافعة، ويُخطط فيه لرعاية الشباب وممارسة نشاطاته، ويُتعلم فيه النواحي الدينية وما يتعلق بمناهج الحياة وأمور التشريع. إن المسجد يمكنه ممارسة مهامه الأولى في التربية إذا كان للحاكم مكان فيه، وإذا كان التخطيط للأمة المسلمة في ربوعه، وإذا جُعل المسجد مكاناً لمناقشة الدراسات التي تقدمها اللجان المتخصصة في السياسة والتعليم والتربية والمال والشؤون البلدية وما إليها.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

(٣) رواه الترمذي.

إننا نلحظ الآن لدى المسلمين اتجاهات إلى تحقيق رسالة المسجد الأولى ببناء المساجد والمدارس وقاعات المحاضرات والندوات والمستشفيات في مبنى واحد حتى يمكن للمسلمين أن يقضوا أمورهم كلها في ذلك المبنى، كما أننا نجد في كثير من البلاد اتجاه الشباب إلى جعل المسجد منارةً للعلم ومكاناً للمحاضرات ومجلساً شورياً للحي الواحد، وهذا يقضي أن يكون من يتولون الأمر على درجة من العلم والمعرفة بشؤون الدين والدنيا، وأن يكون الخطباء في مستوى الإسلام وتعاليمه ومعارفه وفي مستوى الحياة ومشكلاتها وهمومها حتى يكون الخطيب إمام الناس حقاً في أمور دينهم ودنياهم.

إن المسجد عامل مهم من عوامل التربية وبناء الأفراد والأمم، فيه يعلم النشء الحلال والحرام وأمور الدين والدنيا وأحوال المسلمين وتاريخهم وهمومهم ومشاكلهم، وفيه تتحقق معاني التعاطف والمودة والرحمة والتعارف والتعاون، وفيه يتدارس الناس القرآن وعلوم الدين، وتصقل فيه المواهب وتقوّى النواحي الروحية والجسمية والعقلية والوجدانية. ففي كل خطوة إلى المسجد تحطّ خطيئة وتكتب حسنة فالرسول ﷺ يقول: «من تطهّر في بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة».

ولا يمكن للناشئة أن يكونوا على صلة بالمساجد ما لم يكن الأباء قدوةً لهم في ذلك... يشجعونهم ويأخذونهم معهم ويربطونهم بدروسه ونشاطاته المختلفة حتى ينشأ الشباب في رحاب الله وفي بيت من بيوته.

المهام التربوية للمسجد:

ظل المسجد في عهد الرسول ﷺ والصحابة المكان الرسمي لشؤون التعليم والعبادة وما يتعلق بهما من الوعظ والتوجيه والذكر والتعليم، حتى اتسعت الدولة الإسلامية وأصبحت الحاجة ملحة إلى تخصيص أماكن

للتعليم يقوم بها نفر من المعلمين الذين تفرغوا لهذه الحرفة، ومع ذلك ظلّ المسجد المكان الأول الذي تتحقق فيه الأهداف العملية للتربية، وأصبح المسجد مؤسسة من المؤسسات التعليمية التي لا غناء لأحد عن التتلمذ فيها.

ويمكننا أن نحدد المهام التربوية للمسجد من خلال ما قام به المسجد في تاريخ المسلمين فيما يأتي:

١ ـ التربية على العبادة الصحيحة:

يتعلم المسلم في المسجد قواعد التوحيد وتطبيقاته والعبادة وطرق أدائها وإحسانها ﴿وأنَّ المساجدَ للهِ فلا تَدْعُوا معَ اللهِ أحدا﴾ [الجن:١٨] فالمسلم يأتي للمسجد ليخلص للّه بعبادته ويطهر روحه بعد أن جاء طاهر البدن والملبس وليصل ربه ويناجيه في بيته ﴿في بيوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيها اسمُه يُسَبِّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ رِجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتـاءِ الزكاةِ يَخافونَ يوماً تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧].

ولأن المساجد خصصت للعبادة وقراءة القرآن والذكر فهي: لا تصلح لمنازعات الدنيا ومدافعات الأهواء، والبيع والشراء، والخلافات المذهبية والعقائدية وتطاحن أصحاب الأهواء والأغراض، وإن ادّعوا الحرص على الإسلام والمساجد، فالمساجد أماكن عبادة يتعلم فيها المسلم كيف يعبد ربه عن علم ومعرفة ودراسة وتلقّ، ومكان لتطهير النفوس وتزكيتها وتربيتها على إخلاص النية للّه في العبادات كلها، وتعلّم الجاهل أمر دينه كما فعل الرسول ﷺ مع من بال في المسجد وأوشك أصحابه أن يتعرضوا له فعلّمهم الرسول ﷺ كيف يوجهوا ويطهروا مسجدهم من بوله «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن».

ولأن الصلاة تمثل الظاهرة المستمرة في العبادات أمر الرسول ﷺ

بتدريب الصغار عليها عن طريق المحاكاة والتقليد أولاً ثم التوجيه والدفع بالحزم ثانياً، فأمرنا أن نأمرهم بها تقليداً في سبع سنوات ونضربهم عليها في عشر حتى يهيَّؤوا إليها وتصبح جزءاً من واجباتهم اليومية، فلا تثقل على نفوسهم إن كلفوا بها في سن التكليف، ويكون ذلك بأن يعوِّد المسلم أبناءه ارتياد المساجد، وأن يكون قدوة لهم فيها، وأن يصطحبهم معه وأن يحببها إليهم بالوسائل كلها.

٢ ـ نشر التعليم العام:

ظلت المساجد في تاريخ الإسلام المؤسسة التعليمية الأولى ومكان العبادة والوعظ وتصريف شؤون الحياة، وكان الرسول ﷺ يجلس ويتحلق أصحابه حوله ويستمعون إليه ويتعلمون منه. وبالرغم من انفصال المؤسسات التعليمية وتخصيص أماكن للتعليم، إلا أن ظاهرة اتخاذ المسجد منارة تعليمية لا زالت ظاهرة مرتبطة بالمساجد في كل بقاع الأرض، مما يدل على عدم استغناء المسلمين عن المسجد كواجهة تعليمية لنشر العلم والمعرفة، ولم يكن التعليم مقتصراً على الرسول ﷺ، فقد كان الصحابة يتحلقون ويعلمون بعضهم ويتذاكرون، فقد روى عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فإذا هو بمجلسين، أحدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون، فقال رسول الله ﷺ: «كِلا المجلسين على خير وأحدهما أحب إليّ من صاحبه، أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم. وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلِّماً، وجلس إلى أهل الفقه»[1]. وقد تعلم قادة المسلمين وأمراؤهم وساستهم على مر العصور في المساجد التي انتشرت في كل بقعة يقطنها المسلمون، وظل تأثير المسجد فعالاً وموجِّهاً للمسلمين ومربياً لهم، ولا يستطيع أحد أن يتجاهل الدور التوجيهي والتربوي للحرمين الشريفين والجامع الأزهر وجامع الزيتونة في تونس

---

(١) أدب الدنيا والدين ـ الماوردي ص ٥٦.

والقرويين في المغرب ومن تخرج من هذه المؤسسات في علوم الدين والدنيا، وقد ركز المستعمرون على إطفاء مشاعل العلم في هذه المؤسسات لإدراكهم خطورة توجيه المسجد في حياة المسلم، ولعل هذا هو الذي نبّه العالم الإسلامي إلى أهمية المسجد ودوره التربوي والتوجيهي والاهتمام بتكوين هيئة عالمية لإعادة رسالته.

ولكي يحقق المسجد رسالته التربوية يمكن الاهتمام بالأمور التالية:

١ - تحرير المساجد من سيطرة الدول واعتبارها هيئات مستقلة تعمل للإسلام على هدى وبصيرة دون تقيد بسياسات الدول ومحاورها الثقافية، وأن تكون المساجد مشاعل هدى ومنارات حق، لها حق التوجيه والنصح لكل المسلمين بصرف النظر عن وظائفهم أو الاعتبارات الأخرى كما تفعل الكنائس في كل البلدان، إذ لها استقلالها وحريتها في نشر تعاليمها وتوجيه أتباعها، وهذا سيجعل المساجد موضع ثقة الأمة ومكان الاطمئنان لأفرادها.

٢ - جعل المسجد جزءاً من البناء الأساسي لكل مؤسسة تعليمية أو مصلحة حكومية أو مصنع أو سوق أو قرية أو منطقة، حتى يرتبط الناس بالمسجد في كل مكان كمكان لأداء العبادة والتعلم والتربية، وتكييف مواعيد العمل والدراسة بمواعيد الصلاة، حتى ينسق الناس بين المسجد والعمل أو الدراسة، وحتى يتربوا على أن أهمية المسجد في حياة المسلم لا تقل عن أهمية الدراسة والعمل، وأن تتقيد الدولة كلها بمواعيد الصلاة في جميع مناشطها عملاً وتربية وليس شكلاً ومظهراً، وأن يرغب الناس في ارتياد المساجد طاعةً لله وامتثالاً لأمره، وأن تكون تنشئتهم مرتبطة بذلك، وألا يقهروا عليها حتى لا يتكاسلوا عنها أو يذهبوا إليها كارهين مجبورين. إن الجيل الناشىء إذا وجد المسجد في القرية والمدرسة والمجتمع ووجد القدوة التي تعلمه أن يجعل ارتياد المسجد وأداء الصلاة جزءاً من برامج حياته اليومية لن يتوانى

عن أن يعمر مساجد الله ويحرص عليها.

وإذا كان الذي يؤم الناس للصلاة هو الحاكم في مكانه والوالي في ولايته والمدير في مصنعه أو مصلحته والوزير في وزارته ورئيس الجامعة في جامعته والعمداء في كلياتهم ومديرو المدارس في مدارسهم والأئمة الصالحون في أحيائهم وقراهم؛ لصلح أمر الأمة كلها، ولكان للمسجد أثره في توجيه الناس وتربيتهم دون حاجة للخطب والمواعظ التي لا تأثير لها في الناس.

٣ ـ إعداد الأئمة الصالحين الذين يقومون بواجب الدعوة على هدى وبصيرة ومعرفة بالدين وإحاطة بأحكامه وتمسك بأخلاق الرسول ﷺ وتعاليمه وقيم الإسلام وسماحته، وأن يكون الأئمة ملمين بعلوم القرآن والسنة وبعلوم العربية وفقهها وآدابها وبالمذاهب الفكرية والتيارات السياسية الموجهة والمؤثرة في العالم وبطرف من علوم الحياة والكون والاقتصاد والفلسفة، وباختصار أن يكون الإمام شخصاً يعيش عصره بعلومه ومعارفه وبفقهه دينه وبأحكامه وتعاليمه ويخشى ربه ويتقيه، ولكي يوجد هذا النموذج لا بد من إعداده إعداداً خاصاً وتوفير سبل الحياة الكريمة له وأن تغير مناهج الدراسة في الجامعات الإسلامية بما يجعلها محققة لهذه الأهداف، وأن يكون الأئمة ممن عرفوا بالأخلاق الحسنة والسلوك القويم والتدين الواعي الصحيح والشخصية المستقلة القائدة المؤثرة حتى ينعكس ذلك كله في أدائه وعطائه.

٤ ـ ألا تكون المساجد أبنية مستقلة بل مرتبطة بمنافع للناس كأن تكون جزءاً من مجمع سكني أو مجمع فيه مسجد ومستشفى ومدرسة وملاعب رياضية ودور للشباب، وأن تترابط كلها لتكون منافع للناس مرتبطة بمعايشهم وسكنهم ومناشطهم وحاجتهم للعلاج أو التسويق أو الدراسة أو النزهة أو الرياضة، وغير ذلك مما يلبي حاجات الإنسان الروحية والنفسية والعقلية والجسمية، وأن تكون كلها تحت إدارات

مؤمنة بالله تقية تعمل على تربية الأمة وتوجيهها ومساعدتها على إحسان صلتها بالله.

٥ ـ أن يكون الائمة من عامة الناس ممن توفرت فيهم الشروط التي ذكرناها في النقطة الثالثة، لأن هذا سيفتح باب المنافسة على الخير ويحقق شروط الكفاية سواء أكان الإمام من علماء الدين أم الأطباء أم المهندسين أم المعلمين أم الموظفين أم العمال، لأن ذلك يحقق مهمة تربوية وهي عدم ربط هذا الدين بفئة معينة من الناس بل تحقيق قول الله سبحانه وتعالى ﴿إنّ أكرمَكم عندَ اللهِ أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣] ولكي يعلم المسلم أنه مميز عند الله والناس بتقواه وحسن خلقه وتدينه وعلمه وليس بنوع دراسته ولا شهادته التي يحملها، وعند هذا سيجد الناشىء إماماً يعمل طبيباً أو أستاذاً أو مهندساً أو عاملاً، ويرسخ في ذهنه أن الكل سواسية أمام الله لا فضل لأحدهم على غيره إلا بمدى قربه من الله سبحانه وتعالى، وأنه مهما كان موقعه في الأمة يمكن أن يكون لها قائداً وإماماً وموجهاً ومربياً.

٦ ـ ربط الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية بالمساجد فتكون المساجد أماكن تربية وتعليم وتوجيه وإرشاد، فترتبط بها المناسبات الاجتماعية من زواج ومناسبات إسلامية وجمعيات تعاونية وجمعيات البر والإحسان ولجان الزكوات والمصالحات والتوجيه المهني والزراعي وغير ذلك مما يربط الناس بالمسجد ويرغبهم فيه، وإن اقتضى الأمر بناء مكاتب متخصصة فيها وقاعات للمحاضرات العامة والخاصة والتوجيه النسائي وغير ذلك مما يمكن للمسجد أن يقوم به.

٧ ـ جعل المساجد مراكز إعلامية كما كان المسجد في عهد الرسول ﷺ مركز المسلمين الإعلامي، فيه يتلقى المسلمون المعلومات الصحيحة في شؤون القتال والحرب، وفيه يدافع الشعراء عن الإسلام ورسالة رسوله، ويمكن في عصرنا تزويد المساجد بالأجهزة والمعدات التي

يمكن أن يتعامل بها المسلمون ويعلّموا بها غيرهم، وأن تتوفر المعلومات التي يحتاج إليها الخطباء في المساجد من أحوال المسلمين بخاصة والعالم بعامة، ولما يجري في حدودهم وخارجها، خاصة وأن الأقمار الصناعية يمكنها نقل الصلوات والخطب إلى الأرض كلها فلا بد أن يكون مستوى وعي الأئمة الإعلامي بمستويات هذه المعطيات الحضارية وبمستوى تأثير الكلمة والخبر في العالم. إن التغطية الإعلامية للعالم هي التي ستنشر قيم الإسلام الأخلاقية في العلاقات بين الدول والحقوق الإنسانية وعلاقات السلم والحرب والمتحاربين، وروح الإخاء والمساواة في الحقوق الضرورية للبشر، وتشجيع سيادة الحياة الروحية في عالم طغت عليه المادة وأثّرت في فكره وسلوكه وسياسته.

المسجد ودوره في محو الأمية وتعليم الكبار:

يقول العبدري في كتابه المدخل: (أفضل مواضع التدريس هو المسجد: لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنة أو تخمد به بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى، والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوافراً. لأنه موضع لاجتماع الناس رفيعهم ووضيعهم وعالمهم وجاهلهم)[1] وهو يقصد بهذا تعليم الكبار العلوم الدينية.

ويرى الدكتور عبد الفتاح جلال أن (المسجد كان على عهد الرسول ﷺ أول مدرسة لتعليم الكبار، كان عليه الصلاة والسلام المعلم والصحابة الكرام تلاميذها العباقرة الأفذاذ، إذ تعلموا فيها كل أنواع العلم والمعرفة التي تفيد الإنسان في الدنيا والآخرة وتبني جميع جوانب شخصيته فيخرج منها متكامل الشخصية حقاً)[2] ويرى هذا الباحث المتخصص في

(١) نقلاً عن الأبراشي عن التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ٧٨ ـ ٧٩.
(٢) مجلة الفيصل العدد الثامن السنة الثانية ص ٨٠.

التعليم الوظيفي أن من احتياجات المجتمع المعاصر لبعض وظائف المسجد ما يلي:

١ ـ إمكانية قيام المسجد بدوره في تعليم الأميين تعليماً يربطهم بدينهم إذ بلغوا خمسين مليوناً في البلاد العربية وحدها.

٢ ـ تعاون المسجد مع المؤسسات الاجتماعية في تقديم التعليم المفيد لنسبة كبيرة وقف تعليمها في المرحلة الابتدائية وتعاني نقصاً في مهارات الكتابة والقراءة والثقافة العامة أو الدينية.

٣ ـ سد المسجد للثغرات الموجودة في مناهج التعليم فيما يخص التربية الدينية التي يغلب عليها في مدارسنا طابع التلقين والهامشية.

٤ ـ الاستعانة في المسجد بذوي الخبرات والمعرفة لتقديم المحاضرات لكبار المتعلمين الذين يحتاجون إلى مزيد من العلم في جوانب متعددة ومتنوعة وتساعدهم على أداء أعمالهم.

٥ ـ إقامة مكتبة مزودة بالكتب الدينية والعلمية والثقافية الهامة والمفيدة في المسجد لتحقيق الربط العضوي الفعلي بين العلم والدين.

٦ ـ مشاركة المسجد في تنمية المجتمع وتطويره وتقدمه وانتشاله من مظاهر التخلف الاجتماعي والاقتصادي.

٧ ـ أن يشمل تعليم الكبار الرجال والنساء بدءاً بالكتابة والقراءة إلى أعقد أمور التخصص وأرفع درجات المعرفة.

إن المسجد لا يمكن أن يقوم بدوره في المجتمع الحديث المعقد ما لم يستفد من الإمكانات المتاحة وما لم يتفاعل مع الناس ومشكلاتهم وحياتهم: يقدم لهم الحلول والعلوم، ويستفيد من العلماء الصالحين والمتخصصين في صفوف المعرفة، ويزود بالمكتبات العلمية الضخمة والوسائل العلمية الحديثة في مجال التعليم والتربية.

ثالثاً: المدرسة

إن المدرسة مؤسسة اجتماعية حديثة العهد في العالم، فكما ذكرنا فإن الأسرة ثم القبيلة هي الوسائل التي عرفتها البشرية لتربية الأولاد وإكسابهم المهارات التي يراد لهم تعلمها، وبتطور الحياة أصبحت الحاجة ماسة إلى اتخاذ مكان يتعلم فيه الصغار، وإلى أشخاص ينوبون عن المجتمع في أداء هذه المهمة.

ولم يعرف المسلمون المدرسة بالصورة التي نعرفها إلا في القرن الخامس الهجري نسبة إلى ارتباط التربية والتعليم في الإسلام بالمسجد، وكان للمسجد دوره الذي ذكرناه في تحمل مسؤولية نشر الثقافة الإسلامية والمعارف الإسلامية، وكان كثير من علماء المسلمين يرون عدم تدريس الأولاد في المساجد، لتزايد أعدادهم وما يحدثه وجودهم في المسجد من حركة وضجيج، زيادة على كثرة المواد التي تدرس وما يترتب عليها من نقاش وحوار وجدل ومناظرة، مما جعلهم ينشئون المدارس مرتبطة بالمساجد، ويخصصون فيها ما عرف بـ (الإيوان) قاعة المحاضرات وأمكنة لإيواء الطلاب والمدرسين وما يتبع ذلك من مرافق كالمطبخ وحجرة الطعام وغيرها[1]. ومع ذلك ظل المسجد الجامع في حياة المسلمين منارة العلم وإشعاع النور.

---

(١) راجع أحمد شلبي ـ تاريخ التربية الإسلامية ص ١١٤.

وقد اختلفت نشأة المدرسة في تاريخ الإسلام عن نشأتها عند الأمم الأخرى لارتباط التعليم بتعاليم الإسلام ونظرته في اعتبار التعليم حقاً وفريضة على كل مسلم، وهو ما يسمونه الآن بديمقراطية التعليم، فلم يكن التعليم في الإسلام مقتصراً على ما يسمى برجال الدين أو أبناء الحكام والطبقات الراقية.

إن المسلمين كان لهم الفضل باتصال الغرب بهم عن طريق الأندلس والمغرب والقسطنطينية وعن طريق إيطاليا والحروب الصليبية في توجيه الغرب إلى نقل التراث الإسلامي العربي وإنشاء الجامعات والمدارس التي اتخذت صفات كثيرة. ولكن المسلمين بعد نكستهم وتخليهم عن مناهج تربيتهم وتعليمهم اقتبسوا نظام المدارس في صورتها الراهنة من الغرب عن طريق الإرساليات وغيرها بعد أن جرد الغرب التعليم من الصفة الدينية وصبغه بصبغة علمانية بعيدة عن الدين.

إن المدرسة الإسلامية كما ذكرنا تجعل التعليم والتربية حقاً لكل مسلم، وليست امتيازاً لطبقة أو فئة من الناس، وإن اتجاه الناس إلى التعليم يجعل المسؤوليات التربوية للمدرسة أكبر من المسجد، إذ أن المدرسة قد انفصلت الآن كبيئة تربوية، لا تكتفي بإعطاء المعلومات والمعارف بل هي أداة للتربية المتكاملة عقلية وجسدية وعاطفية ووجدانية.

ويمكننا أن نشير إلى بعض الوظائف التي يمكن للمدرسة بها أن تكون وسطاً صالحاً للتربية الإسلامية:

١ ـ اختيار المنهج الدراسي الإسلامي:

إذ أن المناهج الدراسية لدى المسلمين كانت تراعي عدة أمور أهمها مراعاة ميول الأطفال ورغباتهم، ومراعاة الفروق الفردية، إذ أن الطفل يفهم ما بإمكانه أن يفهمه، والاختلافات الفردية قد ترجع إلى طبيعة التربية أو البيئة أو السن أو مستوى الذكاء، ولذلك طلب الرسول ﷺ من سيدنا عبد الله ابن عباس أن لا يحدث الناس بما لا تحتمله عقولهم، والشريعة الإسلامية

تراعي الاستعداد الشخصي حتى في العبادات، فالرسول ﷺ يقول لأصحابه: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم فانتهوا» ويقول الغزالي في ذلك: (وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم. كذلك المربي لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم، وإنما ينبغي أن ينظر في مرض المريض وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله نفسه من الرياضة ويبني على ذلك رياضته)[1].

والقرآن الكريم يقول مبيناً هذه الفوارق في الاستعدادات ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إن نَسِينا أو أخْطَأْنا. رَبَّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصْراً كما حَمَلْتَهُ على الذِينَ مِن قبلِنا رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لَنَا به﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ويقول عليه أفضل الصلاة والتسليم: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصابت طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به»[2] وفي أحاديث كثيرة يطلب الرسول ﷺ من المسلم ألا يذل نفسه بتعريضها لما لا تطيق من البلايا كما يطالب بالقصد في كل شيء.

٢ ـ مراعاة الطبيعة النفسية للبشر:

وهذا يتطلب من المدرسة أن تكون بعيدة عن العنف والقسوة ومكاناً للرحمة والرفق والتوجيه بالوسائل الحسنة، فالرسول ﷺ يقول لعائشة: «عليك بالرفق فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا

---

(١) الغزالي ـ إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٧٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم.

شانه»[1] والإسلام يهدف إلى إيجاد المسلم اللطيف الرقيق الرفيق الذي يكره العنف والقسوة والفظاظة والغلظة، إذ أن العنف لا يلد إلا العنف ولذلك يقول الرسول ﷺ: «يسِّروا ولا تعسِّروا وبشِّروا ولا تنفِّروا»[2].

٣ - الاستفادة من الخبرات الإنسانية:

من المهام الأساسية للمدرسة نقل خبرات الأجيال السابقة لمن بعدها، وهذه الخبرات تراث إنساني يستفيد به المسلمون بالنافع منه والمتفق مع عقيدتهم ويتركون ما لا يتفق معهم بعد التعرف على جوانب السوء فيه. والإسلام دين متطور يدعو إلى التحرر من ربقة التقاليد والأفكار البالية لأن الحرص على المعتقدات الفاسدة بحجة المحافظة على التراث قد يقود إلى الضلال والكفر ﴿قالوا أجِئْتَنا لِنَعبدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤنا﴾ [الأعراف: ٧٠]. فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها.

٤ - الحب للفضيلة والكراهية للرذيلة لذاتهما:

إن التربية تهدف إلى جعل الأخلاق عادة في سلوك الإنسان، وأن يكون اتجاه المسلم إلى الخير نابعاً من الحب للخير واجتناب الشر نابعاً من الكراهية للشر لأنه شر في السر والعلانية وتحت كل الظروف والأحوال، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿والذِين صبَروا ابتغاءَ وَجْهِ رَبِّهم وأقامُوا الصلاةَ وأنفَقُوا مِمّا رَزَقْنَاهم سِرّاً وعلانيةً ويَدرَؤون بالحسنةِ السيئةَ أولئكَ لهم عُقْبَى الدارِ﴾ [الرعد: ٢٢]... فمحكّ الفضيلة والكمال الخلقي أن يصدر العمل عن طبيعة ثابتة في حب الخير سراً وعلناً، ولذلك وسّع الإسلام في دائرة الخير فجعل كل فعل خير صادر من المسلم نحو المسلم صدقةً حتى الإمساك عن الشر صدقة لمن لم يجد ما يفعله إيجاباً، بل إن فعل الخير نحو الحيوان صدقة لا تصدر إلا من طبع فطر على حب الخير وجبل عليه. وقد وصف القرآن الطبائع التي مارست حب الفضيلة في واقع الحياة فقال: ﴿والذِين تَبَوَّؤوا الدارَ والإيمانَ من قبلِهم يُحِبّونَ مَن هاجَرَ إليهم ولا يَجِدون

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم.

في صدورِهم حاجةً مما أوتوا ويُؤثرونَ على أنفسِهم ولو كانَ بهم خَصاصةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئكَ همُ المفلحونَ﴾ [الحشر: ٩]. كما وصفهم بقوله: ﴿ولكنَّ اللهَ حَبَّبَ إليكمُ الإيمانَ وَزَيَّنَهُ في قلوبِكم وكَرَّهَ إليكمُ الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ﴾ [الحجرات: ٧]. فالذي صبغ نفسه على حب الفضيلة يكره بداهة الرذيلة، والرسول ﷺ يقول: «أعينوا أولادكم على البر».

إن المدرسة تستطيع تحقيق التربية الأخلاقية الكاملة كما ذكرنا عن طريقين:

الأولى: الطريق غير المباشرة، بأن تكون المؤسسات الاجتماعية والمواد المدرسية وسلوك المعلمين ومن لهم صلة بالتعليم متمشية مع الأخلاق والسلوك الإسلامي.

والثانية: تدريس علم الأخلاق كعلم مستقل بذاته.

إن المدرسة هي البيئة التي يتعلم فيها الطفل ويعبِّر فيها عن رغباته وميوله ويظهر فيها إمكاناته وقدراته، وعلى المدرسة أن ترى ذلك كله وتوجه وتكمل رسالة البيت والمسجد، لأن عمل كل واحد مكمل لعمل الآخر في تنمية شخصية الطفل وإعداده لحياته المقبلة ليكون على صلة بالله طيبة، وبالمجتمع مفيدة، وبالوطن تكون مصدراً للخير والعطاء.

المعلم هو حجر الزاوية في العملية التربوية كما يقولون. فالمدرسة تقوم بدورها بواسطة المعلم، لذلك كان لا بد من إعداده لمهمته واختياره من النخبة الطيبة، لذلك ركز علماء التربية قديماً وحديثاً على صفات لا بد أن تتوافر في المعلم، وقد حصر القدماء هذه الصفات في كلمات. فابن سينا يقول: (ينبغي أن يكون مؤدِّب الصبي عاقلاً ذا دين. بصيراً برياضة الأخلاق. حاذقاً بتخريج الصبيان. وقوراً رزيناً. غير كزّ ولا جامد. حلواً لبيباً ذا مروءة ونظافة ونزاهة)[1].

(١) الأبراشي - التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ٢٢٥.

ومن خلال تلك الآراء نستطيع أن نحدد الصفات الواجب توفرها في المعلم المسلم فيما يلي:

الورع وتقوى الله: وذلك بمراقبة الله سبحانه وتعالى في السلوك والأقوال، فالرسول ﷺ يقول: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم» والمعلم أب لأولاده يوجههم إلى الخير ويلتزم به في سلوكه، والرسول ﷺ يخبرنا أن أكرم الناس أتقاهم وأن أكثر ما يُدخل الجنةَ تقوى الله وحسن الخلق. ولا بد أن يكون المعلم ورعاً يشعر بأن الله معه أينما كان. وإن مراقبة الله الدائمة هي الموجهة للسلوك والإرادة، فإذا لم يكن المعلم تقياً ورعاً نشأ أولاده على الفساد والتحلل وانعدام الضمير والرادع.

٢ - الإخلاص في العمل: لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، وكل عمل يبتغي به المرء وجه الله فهو عبادة. ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وما أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقِيموا الصلاةَ ويُؤتوا الزكاةَ وذلك دِينُ القيِّمةِ﴾ [البينة: ٥]. ويقتضي الاخلاص أن يكون المعلم واسع العلم عالماً بأمور الدين وتعاليم الإسلام وآرائه في الحياة والموت والكون ونظامه الاقتصادي والسياسي والتربوي والتشريعي، زيادة على ما في الحياة من مبادىء ونظم وأفكار، ثم التمكن من مادته التي تخصص فيها، والتعرف على الجديد في العلم عن طريق البحث والاطلاع والصلة بالعلماء وما إلى ذلك. وقد أوصى هشام بن عبد الملك معلم ابنه بقوله (إن ابني هذا هو جلدة ما بين عيني، وقد ولّيتك تأديبه فعليك بتقوى الله وأداء الأمانة. وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله.. الخ)[1].

٣ - الالتزام بالإسلام والعمل له: إن المسلم المعلم في حقيقة الأمر داعية إلى الله على بصيرة وإدراك، وعليه أن ينقل هذا المفهوم لطلابه قولاً

(١) راجع الأبراشي - التربية الإسلامية ص ١٤٦.

وعملاً سلوكاً وممارسة ﴿قُلْ هذهِ سَبِيلي أدعو إلى اللهِ على بَصِيرةٍ أنا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالربط بين الأقوال والأعمال دليل على الالتزام الأخلاقي بالإسلام، وليس الالتزام الفكري فقط. وهذا يقتضي أن تتمثل الفضائل الأخلاقية كلها في سلوك المعلم لأنها مراقبة ومحسوبة عليه مثل الالتزام بالصدق والأمانة والتواضع والعفة في اللسان والجوارح والشجاعة والكرم والمروءة والحب والبغض في الله والرفعة والرقة واللين ودماثة الخلق وما إلى ذلك.

إن المدرسة تمثل نافذة الحياة بالنسبة للأطفال يعيش فيها الطفل وقتاً كبيراً من يومه، ليتزود بالمعارف والتعليم والخبرات التي تجعله قادراً على اقتحام الحياة والتكيف معها وأداء رسالته فيها وتحقيق سر وجوده في الأرض، وهو معرفة الله وعبادته.

رابعاً: المجتمع

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿والبلدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُه بإذنِ رَبِّه والذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِداً﴾ [الأعراف:٥٨]. وهذه الآية توضح لنا أن التربية لا تتم إلا في إطار اجتماعي وداخل مجتمع مسلم نظيف، لأن الطفل لا يمكن تربيته بعيداً عن المؤسسات الاجتماعية مثل البيت والمسجد والمدرسة ووسائل الإعلام وغيرها، لما لهذه المؤسسات من أثر تربوي فعال، ولما للعادات والتقاليد والأخلاقيات الاجتماعية من تأثير على الطفل، والسلوك الإنساني عبارة عن التفاعل بين الظروف الاجتماعية البيئية والطبيعة الإنسانية.

إن المجتمع المسلم يتميز عن المجتمعات الأخرى كما يتميز الفرد عن الأفراد غير المسلمين في عقيدته التي ينشأ منها سلوكه، والمصدر الذي يتلقى منه سلوكه، والأخلاق التي يتميز بها عن غيره، والطرق التي يسلكها في حياته وفي تحقيق أهدافه، والعبادة التي يمارسها، والمؤسسات التي ينشأ فيها، والقيم التي يوزن بها البشر.

وإن المجتمع المسلم قائم على نبذ العنصرية والوطنية الإقليمية وعلى الحرية المبنية على العبودية الكاملة للّه وحده، والتي تحقق له المحافظة على ماله وعرضه ونفسه وتطلب منه الالتزام بالحق والعدل. كما أنه مجتمع الأخوة والمساواة والكفاية والعدل بين المسلمين الذين يتساوون في الواجبات والحقوق «المسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد

على من سواهم»... فالمجتمع عامل تربوي فعال يحتاج إلى تضافر المؤسسات في تحقيقه لمسؤولياته التربوية التي يمكن الإشارة إلى أهمها وهو:

التعاون على البر والتقوى:

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتَعَاونوا على البِرِّ والتَّقوى ولا تَعَاونوا على الإِثمِ والعُدوانِ﴾ [المائدة:٣]. لأن التعاون على البر والتقوى هما وسيلتا المجتمع لنشر الفضيلة والخير ومحاربة الرذيلة والشر، فوسائل التربية الحديثة من صحافة وإذاعة وتليفزيون وغيرها من وسائل الإعلام؛ كل منها معلم يملك أذواق البشر وأسماعهم وأبصارهم، فإذا وُجهت وجهتها الصحيحة كانت وسائل خير ورحمة وتعليم وتثقيف، وإذا تركت على ما هي عليه من نشر السموم والأغاني المائعة والتمثيليات الهابطة والكذب الدائم والسخافات والأباطيل؛ كانت وسائل دمار وهدم لجهود مؤسسات التربية الأخرى كالبيت والمدرسة والمسجد. فواجب الدول أن تطهر مؤسساتها من كل ما يعوق تربية أجيالها على الحق والفضيلة والبر والتقوى، وأن تحارب هذه الأجهزة وتجعلها تتكيف مع طبيعة المجتمع وعقائده ونظمه، ولا يتم التعاون على محاربة الإثم والعدوان إلا بإغلاق مظاهر الفساد الاجتماعي، وتوجيه الثقافة التي يتأثر بها الأطفال والكبار إلى الثقافة التي يبنى المجتمع عليها، وحماية الشباب من المؤثرات الثقافية الدافعة للفساد. والإسلام يوجه توجيهات كثيرة في هذه الناحية، فالله سبحانه يقول: ﴿قُلْ إنّما حَرَّمَ رَبِّي الفَوَاحِشَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ والإِثمَ والبَغْيَ﴾ [الأعراف:٣٣].

والرسول ﷺ يحذر الرجل يرتكب عملاً بالليل وينشره بالنهار وقد ستره الله، لأن عمل الشر إثم ونشره عن طريق إذاعته إثم آخر، لا يفعل ذلك إلا الماجن الذي لا يستحي، وإذاعة الفاحشة مضرة للمجتمع من الناحية التربوية، فكيف به إذا تولته أجهزة في الدولة وبأموال المسلمين؟!

والله لا يحب الجهر بالسوء من القول أو الفعل، فواجب المجتمع التعاون على إزالة الإثم والفواحش إلى درجة قتال المفسدين في الأرض وقتلهم ﴿إنّما جزاءُ الذِينَ يُحاربونَ اللهَ ورسولَه وَيَسْعَوْنَ في الأرضِ فساداً أنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أيدِيهم وأرجُلُهم مِن خلافٍ أوْ يُنْفَوْا مِنَ الأرضِ ذٰلكَ لهم خِزْيٌ في الدنيا ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]. كما يحث الإسلام الفرد لينوبَ عن المجتمع في القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[1].

والمجتمع المسلم هو الذي يقوم على التقوى ويطالب أفراده بذلك. والحض على التقوى كثير في القرآن باعتبار التقوى مصدراً لسلوك المسلم فرداً وجماعة، فالمتقون هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ويؤمنون بالآخرة وبالكتب المنزلة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرون في البأساء والضراء والمنفقون فيهما والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس والمحسنون الذين يذكرون الله ليلاً وسحراً والمستغفرون. فالتقوى هي وصية الله الدائمة لكل أمة على لسان الأنبياء، وهي خير زاد للمسلم وخير لباس له، والمتقون هم أولياء الله وهم سبب سعادة المجتمع وأساس بنائه، وسبب الرزق والانفتاح الاقتصادي، وسبب النجاة من كل ضعف والوصول إلى الجنة التي أعدت للمتقين.

والمجتمع هو الذي تتعمق فيه بالممارسة معاني الود والرحمة والإيثار والتضحية، فالمسلمون في توادّهم وتراحمهم جسدٌ واحد ألف الله بين أعضائه بنعمته بعد أن كانوا أعداء، وقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثلة في ممارسة التكافل الاجتماعي والإيثار مع الحاجة والتضحية في سبيل الغير، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ تُرسَل إليهم الأموال الكثيرة فيوزعونها على المحتاجين وينسون أنفسهم وهم أحوج ما يكونون إليها،

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان.

وكانوا رحماء فيما بينهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً.

إن المجتمع المسلم هو الذي يقوم بدوره في مساعدة الآباء على تربية أبنائهم على أخلاق الإسلام وتقاليده، بحيث أن الابن إذا خرج إلى المجتمع وجد فيه ما تعلمه من الوالدين، فلا يسمع كلمة نابية أو لفظاً جارحاً، ولا يرى مظهراً للغش أو الخداع وهو يبتاع ويتعامل في المدرسة أو خارجها، ويجد مدرسيه في حرص أبويه على المثل الإسلامية فلا يسمح له بالغش في الامتحان أو يعطى ما لا يستحقه إرضاء للمدير أو جنسيته.

المجتمع المسلم لا يعجّ بمظاهر الفساد والتحلل والعري وبنفس الوقت يطلب من المراهق أن يكون عفيفاً طاهراً... إن النشء المسلم يجب ألا يجد نوعاً من التناقض بين تربية والديه والأخلاقيات الممارسة في المجتمع. فالمجتمع المسلم مجتمع متحرر من الانقياد لغير الله ونظيف طاهر، تبنى فيه العلاقات على القاعدة القرآنية ﴿وَتعاونوا على البِرِّ والتقوى﴾.

إننا لا نستطيع تربية أطفال صالحين في بيئة اجتماعية فاسدة، كما لا نستطيع أن نزرع أرضاً دون تهيئة هذه الأرض، لأن أدواء المجتمع كلها معدية تنتقل إليهم شاؤوا أم أبوا.

إن الدولة تستطيع توجيه الوسائل الاجتماعية كلها بدءاً بالأسرة والمدرسة وأجهزة الإعلام في خدمة التربية، وقد وجه الإسلام إلى تكوين جماعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مزودة بالخبرات والأساليب التربوية الصحيحة، توجه المجتمع من داخله وتراقب ما يجدّ من انحراف في السلوك للأفراد أو المؤسسات أو الدولة نفسها، ثم تعالج الأمور بحكمة وموعظة حسنة متعاونين مع أفراد المجتمع في ذلك ﴿وَلْتَكُنْ منكم أُمَّةٌ يَدعونَ إلى الخيرِ وَيَأمرونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ وأولئكَ هُمُ المفلحون﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إن الدول تشرِّع كثيراً من القوانين لحماية ما يسمى بالنظم الاشتراكية والمكتسبات الثورية وما إلى ذلك، فما الذي يمنع المجتمع المسلم من سنّ القوانين والنظم التي تكفل حماية المجتمع ونظمه وتقاليده، ويوقف مظاهر الفساد والانحلال، ويحمي النشء والأمة من كل ما يدنس أخلاقها أو ينحرف بها عن التوجيهات التربوية للإسلام؟ وبالتالي تشجع الناس على الفضائل وتزيل هذا الصراع المستمر بين التعاليم التربوية والإغراءات الخارجية.

إن الإسلام يطالب الأسر بالتعاون فيما بينها بتعليم الأسر المتعلمة للأخرى حتى يتحقق التعاون على البر في واقع الحياة، يقول الرسول ﷺ فيما رواه علقمة عن أبيه قال: خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ثم قال: «ما بالُ أقوام لا يفقِّهون جيرانَـهم ولا يعلِّمونَهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلَّمون من جيرانِهم ولا يتفقّهون ولا يتّعظون، والله لَيعلِّمنَّ قومٌ جيرانَهم ويفقِّهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ولَيَتعلَّمنَّ قومٌ من جيرانِهم ويتفقّهون ويتّعظون أو لأعاجلنّهم العقوبة».

فالرسول ﷺ يبين لنا أن المجتمع يمكن أن يتخذ سلطته عن طريق القوانين التي تكفل سلامة المجتمع وتربيته وتعليمه حتى تتحقق الأهداف التربوية للمجتمع المسلم.

خامساً: الوراثة والبيئة

أثبت العلم حديثاً أن الأطفال يرثون الصفات الثابتة فيهم من أبويهم كما يرثون الصفات الشكلية فيهم. وأن الأطفال يحملون خصائص أصولهم وإن بعدت المسافة الزمنية بينهم وبين أصولهم، وأثبتت قوانين الله في الكون أن الفرع يشبه أصله في الكائنات كلها.

إن انتقال خصائص الآباء والأجداد للأبناء الذين يمثلون الفروع هو الذي يعرف بعلم الوراثة، وهو علم لا يوجد من ينكره. ولكن الخلاف بين العلماء في الشيء الذي يورثه الآباء ومقداره ونوعه.

فالبشرية كلها تشترك في الصفات التي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات وتورث هذه الصفات جيلاً بعد آخر، ولكن هناك صفات خاصة إلى جانب الصفات العامة تتميز بها أمة ما في مكان ما عن الأمم الأخرى، وهي التي تميز بها الأفريقي عن الآسيوي والشرقي عن الغربي، ثم يتدرج هذا التمايز في الصفات إلى مستوى الأبوين اللذين يورِّثان ألوانهما وأشكال قامتهما وطباعهما لأبنائهما، وتختلف نسبة الصفات المورَّثة من الأب والأم والمقدار الذي يرثه من كل منهما، وقد لا يرث الأبناء صفات آبائهم الأقرباء، ولكن تظهر هذه الصفات في الأجيال التالية، ولذلك نجد الطب الحديث يبحث في الأمراض عما إذا كان المرض موجوداً في العائلة أو قد وجد في جيل سابق، كما أن العلم يقول: إن الأبناء يرثون الاستعداد للشيء كالاستعداد للنبوغ أو الغباء أو الإصابة بأمراض معينة أو الانحرافات

الخلقية وما إلى ذلك، وهنا يظهر دور البيئة في نمو تلك الاستعدادات.

والبيئة تطلَق على ما يحيط بالإنسان من أناس وبحار وبلاد وأرض وأجواء، وكما أن النبات لا يعيش وينمو ويثمر إلا إذا وجد التربة الصالحة والماء والهواء والضوء، فكذلك الإنسان في جانبه المادي يتأثر بالناحية الجغرافية في البيئة من بحار وأنهار وأجواء وطبيعة وجبال وهضاب وغير ذلك، كما يتأثر بذلك في جانبه العقلي. أما بيئة الإنسان الخاصة فهي المنزل والمسجد والمدرسة ودينه ومعتقداته ولغته وتراثه وما إلى ذلك.

ما أثر ذلك كله في التربية بعامة والتربية الإسلامية بخاصة؟

إن الإنسان إذا نشأ في بيئة صالحة وأسرة متدينة ومدرسة راقية ورفقة صالحة وأمة خيرة ونظام سياسي عادل وتربية ممتازة؛ كان الشخص المثالي الذي تهدف التربية إلى إيجاده. أما إذا وُجد في بيئة سيئة، وأسرة منحلة، ورفقة سيئة، وأمة شريرة، ونظام سياسي جائر، وحاكم طاغ متجبر، وأنظمة بشرية فاشلة، وتربية لا تقوم على أساس؛ فإن النتائج أفراد فاشلون، وذلك مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿والبلدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نباتُه بإذنِ رَبِّه والذي خَبُثَ لا يَخرجُ إلا نَكِداً﴾ [الأعراف: ٥٨].

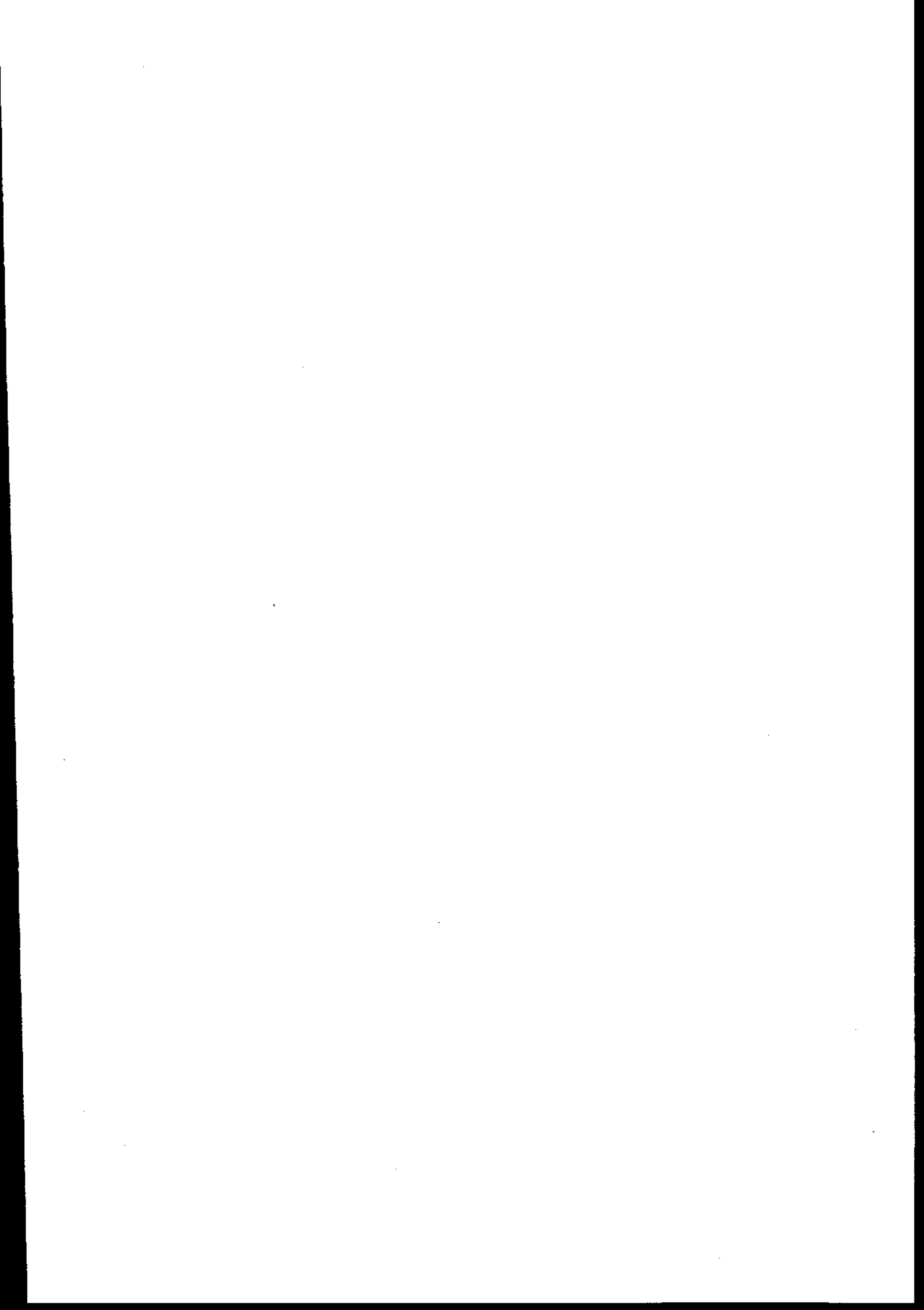
وقد أثبت علماء الوراثة أن الصفات الجسمية والخلقية والعقلية لدى الآباء تكون استعداداً لدى الأبناء بما في آبائهم، والقرآن يحدثنا أن أبناء الزناة يحملون استعداداً وراثياً للزنا من آبائهم، ولذلك عبّر عنه القرآن بقوله: ﴿ولا تَقْرَبُوا الزِّنا إنه كانَ فاحِشةً وساءَ سبيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]. كما أن الأمراض الناشئة عن الزنا مثل السيلان والزهري قد تنتقل كاستعدادات وراثية لدى الأطفال، والرسول ﷺ يقول محذِّراً المهاجرين من خمس خصال ذكر منها «ولم تظهر الفاحشةُ في قوم قط يُعمل بها علانية إلا فشا فيهم الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تكن في أسلافهم»[1].

(١) رواه ابن ماجه والبزار والبيهقي.

وقد أثبتت الدراسات لحالات المجرمين في جرائم مختلفة علاقةً بين المجرم ومن مارس في قرابته نفس الجريمة التي ارتكبها، فلذلك يرى بعض العلماء أن الزواج بين أبناء السكيرين أو المصابين بالأمراض جريمةٌ، لأن الأبناء يرثون الاستعداد لذلك. وقد سبق أن ذكرنا استنكار بني إسرائيل للسيدة مريم ذات السلالة الطاهرة النقية كيف أنجبت سيدنا عيسى من الزنا بدعواهم ﴿يا مريمُ لقد جِئْتِ شَيئاً فَرِياً يا أُخْتَ هارونَ ما كانَ أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ [مريم: ٢٨].

وبعض العلماء يرى أن الإجرام ليس وراثياً إنما هو أثر من آثار البيئة على الإنسان، فإذا أُخذ الأولاد من الآباء السيئين ونشؤوا في بيئة طيبة نشؤوا عكس آبائهم.

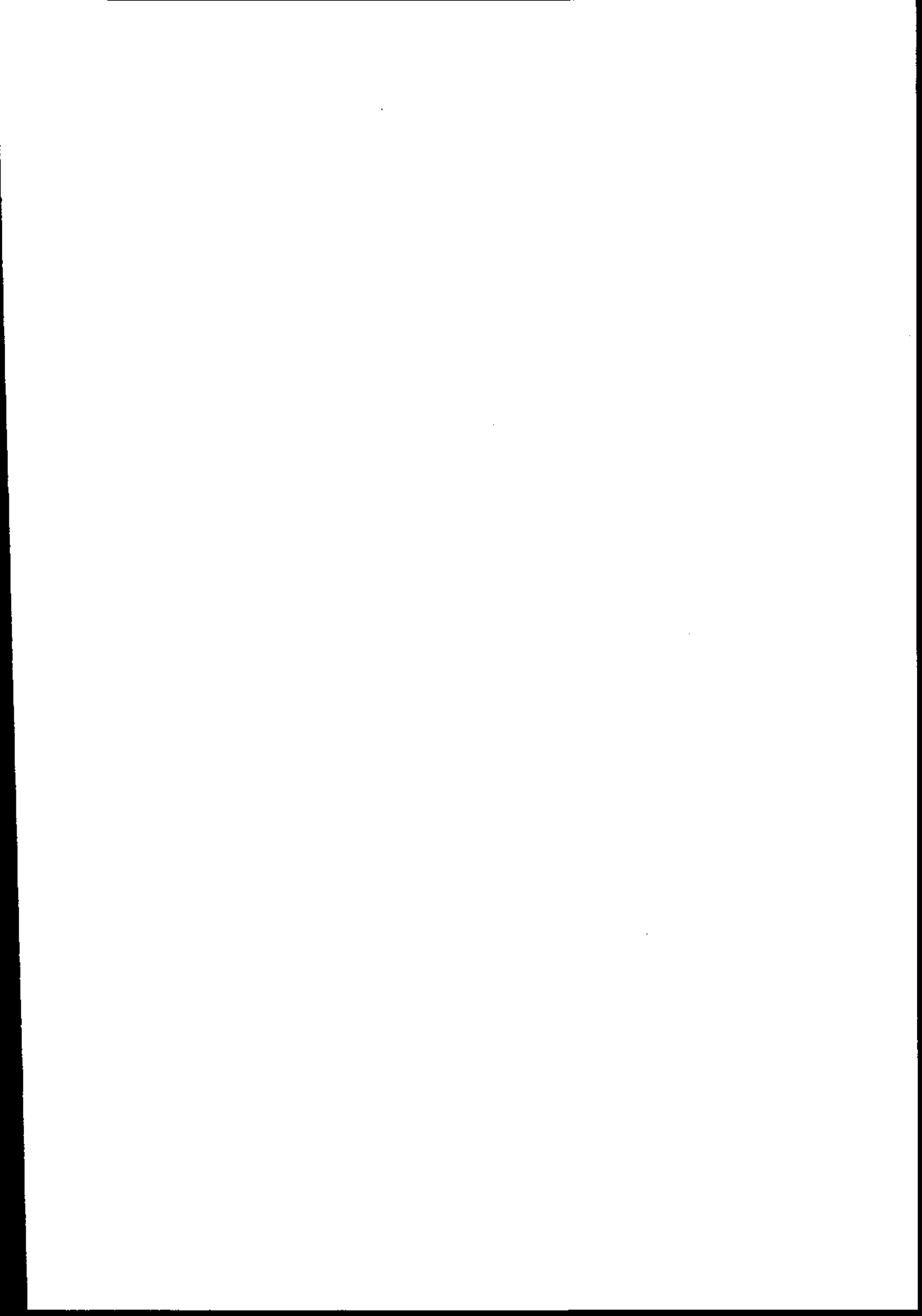
إن أهمية البيئة والوراثة كوسائل تربوية، وإن دراستهما ومعرفة حدودهما ومدى تأثيرهما في الإنسان؛ يجعل التربية مبنيةً على أسس علمية باعتبار كل منهما عاملاً مكوناً للعقل والجسم والخلق مع الآخر بدرجة تجعل من الصعب إعطاء دور كل منهما - كما يفعل البعض - نسبة معينة ثابتة. فإذا لم توجد البيئة الصالحة للعبقري فإن عبقريته تموت وتندثر، كما أن البيئة الراقية لا تلد العباقرة والفلاسفة، وإنما بوجود العبقري في البيئة الصالحة يكون انتفاع الأمة بأبنائها والأبناء بإمكاناتهم ومواهبهم.



الفصل الثامن

وسائل التَّربية في الإسلام

١ ـ الوسائل الذاتية.
٢ ـ الوسائل الاجتماعيَّة.
٣ ـ الوسائل العاطفيَّة.
٤ ـ الوسائل العقليَّة.



وسائل التربية في الإسلام

الوسائل هي الأدوات التي نحقق بها أهدافنا وغاياتنا في الحياة، وإذا كانت الأهداف والغايات سامية فلا بد أن تكون الوسائل الموصلة إليها سامية أيضاً وشريفة، لأن الغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة. فالأهداف الشريفة هي التي تكون وسائلها شريفة، لأن الفصل بين الأهداف والغايات صعب لتداخلهما، ولأن الوسيلة قد تكون هدفاً في ذاتها ووسيلة لغيرها. والوسيلة هي التي يُتوصل بها إلى تحصيل المقصود كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذِينَ آمَنوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إليه الوَسِيلةَ وجَاهِدوا في سبيلِهِ لعلّكم تُفْلِحونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وابتغاء الوسيلة كما قال قتادة: التقرب إليه بطاعته والعمل بما يرضيه[١] ﴿أولئكَ الذِينَ يدعون يبتغونَ إلى رَبِّهِم الوسيلةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وكذلك يقول الله تعالى في حديثه القدسي الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه»[٢].

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥١.

(٢) رواه البخاري - رياض الصالحين ص ١٨٦.

وقد تتخذ عدة وسائل لغاية واحدة حتى إذا لم تفد الوسيلة الواحدة لجأ الإنسان إلى الأخرى بطريق التدرج كما في آية النشوز ﴿واللاتي تَخافونَ نُشوزَهُنَّ فَعِظوهُنّ وَاهْجُروهُنّ في المضاجِعِ وَاضْرِبوهُنّ فإن أطَعْنَكم فلا تَبْغُوا عليهِنّ سَبيلاً﴾ [النساء: ٣٤].

كما دعا الإسلام إلى اتخاذ الوسائل الطيبة للسلوك غير الحسن، ولمواجهة الشر ﴿ولا تَسْتَوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادْفَعْ بالتي هيَ أحسنُ، فإذا الذي بينكَ وبينَه عداوةٌ كأنّه وليٌّ حميمٌ وما يُلَقّاها إلا الذينَ صَبَروا وما يُلَقّاها إلا ذو حَظٍّ عظيم﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٥].

وقد يكون الهدف المطلوب من الواجبات الأمر الذي يجعل الوسائل أيضاً في درجتها ولذلك رأى العلماء أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب أيضاً.

لذلك كله اختلفت وسائل التربية وتعددت فيما سنفصله الآن..

أولاً : الوسائل الذاتية

تقتضي التربية الذاتية للإنسان نوعاً من الوعي الفكري والمعرفة بأهمية القواعد الصحية والأخلاقية والجسمية في استمرارية التربية التي يحتاج الإنسان إليها مدى الحياة. وأول وسائل التربية الذاتية مراقبة الإنسان لنفسه وجعل ضميره حياً يقظاً متحركاً. وهذه الوسيلة داخلية تحدثنا عنها في حديثنا عن القلب وتوجيه الرسول ﷺ للإنسان أن يستفتيَ نفسَه؛ فما اطمأنت نفسُه إليه كان حسناً، وما حاك في الصدر تجنبه. والضابط لهذا الاستفتاء القلبي أن يكون القلب يقظاً على صلة بالله دائماً بالعبادة والدعاء والاستعانة على الخير والاستنجاد من الشر، كما كان الرسول ﷺ يفعل دائماً في دعائه المستمر في كل حركة من حركاته.

كما أن الالتزام بالفضائل يجعل المرء قوي الصلة بالله، ويرى بعض العلماء أن من وسائل التربية الذاتية أن يتخذ الإنسان لنفسه شيخاً يعينه على التربية وينصحه ويوجهه، ولا يشترط الاتصال المباشر، بل قد يكون عن طريق الاطلاع على مؤلفاته، وإن كانت العلاقة الشخصية هي المطلوبة عملاً بقوله تعالى ﴿فَاسْأَلوا أهلَ الذكرِ إن كنتم لا تَعلمونَ﴾ [النحل:٤٣]. ونسبة لتعذر الملازمة للشيوخ الناصحين في الدين المشتغلين بتهذيب العباد، فإن التجارب الشخصية النابعة من مخالطة الناس تساعد على تربية النفس، لأن المؤمن مرآة أخيه فإذا علم صفات سيئة في الناس اتفقوا على سوئها وكراهتها؛ أبعد نفسه عنها، كما أن قوة

والعزم على فعل الخير وممارسته من الوسائل التي تدفع الإنسان سير في طريق الخير، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «إن أحب الأعمال الله أدومها وإن قلت»[1]. والإيمان بالله الذي يصدر عنه الفعل من إحساس بالواجب وحب للفضائل وترك للرذائل، من وسائل تربية النفس والذي يساعد على ذلك كله أن تكون صحبة الإنسان للأخيار من الناس.

ولذلك يرى الغزالي أن تزكية النفس تتم بأمرين: الأول ـ الابتعاد عن المعاصي ثم ممارسة الطاعات والعبادات.

وتجري عملية التزكية باتخاذ الوسائل السابقة في الارتقاء بالنفس من النفس الأمارة بالسوء إلى النفس اللوامة، التي تستقبح المعصية وتلوم صاحبها بعد أن كانت لا تحدثه إلا بالسوء ولا تأمره إلا بالمعصية، ثم ترتفع النفس إلى مقام الملهمة التي ألهمها الله الخير والشر ﴿ونَفْسٍ وما سَوّاها فألهمَها فُجُورَها وتقواها﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨]. ثم ترتفع درجة إلى مستوى النفس المطمئنة الراضية بقضاء الله وقدره، ثم كانت نفساً راضية باطمئنانها ﴿يا أيّتها النفسُ المطمئنّة ارْجِعي إلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيّةً فَادْخُلي في عِبادِي وَادْخُلي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠] فهي قد دخلت أخيراً في زمرة العباد الذين قال الله عنهم: ﴿إنّ عِبادِي ليسَ لكَ عَليهم سلطانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

والإنسان بتزكيته لنفسه يحرر نفسه من الخضوع للشهوات والرغبات ويرتقي إلى مقام العبودية للّه.

(١) رواه البخاري ومسلم.

ثانياً: الوسائـل الاجتماعيـة

وتتمثل في:

١ ـ الرفقة الصالحة:

الإنسان بطبيعته متأثر بغيره آخذ عنه سواء أحسّ بذلك أم لم يحسّ، خاصة في مراحل الصبا. فالرفقة الصالحة وهم الذين يسمون: (بشلة الرفاق) هم من وسائل التربية الأخلاقية والنفسية والعقلية للناشئة، وواجب الآباء أن ينتقوا لأبنائهم هذه الرفقة بطريقة غير مباشرة من أصدقائهم الصالحين، لأن صداقة الآباء تقتضي الزيارة والخروج في رحلات تعمق الصلات بين الأبناء وعن ذلك يقول ابن سينا: (أن يكون الصبي في مكتبه مع صبية حسنة آدابهم، مرضية عاداتهم، لأن الصبي عن الصبي ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس)[1].

والرسول ﷺ يقول: «المرء على دين خليله فلينـظر أحدكم من يخالل»[2] وعن تأثير الصحبة في الإنسان ذلك الحديث الذي سبق أن ذكرناه عن الجليس الصالح والجليس السوء والمقارنة بينهما، وقد بيّن الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم نتيجة مصاحبة الأشرار وتخلي بعضهم عن بعض واتهام كل للآخر بأنه سبب ضلاله وكفره فالشيطان يقول: ﴿رَبَّنا

---

(١) الأبراشي التربية الإسلامية ص ٢٣٠.

(٢) رواه الترمذي.

ما أطغَيْتُه ولكنْ كانَ في ضلالٍ بعيد﴾ [ق:٢٧] ويقول: ﴿ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يَدَيْهِ يَقولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرسولِ سبيلاً يا وَيْلَتا لَيْتَنِي لم أتّخِذ فُلاناً خليلاً لقد أضَلّنِي عَنِ الذكرِ بعدَ إذ جاءَني، وكانَ الشيطانُ للإنسان خَذُولا﴾ [الفرقان: ٢٨ ـ ٣٠] ويحذر الله سبحانه من شياطين الجن وشياطين الإنس من الرفاق وأصحاب السوء لأنهم يوحون إلى بعضهم زخرف القول غروراً..

إن على الآباء أن يراقبوا أبناءهم وأن يوجهوهم من غير إشعارهم بذلك، لأن الأوامر والنواهي ومنع الأطفال من مصاحبة من في سنهم يؤدي إلى نتائج غير كريمة، وعلينا أن نشجعهم على صحبة من نعجَب بسلوكه من أصدقاء حيِّه أو دراسته، وأن ننبهه إلى عدم مصاحبة من نرى اعوجاجاً في سلوكه مع إقناعه بذلك عن طريق الواقع والمنطق، ويقول الغزالي (ويُمنع الطفل من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والشتم، وعن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك، فإن ذلك يسري لا محالة من قرناء السوء. وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء)[١].

٢ ـ القدوة الحسنة:

ينشأ الطفل فيجد أمامه شخصية والده تؤثر فيه وتثير عواطفه، ثم يجد شخصية المربي الذي يعجب به الطفل ويتأثر بأفكاره ومعلوماته، لذلك كان واجب الآباء والمربين أن يقدموا النموذج الطيب والأسوة الحسنة أمام الأطفال الذين يتعلقون بشخصياتهم، ويدفعونهم إلى السلوك الطيب عن طريق التأثير فيهم، فكلاهما يمثل بالنسبة للطفل القيم السامية والعواطف الطيبة، الأمر الذي يجعل دورهما في حياة الطفل كبيراً. فإذا تمثلت فيهما معاني الشجاعة والعفة والكرم والمروءة والصدق والأمانة قولاً وفعلاً، نشأ الأولاد على ذلك، أما إذا وجد ذلك في أقوالهم ودعوتهم

(١) الإحياء ج ٣ ص ٧٣.

لهم من غير أن يتمثلوه في حياتهم، نشأ الطفل على عكس تلك الفضائل وفقد الثقة في سلوك أحب الناس إليه ومثله الأعلى في الحياة.

ولذلك حذّر الله سبحانه وتعالى من أن يأمر الناسَ بالبر من ينسون أنفسهم، وأن يقولوا ما لا يفعلون. وقد توعد الرسول ﷺ هذا النوع بعذاب أليم يوم القيامة حيث يسأله الناس: ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتناهانا عن المنكر؟ فيجيب بأنه كان يأمر بالمعروف ولا يأتيه، وينهى عن المنكر ويأتيه.

والقرآن يخبرنا بأن الرسول ﷺ الذي اتصف بأعلى الكمالات وأنبل الصفات التي عرفتها البشرية هو قدوة حسنة للبشر قاطبة خُلُقُه القرآن ومؤدِّبه ومربِّيه رب العالمين ﴿لقد كانَ لكم في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ولأن التربية تحتاج إلى القدوة العليا التي يقاس عليها فإن الله سبحانه جعل نبينا محمداً ﷺ النموذج الذي يهتدي به الناس والسراج الذي يضيئون به حياتهم، إن أطاعه الناس اهتدوا، وإن خالفوه ضلوا ﴿وإن تُطِيعوه تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، وسيرة الرسول ﷺ مثال للقدوة النادرة في الجاهلية والإسلام في مجال الكرم والتواضع والحلم والشجاعة والقوة والثبات على الحق والصبر والجهاد والإيثار. فقد كان الرسول ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة وكان أجود ما يكون في رمضان، وكان أزهد الناس فهو لم يشبع ثلاثة أيام تباعاً، وكان أكثر الناس تواضعاً: يأكل من عمل يده، ويجيب دعوة من دعاه، يجلس حيث ينتهي بأصحابه المجلس، يرقع ثوبه ويخيط نعله، يحلم عن المسيء ويعفو ويصفح بما لم يحدث في التاريخ حين قال لقريش: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وكان أشجع الناس وأقواهم يتقي به أصحابه إذا حمي الوطيس واحمرّت الحِدق، ثبت على مبدئه حين عرضت قريش على عمه ما عرضت. ولذلك كله ولغير ذلك كان الرسول ﷺ القدوة الأولى للمربين والمتربين، كما كان أصحابه الأجلاء رضي الله عنهم القدوة بعده في الصفات السابقة، لذلك دعا رسول الله ﷺ إلى التأسي بهم «أصحابي كالنجوم بأيِّهم اقتديتم اهتديتم» وقد

كانوا كما قال عنهم عبد الله بن مسعود: أبرُّ الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلّها تكلفاً وأقومها هدياً وأحسنها حالاً.

إن الطفل يكون أكثر الناس حاجة إلى القدوة الحسنة في حياته الأولى، الأمر الذي يضع على كاهل المحيطين به عبئاً كبيراً، فالطفل يعتقد أن ما يفعله والده ومدرسه هو الحسن والخير، وأن ما يتركه الوالد والمدرس هو القبيح والشر، والطفل مطبوع في هذه المرحلة على المحاكاة والتقليد وتنطبع في نفوسهم كل الصفات التي كانت سلوكاً لأسوتهم.

وليس معنى هذا اقتصار القدوة في السلوك على الآباء والمربين، إنما تتمثل القدوة في المجتمع كله بمؤسساته، البيت والمدرسة والمسجد ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، فإذا وجد في قطاعات المجتمع القدوة الصالحة، كانت التربية ناجحة، لأن الطفل لا يحس بالتناقض في الأخلاقيات أو التباعد في السلوك بين أنشطة المجتمع الموجهة.

إن القدوة الحسنة من الآباء والمربين ومؤسسات المجتمع من أهم العوامل المؤثرة في التربية والهادية إلى الخير والمهيئة للفرد النافع للمجتمع والحياة.

ثالثاً: الوسائل العاطفية

عرّف بعض الدارسين العاطفة بأنها (عبارة تركيبية انفعالية تجمع بعض الانفعالات الموجودة أصلاً في نفس الفرد، هذه الانفعالات تنتظم فيما بينها ثم تدخل في تركيب جديد، لم يكن موجوداً من قبل. إن هذه التراكيب أو المجاميع الجديدة تكسب الحياة الانفعالية المتقلبة قدراً من الانسجام، وقد تتجمع من جديد في مجاميع أوسع وهذه بدورها حين تتجمع ثانية في نظام واحد شامل متناسق، تكوّن ما نسميه بالشخصية. إن العواطف الثابتة تعطي الحياة الوجدانية نظاماً واتساقاً نحو أهداف بالذات، وإن عاطفة قوية كافية لتجديد نشاط الفرد واتجاهه في حياته. فالعواطف تلعب دوراً هاماً في حياة الإنسان وهي مصدر معظم دوافعنا وجهودنا)[1].

ولذلك كانت العواطف وتكوينها في الإنسان من أهم ما اهتم به المربون، فالحب والكراهية يكونان عناصر العاطفة في الإنسان، ومهمة التربية عاطفياً هي توجيه عاطفة الحب إلى أنواع الفضائل والسلوك المراد غرسها في النفوس، وتوجيه عاطفة الكراهية إلى أنواع الرذائل والسلوك المراد إبعاد النفوس عنها، كما أن الرغبة عاطفة تبعث على الحب، والرهبة عاطفة تبعث على الكراهية، فإن دورهما في التربية كبير.

ولذلك ركز القرآن الكريم على مخاطبة العواطف الإنسانية في

(١) د. مصطفى فهمي ـ الصحة النفسية ص ٣٨.

جانبيها الإيجابي والسلبي إذ أن الجانب الإيجابي يمثل العواطف الخيرة، بينما السلبي يمثل العواطف الشريرة.

فمن الجانب الإيجابي: حديث القرآن عن الضعفاء والمساكين وأهمية العطف عليهم ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوَى وَوَجَدَكَ ضالاًّ فَهَدَى وَوَجَدَكَ عائلاً فَأَغْنَى فأما اليتيمَ فلا تَقْهَرْ وأما السائِلَ فلا تَنْهَرْ وأما بنعمةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٦ ـ ١١]، ومنه الحض على العفو والتسامح والصفح مع القدرة، والأمثلة كثيرة في القرآن ومنه العطف على الوالدين ﴿إما يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أحدُهما أو كِلاهُما فلا تَقُلْ لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُلْ لهما قَوْلاً كريماً وَاخْفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ مِن الرَّحْمَةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهما كما رَبَّيَاني صَغيراً﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤]، والآيات كثيرة في ذلك ومنه أيضاً أحاديث الجهاد والتحكم في الانفعالات والإخلاص والتفاني في سبيل الله والجماعة وما إلى ذلك من العواطف الإنسانية السامية التي تعالج جوانب الروح والأخلاق والسلوك.

أما الجانب السلبي: الذي يعالج العواطف المنحرفة المتصلة بالسلوك والأخلاق فكثير أيضاً، مثل ذم الرذائل والموبقات والشح والبخل والنفاق والحقد والغرور والكراهية والطمع والجشع وحب المال والدنيا والأثرة والأنانية وغيرها من جوانب السلوك غير الإنساني وغير الأخلاقي، والتي تدل على جوانب نقص في الشخصية وقصور في النضج السلوكي والأخلاقي.

إن العاطفة وسيلة تربوية فعالة عندما تكون وسائط التربية كلها نماذج حية طيبة للعواطف السامية والأخلاق النبيلة، ولأن الطفل يعيش في حياته الأولى على الاقتناع بالأشياء المحسّة المشاهدة، فإن تكوين عاطفة الحب للفضائل أو الرذائل لا يكون بالدروس المجردة إنما بالثناء على كل عمل طيب يأتيه والمكافأة عليه، والاستنكار لكل رذيلة يأتيها أو يشاهدها والعقاب عليها. فإذا وصل الطفل إلى مرحلة فهم المجردات كان الاهتمام

بالمثل العليا والعواطف السامية وتكوين الاتجاهات الطيبة نحوها. ولذلك ركزت التربية الإسلامية في تكوين هذه العواطف على محبة الله والارتباط به وحبه للمتقين والمحسنين وكراهيته للعصاة والظالمين، ولذلك استعمل القرآن والسنة عدة أساليب في ذلك منها:

١ - القصص والتاريخ:

(والقرآن يستخدم القصص لجميع أنواع التربية والتوجيه التي يشملها منهجه التربوي: تربية الروح، وتربية العقل، وتربية الجسم، والتوقيع على الخطوط المتقابلة في النفس، والتربية بالقدوة والتربية بالموعظة)[1].

والقصة لها تأثير كبير في نفوس الصغار والكبار ولها القدرة على إثارة العواطف والانفعالات والإقناع الواقعي والعقلي والتوجيه نحو التفكير والتأمل، فالله سبحانه وتعالى استعمل القصة في القرآن كثيراً ليتعظ الناس منها، وليثبِّتَ الرسول ﷺ ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عليكَ مِن أنباءِ الرسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فؤادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. ﴿لقد كانَ في قَصَصِهم عِبرةٌ لأولي الألباب﴾ [يوسف: ١١١] وهي كما أنها للعبرة تدعو إلى التفكير ﴿فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعلّهم يتفكّرون﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وقد أورد القرآن قصص الأنبياء لبيان الحق والباطل وموقف البشر من أنبيائهم والمكذبين بالرسالات والرسل، وقصة البشرية ممثلة في قصة آدم، وقصصاً تمثل النفس الإنسانية في حالاتها المختلفة من الضعف والقوة والرغبة والرهبة والعدل والظلم والإيثار للحق والتمسك بالعفة. وتهدف هذه القصص كلها من الناحية التربوية إلى:

١ - حال البشرية وموقفها من الرسالات والرسل وفيها عظة وعبرة للناس وتقوية وتثبيت للرسل.

٢ - وجوب إيثار الحق على الباطل مهما عظم وتجبر وتوعد واللجوء إلى

(١) محمد قطب منهج التربية الإسلامية ص ٢٢٩.

الله، كما في قصة أصحاب موسى.

٣ - نموذج للشباب في العفة والتمسك بها ومراقبة الله والصمود أمام الشهوات والرغبات كما في قصة يوسف وقصة آدم.

٤ - نماذج من لحظات الضعف البشري حينما يستسلم لها الإنسان وينسى، كما في قصة آدم أيضاً وفتنة سليمان وداود.

٥ - أسباب زوال الأمم وزوال الحضارات والمدنيات وهي الظلم والفساد والتجبر والطغيان وغيرها، كما في قصص قوم لوط وثمود وإبراهيم وأصحاب مدين وغيرهم من الأمم التي ذهبت لتَحلل أخلاقها وانحرافها عن جادة الطريق.

٢ - الترغيب والترهيب: المثوبة والعقوبة:

عواطف البشر نحو الفضيلة والرذيلة مرتبطة بالترغيب والترهيب، فتوجيه الإنسان نحو حب الفضيلة خير تتحقق به سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، والرذيلة شر يؤدي إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، والمثوبة والعقوبة وسيلتان للترغيب والترهيب. فإذا اقترن فعل الفضيلة في ذهن الطفل بالمثوبة وإدخال الفرح والسرور في نفسه مادياً أو معنوياً، نشأ على حب الفضيلة، كما أن ارتباط الرذيلة بالعقوبة والحرمان والتأنيب وعدم الرضا، ينشئه على كراهية الرذيلة.

ولذلك يرى علماء النفس أن توفر عامل الجزاء مهم لأن الإنسان لا يكرر الاستجابات التي لا تؤدي إلى نوع من الترضية أو الجزاء أو الإشباع، وكلما كان الجزاء واضحاً دفع الإنسان إلى الحركة والنشاط وإشباع الدافع.

وعن أسلوب الثواب والعقاب يقول الغزالي: (إذا ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فإنه ينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه مما يفرح به، ويمدح أمام الناس لتشجيعه على الأخلاق الكريمة والأفعال الحميدة، وإذا حدث منه ما يخالف ذلك، وستره الصبي واجتهد في إخفائه؛ تغافل

عنه المربي وتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً عما فعل حتى لا يخجله، فإن عاد ثانية إلى الخطأ عوقب سراً وبين له نتيجة خطئه، وأُرشد إلى الصواب وحُذِّر من العودة إلى مثل هذا الخطأ، خوفاً من أن يفتضح أمره بين الناس)[1].

فالغزالي يسبق علماء النفس التربويين في أنه لا بد من التدرج في الجزاء، وأن هناك جزاءً ثانوياً يتمثل في التشجيع والمكافأة والعتاب والتحذير والإرشاد باللين إلى الخطأ، هذا الجزاء له أثره الكبير في التربية والتعلم ولا يترك آثاراً سلبية كما في الجزاء الأول.

وفي تأييد هذه النظرية في المثوبة والعقوبة يقول ابن سينا: (إنه من الضروري البدء بتهذيب الطفل، وتعويده ممدوح الخصال منذ الفطام، قبل أن ترسخ فيه العادات المذمومة التي يصعب إزالتها إذا ما تمكنت في نفس الطفل، أما إذا اقتضت الضرورة الالتجاء إلى العقاب فإنه ينبغي مراعاة منتهى الحيطة والحذر، فلا يؤخذ الوليد أولاً بالعنف وإنما بالتلطف، ثم تمزج الرغبة بالرهبة والمثوبة والعقوبة والنصح والتهديد، ولأنها وسيلة أقرب إلى عقلية الصغار وتجاربهم وخبراتهم المحدودة، ولذلك استعملها لقمان مع ابنه كما حكى القرآن ﴿وإذ قالَ لقمانُ لابنِهِ وهوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ، وَوَصَّيْنا الإنسانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ وفِصالُهُ في عامَيْنِ أنِ اشْكُرْ لي ولوالدَيْكَ إليَّ المصِيرُ، وإن جاهدَاكَ على أنْ تُشْرِكَ بي ما ليسَ لكَ بهِ عِلمٌ فلا تُطِعْهما وصاحِبْهما في الدنيا معروفاً واتَّبِعْ سبيلَ مَن أنابَ إليّ ثمّ إليّ مَرْجِعُكم فأُنَبِّئُكم بما كنتم تَعملون. يا بُنَيَّ إنها إنْ تَكُ مِثقالَ حبةٍ مِن خَرْدَلٍ فَتَكُنْ في صخرةٍ أو في السماواتِ أو في الأرضِ يأتِ بها اللهُ إن اللهَ لَطيفٌ خبيرٌ. يا بُنيَّ أقِم الصلاةَ وَأْمُرْ بالمعروفِ وَانْهَ عنِ المنكرِ وَاصْبِرْ على ما أصابَكَ إنّ ذلكَ مِن عزمِ

(١) الإحياء ج ٦٣/٣.

الأمورِ، ولا تصعِّر خَدَّكَ للناس ولا تمش في الأرض مَرَحاً إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ، وَاقْصِدْ في مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إنّ أنكرَ الأصواتِ لَصوتُ الحميرِ﴾ [لقمان: ١٣ ـ ١٩].

وتارة يستخدم العبوس، أو ما يستدعيه التأنيب، وتارة يكون المديح والتشجيع أجدى من التأنيب، وذلك وفق كل حالة خاصة، ولكن إذا أصبح من الضروري الالتجاء إلى الضرب، ينبغي ألا يتردد المربي على أن تكون الضربات الأولى موجعة فإن الصبي يعد الضربات كلها هينة، وينظر إلى العقاب نظرة استخفاف، ولكن الالتجاء إلى الضرب لا يكون إلا بعد التهديد والوعيد وتوسط الشفعاء، لإحداث الأثر المطلوب في نفس الطفل).

فالمثوبة والعقوبة وسيلتان ناجحتان في تكوين عاطفة الرغبة والرهبة إزاء الفضائل والرذائل، سواء أكانت المثوبة والعقوبة ماديتين أو أدبيتين، كما أن الترغيب والترهيب وسيلتان تربويتان تدفعان الفرد إلى أنماط من السلوك اعتمد عليهما القرآن والسنة في دفع الناس إلى تطبيق كثير من التعاليم الإسلامية. ولذلك دعا الإسلام إلى تخيّر الصحبة والإكثار من ذكر الله والعبادات بأنواعها، لما لها من نتائج ترغِّب في ممارساتها وحذّر من المعصية والبعد عن الله، لما لها من نتائج ترهِّب الممارس لها، والترغيب والترهيب من المراحل الأولية في تزكية النفس وتهذيبها، إذ الخوف من المعصية بما يترتب عليها من عذاب وعقاب من الله تكون البداية، ثم تتعود النفس عن طريق الممارسة حتى تصل إلى درجة الابتعاد من المعصية لقبحها، كما أن حب الفضيلة والاستقامة والطاعة تكون لما يترتب عليهما من جزاء حسن ومثوبة عند الله حتى يصل المرء إلى درجة الإحسان وحب الفضائل لذاتها. ومثل هذا يصل إلى درجة من يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سِواهما.

٣ ـ الموعظة الحسنة:

للموعظة الحسنة تأثير عاطفي كبير في الإنسان لما لها من نفاذ إلى

القلوب وإصغاء من الوجدان وسيطرة على المشاعر، خاصة إذا كانت في بيئة صالحة وقدوة محترمة معايشة، ولما للموعظة من أثر فإن القرآن اتخذها أسلوباً في مخاطبة الكبار والصغار، أما الصغار فلأن الموعظة تجد عندهم انتباهاً وتركيزاً واهتماماً إذا رُبطت بالترغيب والترهيب.

والموعظة للكبار أيضاً في مناسبات يحتاجون إليها خاصة إذا كان الأمر متعلقاً بالعقيدة ﴿قُلْ إنما أعِظُكم بواحدةٍ أن تَقُوموا للّهِ مَثنى وفُرادَى ثم تتفكّروا ما بِصاحِبكم مِن جِنّةٍ إن هو إلا نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد﴾ [سبأ: ٤٦].

وقد يعتاد الكبار على الموعظة المباشرة فيملّونها ولا يستمعون إليها أو لا تترك الأثر العاطفي عندهم. وقد ذكر أصحاب رسول الله ﷺ أنه كان يتخوّلهم بالموعظة أي يعظهم فترة بعد أخرى، ولذلك استعمل القرآن أساليب كثيرة متعددة للوعظ، فالقرآن كله هدى وموعظة للناس ﴿هَذا بيانٌ للناسِ وهُدىً وموعظةٌ للمتّقين﴾ [آل عمران: ١٣٨] والموعظة وسيلة من وسائلِ الدعوة إلى الله ﴿ادْعُ إلى سبيلِ رَبِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولا يستفيد بالموعظة إلا المؤمن الكامل الإيمان ﴿ذلكم يُوعَظُ بهِ مَن كانَ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢].

وقد تميّز أسلوب القرآن في المواعظ بعدة أساليب منها:

١ ـ النداء الإقناعي مصحوباً بالاستعطاف والاستنكار[1] مثل ﴿يا بُنَيَّ﴾ ﴿يا مريمُ﴾ ﴿يا نساءَ النبيِّ﴾ ﴿يا قومَنا أجِيبوا﴾ ﴿يا أيها الذِينَ آمَنوا﴾ ﴿يا أهلَ الكتابِ﴾ ﴿يا أيها الناسُ﴾.
٢ ـ الأسلوب القصصي مصحوباً بالعبرة والموعظة كما في قصص الأنبياء وغيرها من قصص القرى والأمم.

(١) يراجع كتاب عبد الله علوان، تربية الأولاد في الإسلام ص٧٣ وما بعدها.

٣ ـ التوجيه القرآني مصحوباً بالوصايا والمواعظ والأوامر والتوجيهات والنواهي وغيرها مما هو كثير في القرآن. والموعظة كما يقول الأستاذ محمد قطب درجات تتفاوت بدرجات الناس، فهناك من تنفع معه الإشارة البعيدة، ومن لا يصلح معه إلا الغضب والتهديد، ومن يكفيه التهديد بالعذاب[1].

(١) راجع محمد قطب ـ منهج التربية الإسلامية ص ٢٣٦.

رابعاً: الوسائل العقلية

لم تعتمد التربية في الإسلام على الوسائل العاطفية أو الوجدانية أو الاجتماعية، وإنما اعتمدت أيضاً على الوسائل العقلية باعتبار العقل من النعم التي أنعم الله بها على الإنسان وميّزه به عن الحيوان. ويمكننا أن نلمح هذه الوسائل في جوانب كثيرة منها:

١ - **التربية الفكرية**: والتربية الفكرية تهدف إلى إخضاع العقل للتدريب والتمرين حتى تقوي فيه ملكة التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال والرؤية الصادقة والبصيرة النافذة. ويمكن تدريب العقل بتقديم الحقائق العلمية على أساس أهميتها في الحياة وتقييمها للسلوك واستعمالها في طريق الخير، والتفاعل معها بحيث تكون جزءاً من حياة الشخص، ثم تجربة تلك الحقائق مع واقع الحياة ليرى مدى فائدة الحقائق العلمية إذا ما استعملت في حياة الإنسان.

وأهمية التربية الفكرية أنها تزيد من قدرات الفرد على الإدراك والتكيّف وتقبّل الحقائق والقيام بالواجبات، كما أنها تهيىء مجالاً لنمو الذكاء وارتفاع معدلاته بحيث أن الشخص الذكي يكون أقل عرضة للمشكلات التي تدفع إلى الانحراف أو الجريمة، لأن قوة عقله تنبهه إلى الطريق القويمة والنتائج المترتبة على الانحراف السلوكي.

وعن طريق التربية الفكرية تحصل القناعة التي تجعل الفرد متمسكاً

بالخير لأنه خير ومبتعداً عن الشر لأنه شر، وأنه لا تعارض بين ما يقرره المنطق والعقل وما يطالب به المرء دينياً من الالتزام بسلوك أخلاقي ثابت ومعروف في حياته.

٢ - **تكوين البصيرة**: يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لقد مَنّ اللهُ على المؤمِنينَ إذ بعثَ فيهم رسولاً مِن أنفسِهم، يَتلو عليهم آياتِهِ وَيُزَكّيهم ويعلِّمُهمُ الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا مِن قبلُ لَفي ضلالٍ مُبين﴾ [آل عمران: ١٦٤]. والعلاقة وثيقة بين الحكمة والبصيرة فكِلاهما من أعمال القلب والعقل، وقد وصف الله سبحانه وتعالى الإنسان بأنه على نفسه بصير، والبصيرة هي القدرة على النفاذ إلى الأشياء ومعرفتها وحسن تقديرها والقدرة على التصرف فيها. ولما بين البصيرة والحكمة من علاقة قوية دعا الله سبحانه إلى اتخاذهما وسيلتين في الدعوة إليه فقال: ﴿ادْعُ إلى سبيلِ رَبِّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ﴾ [النحل: ١٢٥] كما قال: ﴿قُلْ هذه سَبيلي أدعو إلى اللهِ على بصيرةٍ أنا وَمَن اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

ومن هنا فإن تكوين البصيرة في قلب المؤمن غاية من غايات التربية ووسيلة من وسائلها أيضاً، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿قد جاءَكم بَصائرُ مِن رَبِّكم فَمَن أَبْصَرَ فَلِنفسِه ومن عَمِيَ فَعَلَيْهَا وما أنا عليكم بحفيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤] والبصيرة والحكمة بمعنى التمييز بين الحق والباطل والصواب والخطأ عن طريق الإحساس الداخلي أو الوجدان؛ من هبات الله على الناس، فالله سبحانه وتعالى ﴿يُؤتِي الحكمةَ مَن يَشاءُ ومَن يُؤتَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خَيْراً كثيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩] لأن الحكمة (هي نفاذ البصيرة إلى سنن الحوادث ومجريات الأمور، وإتقان العمل والتصريف دون صدام مع قوانين الظواهر في ضوء ظروف العصر الذي تواكبه، فهي لدى الفقيه القدرة على استنباط التشريعات والأحكام اللازمة في ميادين الحياة المختلفة حسب الظروف والأحوال، وهي لدى المربي المسلم فهم مبادىء التربية وأهدافها ومناهجها وأساليبها وإتقان التعامل بذلك، وهي لدى الإداري

حسن تصريف الأمور، وهي لدى القيادة السياسية حسن التخطيط والتنفيذ في الداخل والخارج، وهي لدى الأمة إدراك معنى وجودها وإجادة تنظيم هذا الوجود ووضعه برمته ومقدراته في خدمة الرسالة الإسلامية، وبالتالي فالحكمة هي فهم كل فرد أو جماعة في الأمة لدوره وإتقان أداء هذا الدور طبقاً لمقاييس الإسلام ومنطلقاته)[1].

ودور التربية أنها هي التي تبصّر بالحقائق المتعلقة بوجودهم ورسالتهم وهي التي تربي فيهم البصيرة والحكمة وتدعوهم لها ﴿وأبْصِرْهم فسوفَ يُبْصِرون﴾ [الصافات: ١٧٥] وإذا كان البصر مجاله الإدراك المادي للأشياء، فإن البصيرة تمثل الإدراك القلبي للأشياء ﴿فإنها لا تعمَى الأبصارُ ولكن تَعْمَى القلوبُ التي في الصُّدورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ويمكن للمعلمين أن يكونوا البصائر بما وجه إليه القرآن من التعود على التأمل والتفكير والتدبّر والتعقّل في آيات الله حتى يكون التمسك بالمبادىء والتعاليم التي فيها عن اقتناع ومعرفة تؤديان إلى اطمئنان القلوب وخوفها وخشوع الجوارح وانقيادها، والآيات التي تحض على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أفلم يَسيروا في الأرضِ فتكونَ لهم قلوبٌ يَعقلونَ بها أو آذانٌ يسمعونَ بها فإنها لا تعمَى الأبصارُ ولكن تعمَى القلوبُ التي في الصدورِ﴾ [الحج: ٤٦]. ﴿إن في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأُولي الألبابِ الذينَ يَذكرونَ اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جُنوبِهم ويَتفكّرونَ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ رَبَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سُبحانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

والقلوب التي لا تعرف الحق بالتأمل والتدبر هي التي لا تعقل ﴿أفَلا يَتدبّرون القرآنَ أمْ على قلوبٍ أقفالُها﴾ [محمد: ٢٤]. ﴿كتابٌ أنزلْناه إليك مباركٌ لِيَدَّبَّروا آياتِه وَلِيَتَذَكَّرَ أولو الألبابِ﴾ [ص: ٢٩] أما الذين لا يتدبرون ولا يتأملون وينصرفون عن وسائل الحق فهم كما حكى الله عنهم ﴿وَجَعَلْنَا

(١) ماجد الكيلاني النظرية التربوية الإسلامية ص ٥١.

على قلوبِهم أكِنَّةً أن يَفقهوهُ وفي آذانِهم وَقْراً وإن يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يُؤمنوا بها﴾ [الأنعام: ٢٥] وعدم التعقل والتدبر والاستماع إلى الحق يؤدي بالمشركين إلى النار ﴿وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ما كنا في أصحابِ السعيرِ﴾ [الملك: ١٠] أما الذين يترفعون عن فهم آياتِ الله وينصرفون عن الحق ويكذبون فإن الله أيضاً صارفهم عن الحق ﴿سَأَصْرِفُ عن آياتي الذِينَ يتكبّرونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ وإن يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يؤمِنوا بها وإن يَرَوْا سبيلَ الرُّشد لا يَتّخِذوهُ سبيلاً وإنْ يَرَوْا سبيلَ الغَيِّ يَتّخِذوهُ سبيلاً ذلكَ بأنهم كذَّبوا بآياتِنا وكانوا عنها غافِلينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وبتكون البصيرة والحكمة في الإنسان يتعرف على الحق الذي أوجد الله سبحانه به الوجود وخلق به السموات والأرض لأن معرفة الحق هي التي تدفع إلى التمسك به وبناء الحياة عليه ﴿وما خَلَقْنا السمواتِ والأرضَ وما بينَهما إلا بالحقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] والآيات بهذا المعنى والتعبير في القرآن كثيرة.

وعلى معرفة الحق تترتب نتائج معرفة خلق الإنسان والوجود والمصير لقيام ذلك كله على الحق الذي نزل به القرآن ﴿وبالحقِّ أنزلناهُ وبالحقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

كما أن البصائر نتائج للتفكير في عواقب الأفعال من المعاصي وما يترتب على الرذائل من هلاك للأفراد والأمم والحضارات، فالله يخبرنا بأن المعاصي هي التي تسببت في ضياعِ أمم وحضارات سابقة فيقول ﴿ألم يَرَوْا كم أهلكْنا من قبلِهم مِن قرن مَكَّنّاهم في الأرضِ ما لم نُمَكِّنْ لكم وأرسلْنا السماءَ عليهم مِدراراً وجعلْنا الأنهار تجري مِن تحتِهم فأهلكْناهم بذُنوبِهم وأنشأْنا مِن بعدِهم قَرْناً آخَرين﴾ [الأنعام: ٦]. ويقول: ﴿ولقد أهلكنا القرون مِن قبلِكم لمّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣].

كما أن المقارنة الدائمة بين الخير والشر والخبيث والطيب والصواب

والخطأ، يساعد على تكوين البصيرة في الإنسان. ولذلك نجد القرآن يكثر من المقارنات بين المواقف والأشياء.

ويدعو القرآن أيضاً إلى استعمال العقل في قياس الأمور لأن ذلك من دلائل البصيرة، وقد تميز أصحاب رسول الله ﷺ بهذه الصفة التي ربّاهم عليها، مما جعل القياس عند المسلمين مصدراً من مصادر الشريعة بعد القرآن والسنة والإجماع. ولولا أن الرسول ﷺ مارس ذلك مع أصحابه فيما عهد إليهم من مهام لم يجدوا فيها نصاً من كتاب الله، لما كان للقياس تلك الأهمية، مثل ما فعل سيدنا عمر في حد شارب الخمر عندما استشار فأفتاه سيدنا عليّ بالجلد ثمانين جلدة قياساً على حدّ القاذف لأنه إذا شرب سكر فهذى فافترى، وحدّ المفتري القاذف ثمانون جلدة. ومثل هذا كثير عند أصحاب رسول الله ﷺ لما تميزوا به من نفاذ البصيرة والحكمة.

والتعود على الحقائق وممارستها من عوامل تكوين البصائر، لأن الحقيقة تدل على جانب الخير في الفعل وجانب الشر فيه فيكون القرب والبعد مبنيان على معرفة حقيقة الخير وفائدته وسوء الشر وضرره، ولا يستوي العالم والجاهل.

إن المربي يستطيع بإخلاصه وإدراكه للوسائل المتعددة لتكوين البصيرة والحكمة وممارسته لهما أن يساعد على بناء جيل راجح العقل حكيم متبصر متفتح، يزن الأمور بميزان العقل والبصيرة، لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها وأبصار ينظرون بها وبصائر يعرفون بها، لأن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا.

٣ ـ تكوين الإرادة:

الإرادة قوة من القوى المحركة للإنسان مرتبطة بالتصميم والعزم على فعل الشيء، فعنها تصدر الأعمال الإرادية للإنسان، ويرى البعض أن الإرادة ميل النفس إلى شيء ما وحملها على فعله، ولكن الفرق واضح بين

الميل والإرادة لأنه قد يوجد الميل ولا توجد الإرادة، والإرادة تشمل الميل والشعور والعزم ثم العمل، والإرادة هي القوى المحركة لملكات الإنسان والدافعة له إلى العمل.

وللإرادة نوعان من العمل فقد تكون دافعة للعمل، وقد تكون مانعة تمنع الإنسان من القول والفعل. وأعمال الخير والشر في الإنسان منبعها إرادته. ولارتباط الإرادة بالخلق عرّف بعضهم الخُلق بأنه (عادة الإرادة) يعني أن الإرادة إذا اعتادت شيئاً فعادتها هي المسماة بالخُلق، فإذا اعتادت الإرادة العزم على الإعطاء سميت عادة الإرادة هذه: خلق الكرَم. وقريب من هذا التعريف قول بعضهم هو تغلب ميل من الميول على الإنسان باستمرار[1].

وذلك لأن البخل وعدم الإنفاق من طبائع النفوس، كما أن الغضب وحب الانتقام كذلك، ولذلك جعل الرسول القوي من الرجال الذي يملك نفسه عند الغضب. والأحاديث كثيرة في فضل الجوع وخشونة العيش والاقتصار على القليل من المأكل والمشرب وغيرها، وكلها تؤدي إلى تقوية الإرادة في جانب التغلب على شهوات البطن والفرج، فالرسول عليه الصلاة والسلام وآله لم يشبعوا من خبز شعير يومين متتابعين حتى مات كما روت عائشة.

ولأن الإنفاق عامل من عوامل تقوية الإرادة وعقاب النفس، قرر الإسلام الزكاة في مقادير معلومة من المال ﴿خُذْ مِن أموالِهم صدقةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكِّيهم بها﴾ [التوبة: ١٠٣]. وجعل المال كفارة لكثير من الذنوب، كما حثّ على الإنفاق تفضلاً وتدريباً للإرادة المتغلبة على غرائز النفس حباً للخير ومحاربة للرذائل وإيثاراً للغير على النفس، لأن تكاليف الإسلام كلها لا يقوم بها إلا شخص قويت إرادته وعزيمته، بحيث يبدأ من التكاليف التي تحتاج إلى جهد بسيط لتتدرج في الوصول إلى التكاليف

(١) أحمد أمين كتاب الأخلاق ص ٦٣.

التي تحتاج إلى تضحية بالنفس والمال والحياة كلها في سبيل الله.

والإرادة لها صلة قوية بالميول والبواعث والغايات والرغبات لأنها دوافع إلى العمل، ولأنها تجتمع مع الإرادة في جانب وتختلف في آخر. وقد ربطت التربية الإسلامية بين النية والإرادة باعتبارها العزم على فعل الشيء والقصد والتصميم القلبي عليه، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

والإرادة لا بد أن تكون قوية دائمة بحيث تنفذ الأشياء التي تريدها مهما كلفها ذلك من متاعب ومشاق ومهما وضعت أمامها العقبات والصعوبات، ومثل هذه الإرادة لا تقوى إلا إذا اعتمدت على عقيدة راسخة ثابتة، لأن الإرادة المبنية على العقيدة السليمة هي القوة المحركة للسلوك الناتج عنها، كما أن التدريب على الفضائل ومعرفة قيمتها وممارستها وترك الرذائل ونبذها من مقويات الإرادة، قد تضعف الإرادة أمام الشهوات وأهواء النفس والمغريات فتفقد قوة الصمود أمامها فتستسلم وتقع في المحظور. وقد تكون الإرادة قوية ولكنها مريضة أيضاً لأن قوتها في الجانب السلبي جانب الشر ولتوجيه هذه القوى والطاقة في الإجرام والانحراف والشذوذ.

وسائل تكوينَ الإرادة الخيِّرة وتقويتها:

١ ـ الصبر وسيلة كبرى من وسائل تربية الإرادة وتقويتها، وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة في ذلك منها قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الذِينَ آمَنوا اصْبروا وَصَابِروا ورابِطوا واتّقوا اللهَ لعلّكم تُفْلِحونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وعن الآية يقول الحسن البصري «أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام، فلا يدَعوه لسرّاء ولا لضرّاء ولا لشدّة ولا لرخاء حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم» وهذا من

(١) رواه البخاري ومسلم.

الصبر على الطاعات وعلى الصلاة والتكاليف.

كما أن الصبر يكون على البلاء[1] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكم بشيءٍ من الخوفِ والجوعِ ونقصٍ مِن الأموالِ والأنفس والثمراتِ وبَشِّر الصابرينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] و﴿إنما يُوَفَّى الصابرونَ أَجْرَهم بغيرِ حسابٍ﴾ [الزمر: ١٠] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكم حتى نعلمَ المجاهدِينَ منكم والصابرينَ﴾ [محمد: ٣١] والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له»[2].

والصبر من أنواع البر التي ذكرها الله تعالى ﴿والصابرينَ في البأساءِ والضَّرّاءِ وحِينَ البأسِ﴾ [البقرة: ١٧٧] ولأن الصبر يقوي الإرادة. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صبرَ وغفرَ فإن ذلكَ مِن عزمِ الأمورِ﴾ [الشورى: ٤٣] والله مع الصابرين ﴿اسْتَعِينوا بالصبرِ والصلاةِ إن الله مع الصابرينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] والصدقة برهان والصبر ضياء ولا يكون الصبر إلا بمجاهدة النفس وأخذها على التحمل وطلب العون عليه من الله سبحانه وتعالى لأن «من يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر» كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ المران على فعل الخير وإلزام النفس بالأعمال التي تتطلب مشقة ومجاهدة للنفس، لأن توفيق الله الإنسان مرتبط بتلك المجاهدة فالله سبحانه يقول: ﴿والذين جاهَدوا فِينا لَنَهْدِيَنّهم سُبُلَنا وإن الله لَمَعَ المحسنين﴾ [العنكبوت: ٦٩] وفي الحديث «حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره» ورواية مسلم (حفت) بدل (حجبت) أي بينه وبينها هذا الحجاب فإذا فعله دخلها[3].

---

(١) ابن كثير ج ١ ص ٤٤٤.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

ومن المران الواجب لتقوية الإرادة: صوم رمضان، كما أن الرسول ﷺ حث الناس على الصوم تطوعاً، ودعا الشباب إلى الصوم في سبيل التغلب على قوة الطاقة الجنسية، ولأن الإسراف في هذه الوسيلة قد يؤدي إلى نتائج عكسية، فإن الرسول ﷺ منع مواصلة الصوم ونهى عن التبتل ودعا إلى بذل الجهد على قدر الطاقة.

٣ ـ المران على التغلب على الغرائز الفطرية في الإنسان وإخضاعها لقيود الدين والعقل والأخلاق والقواعد الصحية التي تكون المصلحة في إشباعها وإعطاء الجسم حقه بالطرق المشروعة وعدم ترك النفس على هواها والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿الذِين يُنفِقونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكاظِمِينَ الغَيْظَ والعافِينَ عَنِ الناسِ واللهُ يُحِبُّ المحسنين﴾ [آل عمران: ١٣٤].

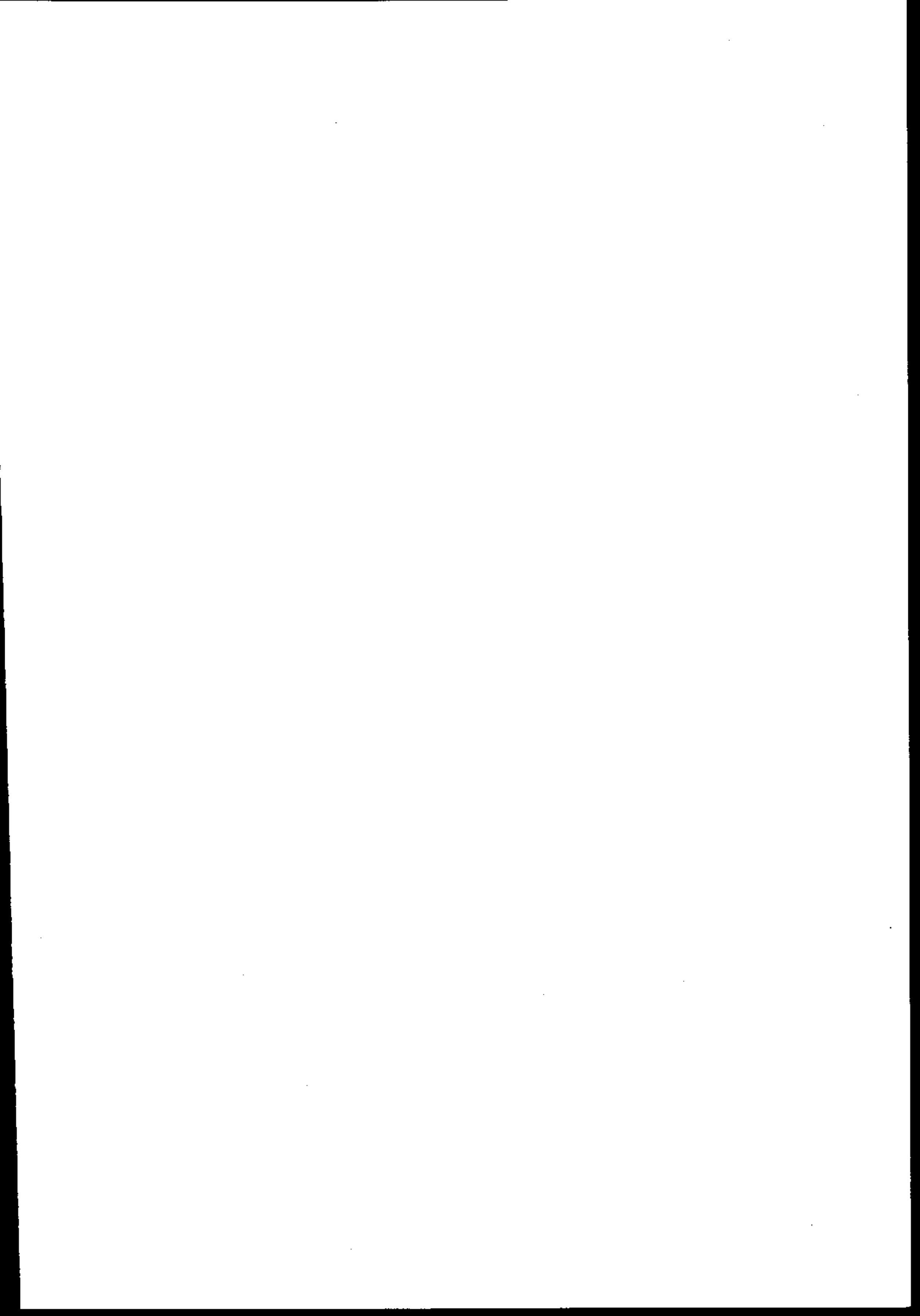
٤ ـ مخالفة العادة: وهي ترك عوائد النفس، وشهواتها، ورعوناتها وبطالاتها، ولا يمكن ذلك إلا بهذه الأشياء وهي: صحبة العلم ومعانقته فإنه النور الذي يعرف العبد مواقع ما ينبغي إيثار طلبه، وما ينبغي إيثار تركه فمن لم يصحبه العلم: لم تصح له إرادة باتفاق كلمة الصادقين[١].

٥ ـ التحبب إلى الله بالنوافل والإخلاص في نصيحة الأمة، والأنس بالخلوة، والإيثار لأمر الله تعالى، والحياء من نظره، وبذل المجهود والتعرض لكل سبب يوصل إليه، والقناعة، وعدم قرار القلب حتى يصل إلى وليه ومعبوده[٢].

---

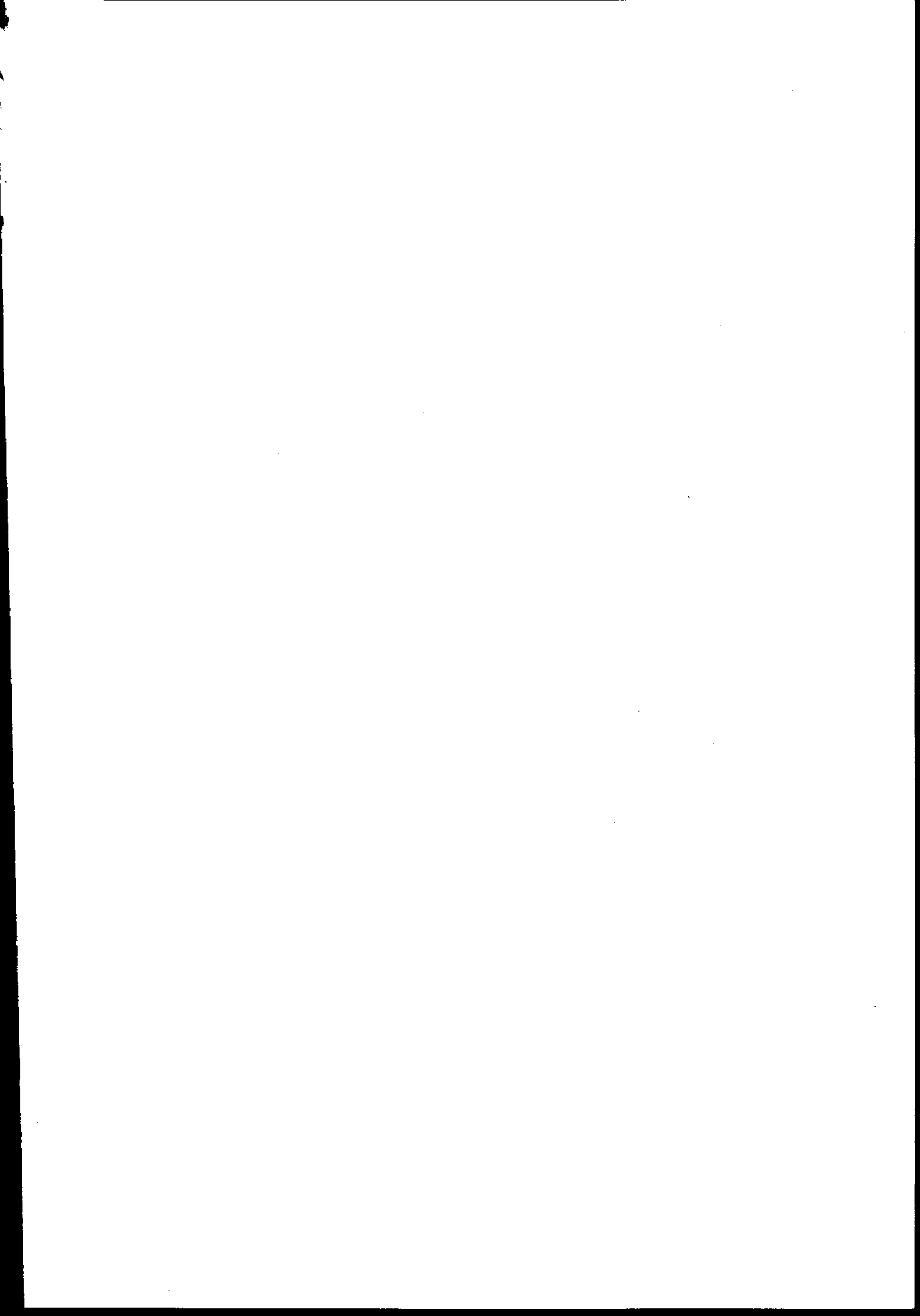
(١) تهذيب مدارج السالكين ـ ابن القيم ص ٤٤٢.

(٢) تهذيب مدارج السالكين ـ ابن القيم ص ٤٤١.



الخَـاتـمَة

مميِّزات التَّربية في الإِسلام



خصائص التربية الإسلامية ومميزاتها

كل نظام تربوي في العالم اليوم له خصائصه التي تميزه عن الأنظمة الأخرى، وأهم هذه الخصائص تتمثل في تكيف النظام التعليمي «بالأيديولوجية» التي تدين بها الأمة، ثم ارتباط هذا النظام بنمط أخلاقي معين، فالغرض الأساسي لنظام التعليم في الإسلام كما هو معلوم كان ـ وينبغي أن يكون ـ موجهاً إلى روح الأخلاق الإسلامية والإيمان بطبيعة هذا الدين ومنهجه وأهدافه في الحياة، ليكون من نتاج هذا التعليم شباب مسلم مسلح بالقيم الإسلامية والمعارف الأساسية، وتوجيه الشباب المسلم إلى هذه الغاية لن يتم بمجرد دراستهم للعلوم الشرعية كالفقه والحديث والتوحيد والأصول، بل عن طريق تغلغل روح الإسلام إلى درجة التشبع في كل المواد التي تدرس كالجغرافيا والعلوم والاقتصاد والهندسة والطب وغيرها من المواد التي هي مثار اهتمام البشرية ودراستها.

التعليم يخضع للمبدأ:

إننا نشاهد اليوم الفلسفة الماركسية تدرّس في الاتحاد السوفييتي ومعظم الدول الاشتراكية كجزء أساسي من مقررات النظام التعليمي، ثم هي داخلة في كل مادة تدرّس، فهم يدرسون العالم كله من واقع هذه الفلسفة ونظرياتها. فإذا أخذنا مثلاً مادة التاريخ فهم يدرسون تاريخ إفريقيا على أساس ربطه بصراع الأفارقة الطويل مع الاستعمار، كما يدرسون تاريخ أمريكا من واقع استعماريتها وقضائها على الهنود، ويركزون في

دراسة التاريخ على ما يقوي تفسيرهم المادي له، فتاريخ العالم القديم ما هو إلا تاريخ سيادة العبودية والرق للشعوب، وتاريخ العصور الوسطى هو تاريخ الإقطاع، وذلك كله بهدف التعميق في نفوس الطلاب أن المجتمع الاشتراكي الذي يطالبون ببنائه هو نتيجة الحركة الحتمية للتاريخ، أو ثمرة الحركة العلمية للتاريخ للوصول في النهاية إلى الاشتراكية ثم الشيوعية.

وكما يعتبر المسلمون تعلم العربية مهماً للمسلمين باعتبارها لغة القرآن ودعامة الدين، فإن اللغة الروسية تدرس في البلدان الاشتراكية باعتبار الاتحاد السوفييتي الأنموذج الأول للاشتراكية في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا، فالاشتراكية تدرَّس بطرق مباشرة وغير مباشرة، ويعلن عنها كشعارات للدولة والشباب، وتستعمل لذلك الوسائل السمعية والبصرية، لذا أتعجّب ممن يتعجبون من تحكيم الإسلام في كل شيء واتخاذه أساساً للتربية خاصة، والحياة عامة، وغرس مثله ومبادئه بكل الوسائل والطرق التي أقرها الإسلام لمناهضة الباطل الذي يروَّج له اليوم.

ظواهر تربوية:

من خصائص التربية الإسلامية تميزها بسبق التربية الحديثة في العناية بالطفل كحي له اعتباره المستقل، وحقه في النمو نمواً طبيعياً، وتمتعه بمواهبه التي منحها الله له، ولا تعتبر التربية الطفل وافداً مزعجاً لوالديه يحيطانه بالقيود والأغلال التي تحدّ من مواهبه، وقد تقتلها، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في رحمته بأحفاه، ورفقه بأبناء المسلمين، وشفقته بهم، وتعليمهم وتوجيههم.

ومن خصائص هذه التربية مراعاتها للفوارق الفردية التي ينادي بها علماء التربية الحديثة، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول ما معناه: «نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم» وأبو حامد الغزالي يطالب المعلم أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي

إليه ما لا يبلغه عقله فينفره[1]. فمراعاة المستويات العقلية من أهم سمات هذه التربية، ليس في العلوم النظرية فحسب بل حتى في اختيار الصناعة التي يوجه إليها الأطفال. فابن سينا يقول: (ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه، ولذلك ينبغي لمدبّر الصبي إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولاً طبع الصبي ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه، فيختار له الصناعات بحسب ذلك)[2].

وقد اهتمت التربية في الإسلام بما تعتبره التربية الحديثة من اكتشافاتها في عالم الصغار وهي المناداة باختيار «شلة الرفاق»، فقد أوصى ابن سينا (أن يكون مع الصبي في مكتبه صبية حسنة آدابهم، مرضية عاداتهم، لأن الصبي عن الصبي ألقن، وهو عنه آخذ وبه آنس)[3] فالأطفال الذين يمثلون جماعة الرفاق من أهم العوامل المؤثرة في نشأة الطفل، وتمسكه بعادات من يعيشون معه وتقاليدهم وسلوكهم عن طريق التقليد والمحاكاة التي يتعلم بها من أساتذته ثم من زملائه وأصدقائه.

ومن سمات التربية الإسلامية انتفاء التناقض بين التربية ومن تقع عليه عملية التربية من حيث الهدف والوجود، فالإنسان المسلم قد وجد في الأرض ليحقق بقصده وإرادته حكمة الله في الأرض ومقتضى وجوده، وهو في سبيل ذلك يتطور وينمو ويرقى بروحانياته ليصل إلى أحقية تكريم الله له وتحقيق قيمته كفرد في الحياة له حرمته في ماله ودمه وعرضه، وليستعمل عقله في مدارج نموه وتطوره ليدرك عظمة هذا الكون وسر خالقه.

إن النظم التربوية في ظل أنظمة غير إسلامية تنشىء الأجيال على قتل النور في جوانحها وقلوبها، وهي عوائق تقف في سبيل مسيرة الإنسانية إلى الله سبحانه وتعالى، مما يجعل الشعوب الإسلامية تحس بأن تضحياتها

(١) الغزالي ـ احياء علوم الدين ج ١ ص ٥٧.
(٢) عطية الأبراشي ـ التربية الإسلامية ص ١١٧.
(٣) المصدر السابق.

الجسيمة ونضالها المرير ضد الاحتلال لم تكن تهدف إلا إلى إحلال طغاة من أبناء جلدتهم بدلاً من القدامى، ومما عمّق الإحساس بأن التربية التي يدرسونها ويتخلقون بها كثيراً ما تتنافى مع التربية الإسلامية بسماتها المميزة وأهدافها الكبيرة.

ومن خصائص التربية الإسلامية أنها تربية إيجابية تقوم على الأخلاق وتعمل على سيادتها في المجتمع، وتحارب مظاهر الانحراف الاجتماعي، والتسلط السلطاني، والأدواء السائدة من أثرة وأنانية ورشوة ومحسوبية، وهي تربي الأفراد على أساس من النزاهة والعفة والمودة والرحمة والإيمان الراسخ بأن هذا الكون لم يخلق عبثاً ولا مصادفة، ولا يسير اعتباطاً أو متخبطاً، وأن وجود الإنسان فيه مرتبط بخطة الله الكونية التي يسير الإنسان في داخلها وفق قواعد ونواميس طبيعية محددة، وأهمية التلاؤم مع ذلك كله ليصل الإنسان إلى غاية وجوده في العالم، وتحقيق سيادة كلمة الله، وبناء مجتمع الإسلام، مجتمع السلام والألفة والمودة والرحمة والإخاء والطمأنينة.

إن من خصائص هذه التربية كذلك أنها تنتج نفوساً صادقة مؤمنة بالله متفائلة لا مجال فيها للإلحاد والشك والتشاؤم، وأنها توجد أمة متحصنة ضد الأنظمة المتسترة بالشعارات البراقة التي تسببت في مآسٍ وآلام لا زالت الأمم تعاني منها، وتدفع ثمنها من حياتها وقيمها ومثلها ودينها وكرامتها وعزتها.

ومن مميزات التربية الإسلامية أيضاً أنها تستهدف طاقات الإنسان العقلية والروحية والجسدية وتوجهها في مسارها الصحيح، فالعقل ينمي ويوجه ويعطي أكثر قدراته في التأمل والتذكر والتفكير في الكون ومخلوقات الله للوصول إلى المعرفة الحقيقية لله مع إعطائه حقه في التعليل والتحليل، أما في مجال النفس والروح فإنها توجه الطاقات لعبادة الله سبحانه وتحقيق الغاية من الوجود، وترويض النفس وتدريبها حتى تنتصر

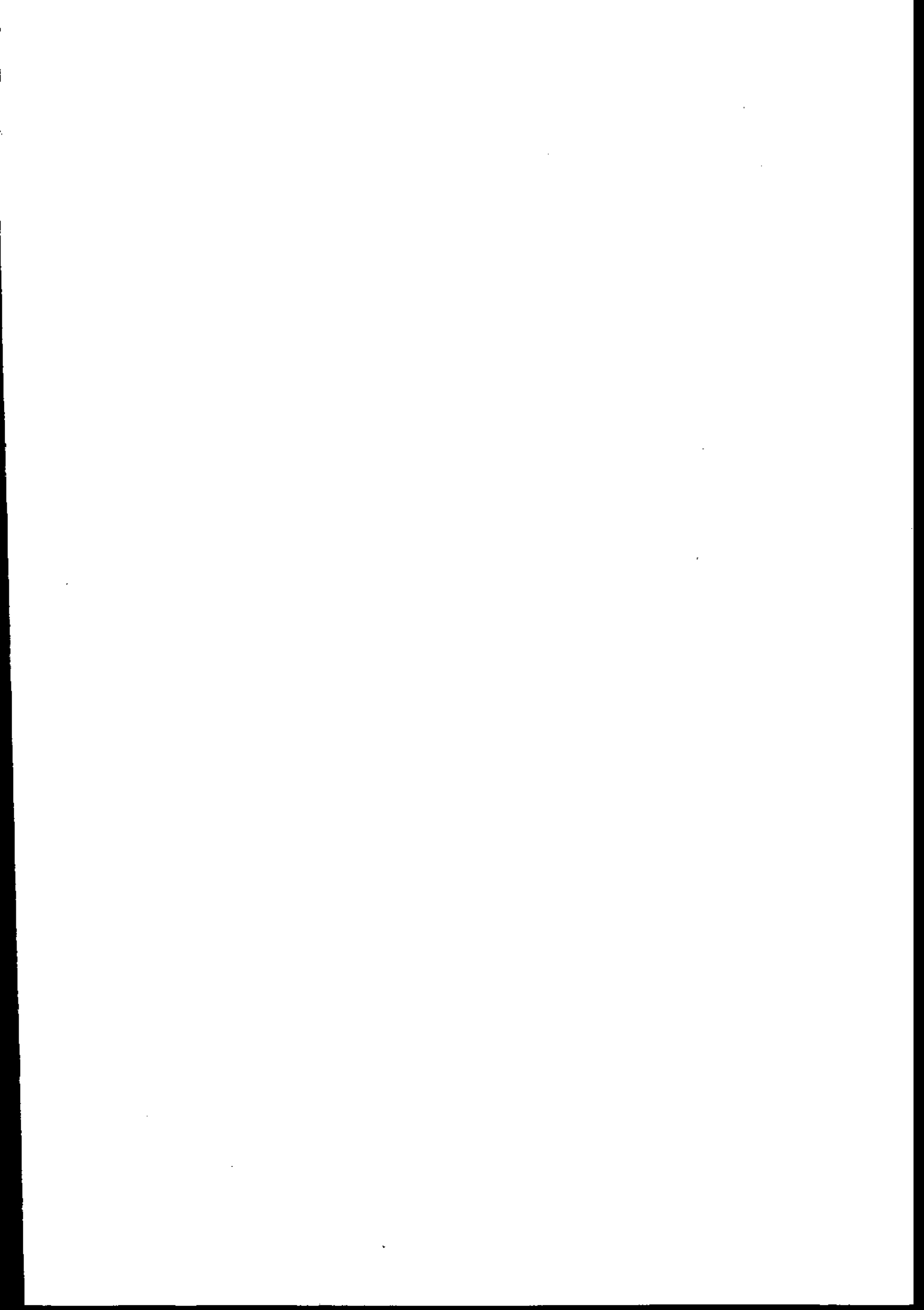
على شهواتها ونوازعها ورغباتها[1]. وهذا يتطلب إعطاء الروح حقها من الغذاء لتتهذب وتسمو ويرسخ إيمان الفرد ويكون على صلة بالله في البيت والمسجد والمدرسة والمجتمع، أما الجسد فلا تقل حاجته عن الروح الذي هو وعاء لها، فالعقل السليم في الجسم السليم، وإن لبدنك عليك حقاً، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، من هنا كان من خصائص هذه التربية الاهتمام بتربية الناحيتين الروحية والجسدية حتى يكون المسلم قادراً على أداء واجبات الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله والدفاع عن الحق ودحر الباطل والظلم.

ومن سمات التربية الإسلامية أن التعاون فيها لازم بين النظام التعليمي في المدرسة وأجهزة التوجيه الأخرى في المجتمع، مثل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، والصحافة، ووسائل النشر، والمسجد، والبيت والمجتمع، فهي نظام تربوي يمثل الإطار العام للنظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للدولة، وذلك لأن هذه النظم وتلك الأنشطة كلها في خدمة المواطن المسلم الإنسان الساعي إلى تحقيق وجوده الأكبر في الحياة وهو إخلاص العبادة للّه سبحانه وتعالى. والتقرب إليه بما طلب منه ﴿وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيَعبدون﴾ ﴿يَعْبُدونني لا يُشْرِكونَ بي شيئاً﴾ لأن العبادة في مظهرها العام هي الترجمة الفعلية لمشاعر الفرد نحو خالقه، وخضوعه واستسلامه له، وهي التي تربط الفرد المسلم بمجتمعه، لأن العبادات كلها تهدف إلى تماسك المسلمين وترابطهم واتحادهم في المنهج والمصير.

وهذه الظاهرة التربوية التي تهدف التربية الإسلامية إلى تأصيلها وتعميقها هي هدف مستمد من طبيعة المجتمع المسلم وسماته، لأنه مجتمع يهدف إلى تحرير الإنسان من عبادة غير الله، والحكم بشريعته والتمسك بقيم الإسلام وتقاليده انطلاقاً من منهج الله شريعةً ونظاماً.

---

(١) سعيد حوى ـ الإسلام ص ١١٣.



المـراجـــع

١ ـ **إحياء علوم الدين**: أبو حامد الغزالي.

٢ ـ **أدب الدنيا والدين**: الماوردي.

٣ ـ **الاتجاه الأخلاقي في الإسلام**: مقداد يالجن.

٤ ـ **الإسلام**: سعيد حوى.

٥ ـ **الإسلام يتحدى**: وحيد الدين خان/ ترجمة ظفر الإسلام خان.

٦ ـ **البيان والتبيين**: الجاحظ.

٧ ـ **أصول المنهج الجديد**: وليم كلباترك/ ترجمة الهادي عفيفي وأبو الفتوح رضوان وآخرين.

٨ ـ **آفاق التربية الحديثة في الدول النامية**: محمد فاضل الجمالي.

٩ ـ **أهمية نظام التربية والتعليم**: أبو الحسن الندوي.

١٠ ـ **تأملات في سلوك الإنسان**: الكسيس كاريل.

١١ ـ **تاريخ التربية الإسلامية**: د. أحمد شلبي.

١٢ ـ **تاريخ التربية**: بول مونرو/ ترجمة صالح عبد العزيز.

١٣ ـ **التربية الأخلاقية في الإسلام**: مقداد يالجن.

١٤ ـ **التربية الإسلامية الحرة**: أبو الحسن الندوي.

١٥ ـ **التربية وطرق التدريس**: صالح عبد العزيز وعبد العزيز عبد المجيد.

١٦ ـ **التربية الإسلامية وفلاسفتها**: محمد عطية الأبراشي.

١٧ ـ **تطور مفهوم النظرية التربوية في الإسلام**: د. ماجد عرسان الكيلاني.

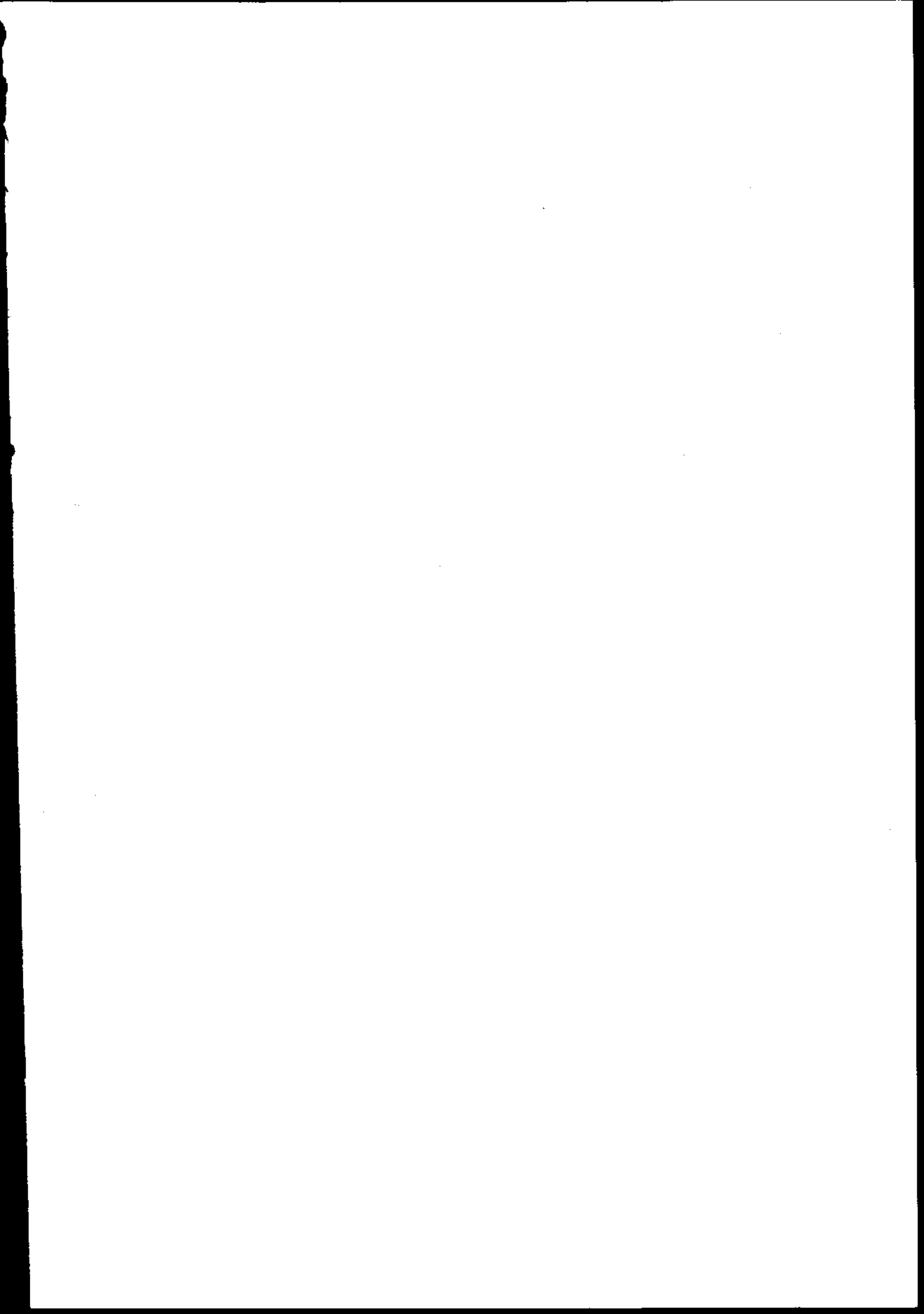
١٨ ـ **تطور الفكر التربوي**: د. سعد مرسي أحمد.

١٩ ـ **تفسير القرآن العظيم**: إسماعيل بن كثير الدمشقي.

٢٠ ـ **تفسير الطبري**: الطبري.

٢١ ـ **تهذيب مدارج السالكين لابن القيم**: عبد المنعم صالح العلي.
٢٢ ـ **جامع بيان العلم وفضله**: ابن عبد البر.
٢٣ ـ **جامع بيان العلم وفضله**: القرطبي.
٢٤ ـ **الجامع الصحيح**: الترمذي.
٢٥ ـ **جند الله ثقافة وأخلاقاً**: سعيد حوى.
٢٦ ـ **حركة تحديد النسل**: أبو الأعلى المودودي.
٢٧ ـ **رياض الصالحين**: الإمام النووي.
٢٨ ـ **سبل السلام شرح بلوغ المرام**: محمد بن إسماعيل الكحلاني.
٢٩ ـ **سنن أبي داود**.
٣٠ ـ **سنن ابن ماجه**.
٣١ ـ **سنن الدارمي**.
٣٢ ـ **سيرة ابن هشام**: أبو محمد عبد الملك بن هشام.
٣٣ ـ **شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم**: ابن رجب الحنبلي.
٣٤ ـ **شعب الإيمان**: البيهقي.
٣٥ ـ **صحيح مسلم**.
٣٦ ـ **العبودية**: لابن تيمية.
٣٧ ـ **العلم يدعو للإيمان**: كريس موريسون.
٣٨ ـ **علم النفس التربوي**: د. أحمد زكي صالح.
٣٩ ـ **فتح القدير**: الشوكاني.
٤٠ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: ابن حجر العسقلاني.
٤١ ـ **فجر الإسلام**: د. أحمد أمين.
٤٢ ـ **في ظلال القرآن**: سيد قطب.
٤٣ ـ **كتاب الأخلاق**: أحمد أمين.
٤٤ ـ **لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها**: د. محمد أمين المصري.
٤٥ ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**: أبو الحسن الندوي.
٤٦ ـ **المسند**: الإمام أحمد بن حنبل.
٤٧ ـ **مختصر تفسير ابن كثير**: د. الصابوني.
٤٨ ـ **معالم التربية**: د. فاخر عاقل.
٤٩ ـ **معالم في الطريق**: سيد قطب.

٥٠ ـ مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمٰن بن خلدون.
٥١ ـ مقدمة في التربية: د. إبراهيم ناصر.
٥٢ ـ منهج التربية الإسلامية: محمد قطب.
٥٣ ـ منهج القرآن في التربية: محمد شديد.
٥٤ ـ الموافقات: الإمام الشاطبي.
٥٥ ـ مجلة الفيصل: مجلة شهرية تصدر في الرياض.



محتويات الكتاب

المؤلـف

الدكتور: عباس محجوب محمود

من مواليد مدينة بور سودان عام ١٩٤٠م

- **المؤهلات العالية:**

دكتوراه الفلسفة في الآداب ـ جامعة القاهرة.

ماجستير في الآداب ـ جامعة القاهرة.

الدبلومة الخاصة في التربية ـ جامعة عين شمس.

الدبلومة العامة في التربية ـ جامعة عين شمس.

- **الخبرات العملية:**

التدريس في وزارة التربية في السودان ـ الفترة من ١٩٦٢ ـ ١٩٧١ م.

التدريس في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ـ الفترة من ١٩٧٥ ـ ١٩٨٣ م.

- **البحوث التي لم تنشر:**

(١) الشعر العربي الفصيح في السودان ما بين عامي ١٨٠٥ ـ ١٩٥٦ م.

(٢) الشعر السياسي في السودان من ثورة ١٩٢٤ إلى الاستقلال.

(٣) بحث فاز بجائزة جامعة الملك عبد العزيز للأساتذة عام ١٩٨١ بعنوان: «الجوانب النظرية والتطبيقية في بناء الإنسان وتربيته».

- **البحوث المنشورة:**

(١) كتاب أصول الفكر التربوي في الإسلام.

(٢) كتاب نحو منهج إسلامي في التربية والتعليم.

(٣) عدد كبير من البحوث في مجلات علمية وثقافية عامة منها: مجلة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ـ مجلة المعهد العالي للدعوة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض «هذه سبيلي» ـ كتاب محاضرات الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ـ مجلة الأمة القطرية ـ مجلة المجتمع الكويتية ـ مجلة منار الإسلام ـ مجلة «الغرباء» في بريطانيا.

- **المؤتمرات والدورات الدراسية:**

- المؤتمر العالمي الأول للدعوة والدعاة ـ المدينة المنورة عام ١٩٧٧ م.
- ندوة ابن خلدون والفكر المعاصر ـ تونس ـ المنظمة العربية ١٩٨٠ م.
- المؤتمر الشبابي الإسلامي لدول إفريقيا الجنوبية «مالاوي» ١٩٨١ م.
- دورة الاتحاد العالمي للمدارس الإسلامية بنيجيريا ـ كانو ١٩٨٠ م.
- دورة الاتحاد العالمي للمدارس الإسلامية بالفلبين ـ صيف عام ١٩٨١ م.
- المشاركة في عدد من مؤتمرات الطلبة المسلمين في بريطانيا وإيرلندا وإيطاليا.

